تاريخ الحركات الفكرية في عصر النهضة

الحركات الفكرية في عصر النهضة

في فلسطين والأردن

علي المحافظة

الأهلية للنشر والتوزيع

إلى باسل وسيرين وقيس وبسمة وجيل المستقبل

A
306
M952h

علي المحافظة

تاريخ الحركات الفكرية في عصر النهضة

الحركات الفكرية في عصر النهضة

في فلسطين والأردن

B. U. C. LIBRARY
29 APR 1987
RECEIVED

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
الأهلية للنشر والتوزيع

بيروت ١٩٨٧

بيروت، الحمراء، بناية الدورادو، ص. ب ١١٣٥٤٣٣، هاتف ٣٥٤١٥٦ ـ ٣٥٤١٥٧

المحتويات

كلمة أولى

هذا الكتاب «الفكر العربي في عصر النهضة في فلسطين والأردن» للدكتور علي محافظه، رئيس جامعة مؤتة الأردنية، هو محاولة لايضاح الدور الذي قامت به فلسطين والأردن في الحياة الفكرية في عصر النهضة (وقد اختارت الأهلية للنشر والتوزيع الفترة الممتدة من ١٧٧٥ إلى ١٩٢٥ مجالاً زمنياً لهذه النهضة).

ونحن إذا قارنا دور لبنان وسورية ومصر بالدور الفلسطيني ـ الأردني، وجدنا أن حصة هذين القطرين كانت أصغر من أي من الأقطار الأخرى. لكن ذلك لا يمنع من التأريخ له.

إن المدارس الحديثة التي بدأت عملها في فلسطين، وخاصة في القدس ويافا وحيفا والناصرة وبيت جالا وغيرها، منذ أواسط القرن الماضي، كانت معاهد ذات أثر كبير في تثقيف الناس وتوعيتهم ونقل العلوم الحديثة إليهم. لكن زخمها لم يكن على النحو الذي عرفته الأقطار الأخرى، حتى المجاورة. والمدارس التقليدية التي كانت في البلدين كان لها دور الاحتفاظ بالخميرة؛ بحيث أن المدارس الحديثة المتنوعة والكثيرة التي جاءت في ما بعد وجدت تربة مهيأة لقبول الأفكار الجديدة.

واتيح لفلسطين ـ قبل الأردن ـ أن تعرف المطبعة والجريدة والمجلة. ومع أن هذه كانت دون مثيلاتها في الأقطار الأخرى نشاطاً، فإن الذي تم على أيديها يستحق أن يؤرخ له. وهذا ما قام به الدكتور محافظه في هذه الدراسة.

وقد نظمت «الأهلية للنشر والتوزيع» هذا الكتاب بحيث جاء في قسمين يتم كل منهما الآخر. ففيما يتحدث القسم الأول عن الأفكار (متجنباً النواحي الأدبية الصرفة)، يضع القسم الثاني في متناول القارىء نماذج مما وضعه المفكرون أنفسهم. والغاية من ذلك هي أن يدخل القارىء إلى نفس الكتّاب مباشرة فيرى، من خلال كتابتهم، ما كان يدور في خلدهم من أمور وشؤون وشجون.

نقولا زياده

الأهلية للنشر والتوزيع

مقدمة

هذه دراسة شاملة موجزة للحياة الفكرية في فلسطين والأردن في عصر النهضة العربية، الغاية منها إبراز التيارات الفكرية العامة الدينية والسياسية والاجتماعية والتربوية في هذين القطرين العربيين. وليس القصد منها تقديم رصد وافٍ ودقيق لما أنتجه المفكرون والأدباء والكتّاب، فذلك أمر يحتاج إلى جهود كبيرة تتجاوز جهد الفرد. لقد شدّت الأحداث السياسية اهتمام الباحثين والكتّاب العرب والأجانب، منذ بداية النزاع العربي ـ الصهيوني في هذ البقعة من الوطن العربي، فأشبعوا الحقبة الحديثة من تاريخ فلسطين السياسي بحثاً وتنقيباً، بينما لم تتجاوز الدراسات التي تناولت الحياة الفكرية في عددها أصابع اليد. وإني إذ أقدم هذه الدراسة آمل أن تسهم في إلقاء بعض الضوء على الحياة الفكرية في هذين القطرين العربيين وأن تدفع الباحثين إلى خوض هذا الميدان.

وأود في هذا المقام أن أقدم جزيل شكري للأستاذ الدكتور نقولا زيادة الذي تلطف بقراءة مخطوطة هذا الكتاب، وأبدى ملاحظاته القيّمة التي أخذنا بها.

علي محافظه

المدخل

دخلت فلسطين والأردن، كغيرهما من الأقطار الشامية في حوزة الدولة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر. واختلفت تقسيماتها الإدارية خلال القرون الثلاثة الأولى من حكم العثمانيين كما اختلفت تبعية كل وحدة إدارية باختلاف الولاة وباتساع نفوذهم أو تقليصها. وفي معظم الحالات كانت سناجق فلسطين والأردن تتبع ولاة دمشق وصيدا وعكا.

وكان السلطان العثماني، خلال هذه الفترة، ظل الله على الأرض، وإليه مرجع كل شيء. يمنح سلطته هذه لولاته الذين لا يسألون عن سلوكهم إلا أمامه. فالوالي أو الباشا نائب السلطان، يعين لسنة واحدة، فإذا انتهت مدته، ازدحم المتنافسون في الباب العالي، وتدخل المتنفذون، وفاز بالمنصب ذو اليد الطولى. فإذا جاء عاصمة الولاية أصبح همه جمع المال ليسدد ما أنفقه من رشوة للمتنفذين وليجمع مبلغاً من المال لتأمين تجديد تعيينه سنة أخرى، وليوفر ما تيسر له لما قد تخبىء له الأيام. وأول ما يتبادر إلى ذهنه عزل الموظفين وتعيين آخرين محلهم، وتلزيم جباية الأموال الأميرية للمتنفيذين في مختلف المقاطعات الذين يتسابقون في تقديم الهدايا والأموال إليه. ويقوم أيضاً باستيفاء مكوس الجمارك وضريبة الإرث. وإذا تولى إمارة الحج، وكثيراً ما كان يتولاها، حق له أن يرث من يتوفاه الله في حجه. وغالباً ما كان الوالي يحتكر بعض المرافق التجارية، وإذا أعوزه المال فرض

الضرائب على الأهلين. ولا عجب إذا جمع بعض الولاة أموالاً ضخمة بمختلف هذه الأساليب. فقد بلغت ثروة أحمد باشا الجزار، والي عكا، عشرة ملايين من الفرنكات الذهبية(١).

ولم يغفل الباب العالي عن هذه الثروات الطائلة، بل كان يتريث حتى تتراكم ثم يعين والياً جديداً يطيح من سبقه ويصادر ثروته ويحمل بعضها إلى الآستانة، زاعماً أن الوالي القديم قد ظلم الرعية وسلب أموالها.

لقد كان من مهام الوالي وحكام السناجق الحفاظ على الأمن ودفع الأخطار عن المناطق الموكولة إليهم، وتوفير أسباب الراحة للسكان، يساعدهم في ذلك الجند من انكشارية وسباهية ويرلية وحرس خاص يخدمون برواتب زهيدة فيعوضون عن ذلك بالاعتداء على السكان وسلب أموالهم. ولا غرابة، والحالة هذه، أن تعم الفوضى البلاد ويسودها الخراب. فقد ذكر فولني الذي زار بلاد الشام في الربع الأخير من القرن الثامن عشر أن سكان فلسطين لم يتجاوزوا نصف سكان منطقة كسروان في لبنان. فقد اعتاد السكان أن يقيموا ويكثروا في المناطق النائية عن يد السلطة(٢). وكان معظم سكان فلسطين والأردن من الفلاحين الذين تعذر عليهم أن ينصرفوا كلياً إلى استغلال حقولهم وإنماء ثرواتهم وهم عرضة لابتزاز الوالي وملتزميه وجباتهم، ونهب الجند لحبوبهم ومواشيهم، واعتداءات البدو المتكررة على قراهم وحقولهم، ناهيك عن الكوارث الطبيعية من قحط وفيضانات وجراد.

ولم تقتصر هذه المظالم على الفلاحين بل تجاوزتهم إلى سكان المدن من تجار وحرفيين. وكان يزيدها فتكاً الفتن الأهلية والحروب المتواصلة: فتارة يثور الجند على الحكام، وتارة يشن الحكام الحروب على جيرانهم، ويقف الباب العالي من هذه الحروب الدامية موقف المتفرج لا يتدخل إلا عندما يشعر بالخطر على السلطنة، ويستعين في أغلب الحالات بأحد الولاة على قرينه.

---

(١) غصوب، يوسف: مع الكونت فولني في لبنان وسورية، المشرق، السنة ٤١ عدد تشرين الأول/كانون أول ١٩٤٧ ص ٥٠٩.

(٢) Volney *Noyage en Egypte et en Syrie*, PP. 357-358.

أما الأوضاع الاقتصادية فكانت في تدهور مستمر. فالصناعات لا تزال في مرحلتها الحرفية وغايتها تلبية حاجات المجتمع المحلي المنغلق على نفسه. والأدوات التي يستعلمها الحرفيون قديمة. فإذا ما وصل الانتاج الصناعي الأوروبي في أواخر القرن الثامن عشر، أخذت الحرف بالانقراض لعجزها عن منافسة الانتاج الأوروبي ولعجز الدولة عن حماية الانتاج الوطني وتطويره. اما التجارة فمعظمها بيد الأجانب. وكثيراً ما كان أعضاء السلك القنصلي يحصلون على رخص الاستيراد والمتاجرة ويوزعونها على رعاياهم.

انعكست هذه الأوضاع الإدارية والاقتصادية على المجتمع. فانتشر القلق بين الناس، وعمّ البؤس والفقر، وخف النشاط الثقافي، وتضاءلت الثقة بالحكام، وساد الظلم واضطرب حبل الأمن.

كان سكان فلسطين والأردن كرعايا عثمانيين ينقسمون إلى فئتين: مسلمين يتمتعون، نظرياً، بجميع حقوق المواطنة وواجباتها. وأهل ذمة من نصارى ويهود، منظمين لأغراض إدارية في طوائف دينية (ملل) تتمتع بإدارة ذاتية لها مطلق التصرف في شؤونها الدينية والشخصية والأسرية. ورئيسها، سواء أكان بطريركاً أم حاخاماً، مسؤول أمام السلطات العثمانية عن سلوك رعيته وعن جمع الضرائب المترتبة عليها.

أما فلسطين فكانت لها أهمية خاصة عند العثمانيين. فهي صلة الوصل بين ولاياتهم الأفريقية وولاياتهم الآسيوية، وتمر عبر أراضيها القوافل التجارية المتجهة إلى مصر، كما تقوم على أرضها القلاع العسكرية التي تحمي الطرق التجارية والعسكرية. وفي قدسها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، كما كان للأردن أهميته لوقوعه على طريق الحج الشامي. ولذا بنى العثمانيون فيه القلاع والمحطات لحماية هذا الطريق وتوفير الراحة لحجاج بيت الله الحرام. كما رمموا القديم منها وحفروا البرك لهذه الغاية. واكتسبت فلسطين لوجود الأماكن المقدسة فيها أهمية كبيرة، وتطلعت إليها أنظار الغربيين باستمرار، وسعوا إلى بسط نفوذهم السياسي والديني والثقافي عليها.

وأطل القرن التاسع عشر على فلسطين والأردن، بأحداث خطيرة وتطورات مهمة وتغيرات عميقة كان لها أثرها القوي في ميادين الحياة المختلفة. ففي عام ١٧٩٩ كانت قوات نابليون بونابرت قد اجتاحت جنوب فلسطين واتجهت نحو عكا، ووقفت على أبوابها طويلاً دون أن تتمكن من فتحها. وغادرتها إلى مصر تجر أذيال الخيبة. وتعرض الأردن بعد ذلك بأعوام لقدوم الوهابيين، واعتنق بعض سكانه هذا المذهب الاصلاحي إلى حين[٣]. ولم يجرؤ أمير الحج الشامي على أداء فريضة الحج عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م بسبب سيطرة الوهابيين على جنوبي الأردن[٤].

وخضعت فلسطين والأردن لمحمد علي باشا بين عامي ١٨٣١ و١٨٤٠. ولم يتوان أعيان يافا ونابلس والقدس الذين عارضوا بشدة الوالي العثماني عبدالله باشا، عن تقديم الولاء والطاعة للفاتح الجديد[٥]. ولما دخل إبراهيم باشا بقواته مدينة القدس، أصدر أمره بمنع استيفاء الأتاوات والرسوم المفروضة على الحجاج المسيحيين واليهود، ومنح الكنائس والأديرة والكنس حرية قراءة الكتب المقدسة وإقامة الشعائر الدينية، وألغى العديد من القيود والرسوم المفروضة على المعابد[٦]. فكسب بذلك ودَّ أهل الذمة في البلاد.

حاول إبراهيم باشا الاستفادة من الشعور العربي العام في بلاد الشام لمناهضة الأتراك. ورحب سكان فلسطين والأردن، كغيرهم من أهالي بلاد الشام بالروح العربية التي اتسم بها الحكم الجديد وشجعوه على المضي في هذا الاتجاه[٧]. وضمن الحكم الجديد للسكان أرواحهم وممتلكاتهم، وساد الأمن، وأخذت الرشوة تتلاشى وزال حق وراثة الوظائف الإدارية، وحددت الضرائب وتحسنت وسائل جبايتها. غير أن الحاجة الماسة لتطوير الجيش جعلت محمد علي يفرض ضرائب جديدة على السكان، كانت ثقيلة عليهم، حتى بلغت واردات بلاد الشام التي

---

(٣) الدبس، يوسف: **تاريخ سورية**، ج ٤، م ٨، ص ٦٢٨ - ٦٢٩.
(٤) تاريخ حوادث الشام ولبنان، **المشرق**، السنة ١٥، العدد ٢ شباط ١٩١٢، ص ١٠٩.
(٥) Douin, G. *La Conquête de la Syrie*, T. 1, PP. 69-70.
(٦) المصدر نفسه، ص ٩٨ - ٩٩.
(٧) المصدر نفسه، ص ١٧٨.

جمعت عام ١٨٣٦ مئة ألف كيس، أي قرابة نصف مليون جنيه استرليني[٨]. واضطر إلى فرض التجنيد الإجباري بأساليب قاسية، من أجل التعويض عما تفقده جيوشه في السودان والجزيرة العربية وشمالي سورية من رجال في ميادين القتال، وبسبب انتشار الأوبئة فيها[٩]. فكانت هذه التدابير سبباً في قيام الثورات المتوالية التي قدمت بريطانيا لها كل دعم وتأييد. ونال الثوار تأييد الباب العالي الذي اعتبر محمد علي وابنه إبراهيم خارجين على السلطة الشرعية[١٠]. واندلعت الثورات في نابلس والقدس ويافا واللد والرملة وطبرية وصفد والكرك والسلط[١١].

واتسع نطاق الثورة فشمل حوران ولبنان. وتدخلت بريطانيا الى جانب الدولة العثمانية، وأكرهت محمد علي على سحب قواته من بلاد الشام في نهاية عام ١٨٤٠. وعادت فلسطين والأردن من جديد إلى حظيرة الدولة العثمانية.

رافق خروج محمد علي من البلاد البدء بالإصلاحات العثمانية المعروفة بالتنظيمات. فصدر خطي شريف غولخانه عام ١٨٣٩ الذي نص على المساواة بين رعايا الدولة، وعلى إدخال بعض الإصلاحات الإدارية مثل إلغاء نظام الالتزام الذي لم ينفذ فعلياً[١٢]. وتلاه صدور خطي شريف همايون عام ١٨٥٦ الذي أكد على ما جاء في المرسوم السابق[١٣]. وفي عام ١٨٦٤ صدر قانون الولايات العثماني[١٤] الذي قسمت بموجبه فلسطين والأردن إلى أربعة ألوية هي: لواء عكا ولواء نابلس ولواء القدس ولواء حوران. واشتمل الأخير على منطقتي عجلون والكرك بينما ضمت البلقاء إلى لواء نابلس. وكان لواء القدس تابعاً للباب العالي مباشرة.

---

(٨) Meerza, R. K: Journal of a Residence in England and of a Journey *from* and to Syria, Vol. 1, P. 131.
(٩) Barker, E: Syria and Egypt Under the last Five *Sultans*, Part 2, P. 239
(١٠) الدبس، يوسف: **تاريخ سورية**، ج٤، م٨، ص٦٤٩- ٦٥٠. عبود، أسعد: **تاريخ الناصرة** ص ٧٠ - ٧٢.
(١١) قزاقيا، خليل: **تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية**، ص ١٦١.
(١٢) Hurewitz, J.C. *Diplomacy in the Near and Middle East*, Vol. I, P. 113
(١٣) المصدر نفسه، ص ١٤٩ - ١٥٣.
(١٤) المصدر نفسه.

وقسمت الألوية إلى أقضية على رأس كل منها قائمقام. وقسمت الأقضية إلى نواح، على رأس كل منها مدير، والنواحي قسمت إلى قرى على رأس كل منها مختار. وأصبح لكل وحدة إدارية مجلس يساعد الرئيس الإداري في تصريف شؤونها.

وقد أدت هذه التنظيمات الجديدة إلى إضعاف سلطة شيوخ النواحي بصورة تدريجية. فقد كان هؤلاء يجبون الضرائب من الأهالي، ويحلون الخلافات والمنازعات بينهم، ويجمعون الجند. فكانوا الوسطاء بين السلطات العليا والسكان. وكانوا يتلقون مقابل ذلك نسبة معينة من الضرائب، كما يمتلكون ما يشاءون من الأرض عن طريق المصادرة وغيرها من الوسائل[15]. ومع النظام الجديد أصبح مجلس الإدارة هوالذي يشرف على عملية جباية الضرائب. وانتقلت هذه العملية من أيدي شيوخ النواحي إلى أيدي أعيان المدن. ولم يستطع الشيوخ منافسة الأعيان في هذا الوضع. واستغل أعيان المدن المجالس الإدارية واستخدموها أداة لتدعيم نفوذهم وتثبيت مكانتهم الاجتماعية. واتخذت السلطات العثمانية تدابير قضائية وإدارية جديدة حرمت شيوخ النواحي من حقوقهم التقليدية في ممارسة القضاء العشائري، فتحولوا تدريجياً إلى مجرد مخاتير في القرى في إطار الإدارة الرسمية العثمانية[16].

أما طبقة أعيان المدن فقد ازداد نفوذها، واحتلت المقام الأول في المجتمع. وظهر من بين أفراد هذه الطبقة العلماء والموظفون الذين تولوا الوظائف الإدارية الجديدة في عهد التنظيمات. غير أن الأردن لم يشهد تطوراً مماثلاً في هذا العهد. فقد بقي شيوخ النواحي في الريف أصحاب القوة والنفوذ. وكانوا في أغلب الأحيان شيوخاً للقبائل المستقرة، يتولون التزام الضرائب في مناطقهم وبصورة وراثية. وكان كل شيخ يحصل على تفويض سنوي من الحاكم العثماني بتولي مشيخته، ويعطى «خلعة» وتحدد له كمية من الأموال المكلف بجمعها من مقاطعته[17].

---

(١٥) Urquart, D: *The Lebanon*, vol. I, PP. 149-150

(١٦) Porath, Y. *The Emergence of Palestine National Movement*, P. 10.

(١٧) Burckhardt, J. L: *Travels in Syria and the Holy Land*, PP. 290-299, 301

شهد هذان القطران العربيان تنافساً قوياً بين الدول الكبرى في هذا القرن. وكانت حماية الطوائف الدينية والتبشير الذريعتين المفضلتين لديها. وقد سبقت فرنسا غيرها من الدول الغربية في هذا الميدان. فمنذ عام ١٥٣٥ أبرمت مع الدولة العثمانية أول الامتيازات الذي نظم العلاقات التجارية بين البلدين ومنح الرهبان الفرنسيسكان بعض الحرية في ممارسة نشاطهم التبشيري في فلسطين وغيرها من الأقطار الشامية[18]. وفي عام ١٦٠٤ أبرم اتفاق جديد نص على حرية الرعايا الفرنسيين في زيارة الأماكن المقدسة وحرية الرهبان اللاتين في التجول في مختلف أنحاء فلسطين[19]. ونتيجة لوساطة سفير فرنسا عام ١٦٢٢ حصل اللاتين من الباب العالي على حق ملكية كنيسة بيت لحم مع مغارة الميلاد. وبلغ النفوذ الفرنسي أوجه في فلسطين والأردن بعد إبرام اتفاقية عام ١٧٤٠ التي اعتبرت فرنسا بموجبها حامية المسيحية في الشرق العربي[20].

ولما وقعت فلسطين والأردن تحت حكم محمد علي حصلت طائفة اللاتين على امتيازات كبيرة بسبب موقف فرنسا المؤيد لوالي مصر. وتضاعف عدد الكنائس والأديرة ومنازل استقبال الحجاج اللاتين، كما ازداد عدد المدارس والمستشفيات والمؤسسات الخيرية التابعة للبعثات التبشيرية اللاتينية.

وفي عام ١٨٤٧ بُعِثَتْ البطريركية اللاتينية في القدس على إثر قيام أسقفية انجليكانية فيها. ووصل أول بطريرك لاتيني إلى المدينة المقدسة في العام التالي. وبعد صدور خطي شريف همايون عام ١٨٥٦ أنشأ البارون دوكوشي Baron de Cauchy في باريس «عمل مدارس الشرق» Œuvre des Ecoles d'Orient، مستفيداً من الحرية التي تضمنها هذا المرسوم. وأخذت فرنسا تعد رجال الدين للطوائف الملكية والمارونية والأرمنية والسريانية الكاثوليكية[21]. ومنذئذ نشأ تنافس شديد بين

---

(١٨) Nouradonghian, G: Recueil *d'Actes Internationaux* de l'Empire Ottoman, Tome 1, PP. 83-87.
Hurewitz, J.: OP.Cit, PP. 1-5.

(١٩) Nouradonghian, Op. Cit, PP. 108-110, Hurewitz, Op. Cit., PP. 1-5

(٢٠) Nouradonghian, PP. 277-306

(٢١) الدبس، ج ٤ ص ٧١٧ - ٧١٨.

المبشرين اللاتين والبروتستانت. ففي ٢٨ شباط عام ١٨٥٥ جرى احتفال كبير في ساحة دير اللاتين في الناصرة، أحرق خلاله كل ما أمكن جمعه من كتب البروتستانت. واعتدى اللاتين في اليوم نفسه على دار المرسلين البروتستانت وأشبعوهم ضرباً وإهانة[٢٢].

أما النفوذ البريطاني فقد بدأ يتوطد في البلاد بعد مشاركة الأسطول البريطاني في هزيمة نابليون على أبواب عكا عام ١٧٩٩. ولا عجب إذا كانت بريطانيا أول دولة تنشىء لها قنصلية في القدس (١٨٣٨)، بعد أن كان محظوراً على أي أجنبي سواء أكان حاجاً أم سائحاً أم ممثلاً قنصلياً الإقامة في المدينة المقدسة. وبعد إنشاء القنصلية البريطانية بعام تولت حماية اليهود في فلسطين[٢٣].

بدأ الإعداد لبسط النفوذ الثقافي والديني البريطاني في فلسطين منذ بداية القرن. ففي عام ١٨٠٤ تأسست جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود The London Society For Promoting Christianity Amongst The Jews والتي عرفت بصورة عامة باسم «جمعية اليهود اللندنية» The London Jews Society. وفي عام ١٨٤٠ طلبت الحكومة البريطانية من محمد علي الموافقة على إنشاء كنيسة انجليكانية في القدس. غير أنه رفض ذلك مدعياً أن هذا الأمر من اختصاص السلطان العثماني صاحب السيادة على فلسطين. ولما طلبت جمعية اليهود اللندنية من الباب العالي إذناً مماثلاً جاء الرفض مبرراً بأن القدس مدينة إسلامية مقدسة[٢٤].

وقد حصلت بريطانيا على إذن من السلطان العثماني بإنشاء كنيسة بروتستانتية في المدينة المقدسة عام ١٨٤١، وبعد اتفاق تم بين ملك بروسيا وملك بريطانيا على هذا الأمر[٢٥]. ووصل أول أسقف «لكنيسة مار يعقوب البروتستانتية» في القدس في ٢١ كانون الثاني عام ١٨٤٢[٢٦]، وكان يهودياً متنصراً. غير أن السلطات العثمانية

(٢٢) عبود، أسعد: تاريخ الناصرة، ص٨٧.
(٢٣) Tibawi, A.L.British *Interests in Palestine*, P.31-33
(٢٤) Tibawi, A.L.: OP. Cit., PP. 41-42.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٥٤.
(٢٦) المصدر نفسه، ص ٥٨، عبود، أسعد، ص ٨٢.

المحلية لم تعترف به رئيساً للطائفة الانجليكانية. وواجه متاعب كبيرة من الطوائف المسيحية الأخرى في البلاد. ولم تعترف الدولة العثمانية بالطائفة البروتستانتية «كملة» إلا في عام ١٨٥٠، وبعد وساطة ملك بروسيا[٢٧].

وأنشأت بريطانيا قنصليات عدة في مدن فلسطين المهمة مثل عكا وطبرية وصفد ونابلس والرملة وغزة ويافا. ودرجت الدول الأوروبية على تقليد جديد منذ بداية النصف الثاني للقرن التاسع عشر هو تعيين وكلاء القناصل في المدن الفلسطينية من أبناء البلاد[٢٨].

أخذ النشاط الثقافي البريطاني في فلسطين صورة منظمة بعد إنشاء «صندوق الكشف عن فلسطين» The Palestine Exploration Fund في لندن في ١٢ أيار ١٨٦٥، والذي قصد منه المساهمة في الكشف عن آثار القدس وغيرها من الديار المقدسة بوسائل التنقيب، وإلقاء الضوء على آثار الشعب اليهودي، والمعالم الجغرافية والجيولوجية للبلاد، ودراسة الحيوانات والنباتات والمعادن الموجودة فيها، وتقديم المساعدة للأساتذة المختصين في الدراسات التوراتية من أجل إيضاح النصوص التوراتية من خلال مراقبة سلوك وعادات سكان البلاد المقدسة ودراستها[٢٩].

وكان لهذا الصندوق دور بارز في الكشف عن آثار فلسطين والأردن القديمة ورسم خارطة للبلاد، ونشر دراسة شاملة في ثمانية مجلدات Survey of Western Palestine و Survey of Eastern Palestine. ونشرت الدراسات الجيولوجية التي قام بها Edward Hull في كتاب ضخم بعنوان The Geology and Geography of Arabia Petraea, Palestine and Adjoining Districts عام ١٨٨٦. وفي العام نفسه نشر المهندس شوماخر Göttlieb Schumacher دراسته: Across the Jordan, An Exploration and Survey of Parts of Huran, Jaulan and Ajlun والتي تضمنت تقرير

(٢٧) المصدر نفسه ص ٧٩.
(٢٨) في عام ١٨٤٨ عينت بريطانيا أسعد يعقوب خياط قنصلاً لها في يافا. ولما صدر خطي شريف همايون عام ١٨٥٦ كان وكيل القنصل البريطاني في نابلس عودة عزام، ووكيل قنصل بروسيا سعيد قعوار، ووكيل قنصل فرنسا محمد أمين القاسم، المصدر السابق ص١١٦.
(٢٩) المصدر السابق، ص ١٨٤ - ١٨٥.

أوليفانت Lawrence Oliphant عن شمالي شرقي بحيرة طبرية وتقرير لوسترانج Guy Le Strange عن عجلون والبلقاء.

واستمر النشاط الثقافي والتبشيري البروتستانتي ينمو بنموالنفوذ البريطاني والألماني في فلسطين حتى تأسس المجمع الكنسي الإنجيلي الأسقفي الوطني عام ١٩٠٥ [٣٠].

وسعى الألمان أيضاً إلى تثبيت أقدامهم في فلسطين. فحصل فردريك فيلهلم الرابع Fredrich Wilhelm IV ملك بروسيا على موافقة السلطان العثماني على إنشاء قنصلية لبروسيا في القدس عام ١٨٤٣. وكان لبروسيا دور كبير في اعتراف الدولة العثمانية بالبروتستانت كملة مستقلة عام ١٨٥٠ [٣١]. وأنشئت «رابطة فلسطين الألمانية» Deutsche Palastina Verein عام ١٨٨٥ من أجل اكتشاف الديار المقدسة. وكانت تصدر مجلة فصلية خاصة بها تتناول الدراسات المتعلقة بجغرافية فلسطين وتاريخها وآثارها. وفي مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر ظهرت المستعمرات الألمانية في فلسطين والتي كانت بوحي من القس كريستوفر هوفمان Ch. Hoffmann الذي أسس فرقة دينية خاصة به واشترى أرضاً في يافا وأقام عليها أول مستعمرة ألمانية. وفي عام ١٨٧٢ أنشأ مستعمرة زراعية خارج مدينة يافا تديرها فرقته الدينية «فرقة المعبد» [٣٢]. وفي عام ١٨٩٧ افتتح فرع «لبنك فلسطين الألماني» Die Deutsche Palastina Bank في القدس، وأخذ النفوذ الاقتصادي الألماني يزداد في البلاد. أما النفوذ أو السمعة السياسية لألمانيا فقد بلغت أوجها لدى زيارة الأمبراطور فيلهلم الثاني للقدس عام ١٨٩٨ [٣٣].

شارك الأمريكيون الأوروبيين في هذا النشاط، وبخاصة في ميدان التبشير.

---

(٣٠) Farah, C., Protestantism and British Diplomacy in Syria, International Journal of Middle East Studies 7 (1976), pp. 321-344.

(٣١) Tibawi,Op. Cit., PP. 79-80

(٣٢) Allonzo, A. d'.: *Les Allemands en Orient* , P. 37-38

(٣٣) المصدر نفسه ص ٤٨، ٥٥ ـ ٧٢.

فقد وصل أول المرسلين الأمريكيين البروتستانت إلى فلسطين في كانون الثاني عام ١٨٢٣. ولكن الإرسالية الأمريكية لم تستقر في القدس إلا في أواخر عام ١٨٣٣. وافتتحت أول مدرسة لها في المدينة المقدسة بعد ذلك بثلاثة أعوام [٣٤]. واتسع نشاط هذه الإرسالية منذ عام ١٨٤٠ فبلغ مدناً عدة مثل بيت لحم وغزة والرملة ويافا والناصرة [٣٥].

ورغم هذا النشاط التبشيري الواسع الذي قامت به الإرساليات الانجليزية والألمانية والأمريكية لم يزد عدد البروتستانت في بلاد الشام كلها في نهاية القرن التاسع عشر على سبعة آلاف شخص [٣٦].

وحصلت الحكومةالأمريكية في عام ١٨٤٤ على موافقة السلطات العثمانية على إنشاء قنصلية أمريكية في القدس. وكان أول القناصل الأمريكيين في المدينة المقدسة جون غورمان John Gorman. وكان يتولى حماية الرعايا الأمريكيين في فلسطين. وتركز اهتمام القنصلية الأمريكية على المستعمرة الأمريكية التي أنشئت عام ١٨٦٦ في مدينة يافا والتي استمرت لمدة ثلاثة أعوام ثم حل الألمان من جمعية «المعبد الألمانية» Der Deutsche Temple Gemeinde محل الأمريكيين وبقوا فيها حتى الحرب العالمية الثانية. وأنشئت مستعمرة أمريكية، على غرار مستعمرة يافا، في القدس عام ١٨٨١ وأولت التعليم وبخاصة تربية الأطفال اهتمامها الأول [٣٧]. وفي عام ١٨٧٣ بدأ فريق أمريكي برسم خارطة لفلسطين والأردن، وانتهى منها بعد ستة أعوام، فاحتوت على معلومات أثرية وتاريخية وجغرافية وافية [٣٨].

أما روسيا القيصرية التي ورثت عن الامبراطورية البيزنطية الهيمنة على الكنيسة الأرثوذكسية (الشرقية) والسيطرة على إدارتها الدينية، فقد حاولت الحفاظ

---

(٣٤) Tibawi, A.L.: *American Interests in Syria* , ,PP. 73-74

(٣٥) المصدر نفسه ص ٩٢.

(٣٦) Tibawi, A.L. *American Interests in Syria*, P. 303

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

على نفوذها في الديار المقدسة التي ينتمي معظم مسيحييها إلى المذهب الأرثوذكسي. وكان قياصرة روسيا ينظرون إلى الكنيسة كامتداد لنفوذهم. ولعل هذه النظرة هي التي دفعت القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٩-١٧٢٥) إلى إلغاء البطريركية التي عارضت برامجه الإصلاحية في تحديث روسيا، ووضع الكنيسة تحت إدارة المجمع المقدس (السينود) الذي يرأسه مدني يعينه القصر. وفي مطلع القرن التاسع عشر أنشأ القيصر اسكندر الأول وزارة الشؤون الدينية والتعليم (عام ١٨١٧)، غير أنها لم تعمر طويلاً إذ ألغيت عام ١٨٢٤، وأصبح رئيس المجمع يتمتع بصلاحيات وزير الشؤون الدينية، ويحضر جلسات مجلس الوزراء[٣٩]. أما بطريرك القسطنطينية فقد تعقدت علاقات روسيا به بسبب وقوعه تحت الحكم العثماني منذ عام ١٤٥٣. وأقامت روسيا علاقات ديبلوماسية مع الدولة العثمانية، ووصل أول ممثل ديبلوماسي روسي إلى الآستانة عام ١٤٩٧. ومنذئذ بدأت صلاتها ببطريرك القسطنطينية. غير أنها خاضت حروباً عدة مع الدولة العثمانية وكانت معاهدة كارلوفتز التي أبرمت بين الدولتين عام ١٦٩٩ نقطة تحول مهمة في العلاقات بين الدولتين، لأنها أتاحت لروسيا حق التدخل في شؤون الرعايا العثمانيين من الأرثوذكس. وفي العام التالي أصبح للرعايا الروس حق زيارة فلسطين والأراضي المقدسة. ونصت معاهدة كوجك قينارجه التي وقعت بين الدولتين عام ١٧٧٤ على حق روسيا في الحماية الدائمة للرعايا المسيحيين الأرثوذكس ولكنائسهم. وأصبح لوزير البلاط الروسي الحق في إرسال المبعوثين إلى الباب العالي للاطلاع على أحوال الكنيسة في العاصمة وغيرها من المناطق، وتقديم ملاحظاته الى الباب العالي باعتباره ممثلاً لدولة صديقة ومجاورة[٤٠].

وأخذ النفوذ الروسي يقوى منذ بداية القرن التاسع عشر. ولما شكا بطريرك القدس بوليكاربوس Polikarpos (١٨٠٨-١٨٢٧) من الدعاية المناهضة للأرثوذكس، طلب القيصر الروسي من مبعوثه في الآستانة أن يتقدم بشكوى إلى الباب العالي.

---

(٣٩) Hopwood, D.: The *Russian* Presence in Syria and Palestine, pp. 3-4

(٤٠) Nouradonghian, Op.Cit, pp. 319-338. Hurewitz, Op.cit, pp. 54-61

وأصدر السلطان فرماناً في عام ١٨١٧ أكد على الوضع القائم في القدس وبخاصة في أمر النزاع بين الأرثوذكس والكاثوليك. ودخلت روسيا حلبة الصراع بين الدول الأوروبية في الأزمة التي نتجت عن احتلال محمد علي لبلاد الشام، واقترحت آنذاك وضع الأماكن المقدسة تحت حماية الدول الأوروبية، غير أن هذا الاقتراح لم يلق التأييد من بقية الدول.

افتتحت روسيا أول قنصلية لها في فلسطين عام ١٨٢٠ في يافا. ولكنها نقلتها إلى بيروت عام ١٨٣٩ وأصبح اسمها «القنصلية العامة الروسية لسورية وفلسطين»[٤١]. وفي العام التالي افتتحت أول قنصلية لها في القدس. وبدأت ببناء مجمعين من المنازل في المدينة المقدسة في العام الذي تلاه. ووصل أول ارشمندريت روسي إلى القدس عام ١٨٤٤. وقد سبق هذه التدابير إنشاء جمعية فلسطين الامبراطورية The Imperial Palestine Society في روسيا نفسها عام ١٨٣٧، بقصد دعم النشاط الديني والثقافي الروسي في الديار المقدسة. وبعد إبرام معاهدة باريس عام ١٨٥٦ التي أنهت حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية، منح السلطان القيصر الروسي قطعة من الأرض في القدس بنيت عليها كاتدرائية ومنزل للأسقف وقنصلية ومنزل لبعثة دينية ومستشفى ومنازل للرهبان والمعلمين وعدد من المنازل لاستقبال الحجاج الروس، وهي المعروفة الى اليوم باسم «المسكوبية». وبلغت تكاليف هذا المجمع قرابة مليوني جنيه استرليني في ذلك الوقت. وحصلت روسيا على أراض مماثلة في قريتي عين كارم وبيت جالا وفي مدينتي الخليل والناصرة.

وقد واجهت الطائفة الأرثوذكسية أخطاراً جسيمة بانتشار الإرساليات التبشيرية الأجنبية. وكانت الكنيسة الأرثوذكسية ضعيفة جداً، بسبب إهمال رجال الدين من اليونان لرعيتهم واحتدام الخلاف بينهم وبين الوطنيين العرب من الأرثوذكس. وحاولت روسيا التوسط لايجاد حل يرضي العرب ويضمن للطائفة وحدتها في مواجهة الأخطار الخارجية التي تهددها، غير أن الجهود الروسية لم تلق آذاناً صاغية من جانب الإكليروس اليوناني.

---

(٤١) Tibawi, A.L.British Interests in Palestine, P. 43

وبعد انتهاء حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) اقترحت وزارة الخارجية الروسية على القيصر تعيين أسقف روسي في القدس بدلاً من الأرشمندريت الموجود. وبررت اقتراحها كما يلي: «ينبغي أن نؤسس حضورنا في الشرق من خلال الكنيسة وليس بالاعتماد على السياسة. وسوف يتعذر على الأتراك والأوروبيين الذين لهم بطاركتهم وأساقفتهم في المدينة المقدسة أن يرفضوا مطلبنا هذا. ولما كان نفوذنا قوياً استطعنا أن نخفي نشاطنا وتجنبنا المنافسة. أما الآن وقد أصبح نفوذنا في الشرق ضعيفاً، فينبغي أن نقدم أنفسنا حتى لا نسقط في أعين السكان الأرثوذكس الذين لا يزالون يثقون بنا كما في الماضي. وترى الوزارة أنه من الضروري تعيين أسقف على رأس بعثتنا في القدس بدلاً من أرشمندريت. فالقدس قلب العالم، وينبغي أن تبقى بعثتنا فيها»[٤٢].

وسعياً إلى دعم النفوذ الروسي في البلاد المقدسة تأسست الجمعية الروسية الامبراطورية في بطرسبرغ عام ١٨٨٢، بهدف لم شعث الطائفة الأرثوذكسية ووقايتها من خطر الإرساليات الأجنبية[٤٣]. فقد أثار نشاط الكاثوليك والبروتستانت حفيظة الروس، كما أثارهم تناقص أفراد الطائفة الأرثوذكسية التي كانت تشكل ٩٠٪ من مسيحيي فلسطين والأردن عام ١٨٤٠، وأخذت بالتناقص حتى بلغت ٦٧٪ منهم عام ١٨٨٠. وقامت الجمعية المذكورة بنشاط ثقافي واسع في البلاد. وأرسلت عدداً من العلماء الروس للتنقيب عن الآثار المسيحية والبيزنطية في الديار المقدسة منهم N.Y. Marr و P.A. Syrku اللذان نشرا أبحاثهما في مجلة Palestinski Sbornik التي أصدرت ٦٣ مجلداً عن آثار فلسطين. وتوقف نشاط هذه الجمعية مع إعلان الحرب العالمية الأولى[٤٤].

تعرضت فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للهجرة اليهودية المنظمة حتى إذا أشرف القرن على نهايته كان لليهود مناطق أربع أقاموا فيها مستعمراتهم وهي:

(٤٢) Hopwood, Op. Cit., P. 51

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٩٩ - ١٠٦.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١١٥، ١٣٠ - ١٣٥.

١ - منطقة يافا: وقد احتوت على تسع مستعمرات هي منزل اسرائيل (١٨٧٠) وبتاح تكفاه أو ملبس (١٨٧٨) ورؤوس صهيون أو قارة (١٨٨٢) وتذكار بيت الله أو محطة عاقر (١٨٨٣) وقطرة (١٨٨٤) وبئر طوبيا أو قسطينة (١٨٨٨) والسهول أو خربة ديران (١٨٩٠) وملك راوين ونوه صدق. وقد أنشئت هذه المستعمرات بتمويل من جمعية «أحباء صهيون» التي نشأت في أوروبا الشرقية في الأربعينات من القرن. كما ساهم في إنشائها أثرياء اليهود مثل موسى مونتفيوري والبارون ادموند روتشيلد.

٢ - منطقة القدس: وأهم المستعمرات التي أنشئت فيها خلال هذه الفترة هي: بيت ناتان، ويمين موسى، ونحلة شبع (ملك السبعة) (١٨٦٩) وابن يعقوب (١٨٧٠)، ومساكن اسرائيل (١٨٧٦)، ومزكرة موسى (ذكر موسى) (١٨٨٠)، وأهل موشي (خيمة موسى) (١٨٨٣)، وسكوت شلوم (مساكن السلام) (١٨٨٧)، وبيت يهودا (١٨٨٨)، وشعرقنا (حجر الزاوية)، وبيوت تيمن (١٨٩٠)، وشمعون الصديق (١٨٩١)، وبيوت بخارى، وأهل شلومو (خيام سليمان).

٣- منطقة الجليل: وتشمل المستعمرات التالية: خربة زبيد (١٨٨٣) وبنات يعقوب (١٨٨٤)، وعين الزيتونة (١٨٩٠)، وهجليليم (الجليليون) (١٨٩١)، وكفرسبت، ومحنايم، ومشمرهيردن والمطلة.

٤- منطقة حيفا: وأهم المستعمرات فيها: ذكر يعقوب أو زمّار (١٨٦٢)، وخضيره (١٨٩٠)، وكفرعتا (١٨٩١)، وشجرة جبل الطور، وأبو شوشه، ومرج ابن عامر[٤٥].

وأخذ عدد المستعمرات اليهودية في الازدياد بعد الاحتلال البريطاني للبلاد عام ١٩١٧ وصدور وعد بلفور قبيل الاحتلال بشهر واحد. فبلغ مجموعها عام ١٩٢٥ (٨٢) مستعمرة. غير أن عدد اليهود في البلاد لم يتجاوز (٨٠) الف نسمة

(٤٥) لامنس، هنري: اليهود في فلسطين ومستعمراتهم، المشرق، م ٢ (١٨٩٩) ص ١٠٨٨ - ١٠٩٤.

حسب الاحصاءات الرسمية البريطانية عام ١٩٢٢[٤٦].

وأصبح الوجود اليهودي في فلسطين مع قيام الحركة الصهيونية مصدر قلق واضطراب. كما كان له أثر عميق في الحياة الفكرية العربية في البلاد.

شهدت فلسطين في أواخر العهد العثماني تطوراً اقتصادياً ملحوظاً. فقد نشطت التجارة، وظهرت طبقة جديدة من التجار الأثرياء شاركت الإقطاعيين من أعيان المدن وشيوخ القرى في النفوذ والسطوة. وساهمت السكك الحديدية في هذا النمو الاقتصادي. ففي عام ١٨٨٩ منحت الحكومة العثمانية يوسف نافون امتيازاً بإنشاء سكة حديدية تربط القدس بيافا وغزة ونابلس، ومنحت المهندس يوسف الياس امتيازاً آخر بإنشاء خط يربط عكا بدمشق وآخر يربط حيفا بالمجدل. وبذلك سبقت فلسطين غيرها من الأقطار الشامية في هذا المضمار. غير أن صاحبي الامتيازين عجزا عن تنفيذهما فقامت الدولة بسحبهما وتولت هي المهمة. وأتمت بناء خط القدس يافا في آب ١٨٩٢.

غير أن أهم الخطوط الحديدية في فلسطين والأردن هو الخط الحديدي الحجازي الذي بني بمبادرة من السلطان عبدالحميد الثاني بقصد استرضاء العرب بعد ان ظهرت بينهم بوادر الوعي القومي، وتسهيل نقل الجند العثماني إلى الأقطار العربية الآسيوية وبخاصة سورية والجزيرة العربية. ففي نيسان من عام ١٩٠٠ أعرب السلطان العثماني عن رغبته في إنشاء الخط المذكور. ودعا المسلمين في أقطار الأرض إلى المساهمة في هذا المشروع بالتبرع بالأموال. وتبرع هو بخمسين ألف ليرة عثمانية. ولبى المحسنون دعوته. وابتدأ العمل في المشروع في اليوم الأول من أيلول من ذلك العام. واحتفل بوصول الخط من دمشق الى معان في اليوم الأول من ايلول عام ١٩٠٤.

وتولت الدولة العثمانية إتمام خط حديدي بين حيفا ودرعا بعدما عجز صاحب

(٤٦) كسافيه، فرنتس: الصهيونية وغاياتها، المشرق، شباط ١٩٢٥، ص ١١٧ - ١٣٤ شيخو، لويس: الصهيونية ماضيها، حاضرها، ومستقبلها، المشرق، اكتوبر ١٩٢٠ ص٧٦٨-٧٧٨.

الامتياز عن إتمامه، وألحقته بإدارة سكة حديد الحجاز بعد انتهاء العمل فيه عام ١٩٠٥. وبذلك بلغ طول الخطوط الحديدية في فلسطين والأردن ١٤٠٥,٧٠٨ كيلومترات منها ٤٤٧,٢٨٨ كيلومتراً في الأردن[٤٧].

ولما اندلعت الحرب العالمية الأولى عانت فلسطين والأردن الكثير من ويلاتها. فقد اقتيد شبابها إلى ساحات القتال وشهدت البلاد مجاعة حقيقية، وهبط عليها الهواء الأصفر (الكوليرا) فقضى على ربع السكان تقريباً، وجعل جمال باشا فلسطين مسرحاً لحملته على قناة السويس عام ١٩١٥، كما اتخذ القدس مركزاً لقيادة قواته. غير أن الحملة باءت بالفشل، وجاءت بالوبال على عرب فلسطين وبلاد الشام قاطبة.

وفي كانون الأول عام ١٩١٧ دخلت القوات البريطانية البلاد واحتلت القدس. وأخذت تزحف شمالاً تلاحق فلول الجيش العثماني حتى أتمت احتلال البلاد في تشرين الأول من عام ١٩١٨. وفي هذه الأثناء انطلقت ثورة العرب من مكة فحررت الأردن أثناء زحفها شمالاً وأقامت حكماً عربياً فيه وفي بقية سورية الداخلية مركزه دمشق. وتولى الأمير فيصل بن الحسين قائد القوات العربية إدارة هذه المنطقة باسم الحلفاء.

أما الحكم العسكري البريطاني في فلسطين (١٩١٧-١٩٢٠) فقد قسم البلاد إلى خمسة ألوية هي: لواء القدس ولواء يافا ولواء الوسط (نابلس) ولواء فينيقيا (حيفا) ولواء الجليل (الناصرة). وخضعت فلسطين خلال هذه الفترة لحكم عسكري مباشر يتبع القائد العام لقوات الحلفاء في المنطقة. وفي عام ١٩٢٠ حلت الإدارة المدنية البريطانية محل الحكم العسكري المباشر. وأصبح المندوب السامي البريطاني بمثابة رئيس للدولة يليه السكرتير العام لحكومة فلسطين الذي كان بمثابة رئيس للوزراء[٤٨].

(٤٧) Ministère de la Guerre: Notice sur la Syrie, PP. 106-111

كرد علي، محمد: خطط الشام، ج ٥، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٤٨) Tibawi, A.L.: Arab Education in Palestine, P. 8

أما الأردن فقد بقي تابعاً للحكم العربي في دمشق حتى تموز ١٩٢٠ حينما انتهى الحكم العربي بدخول القوات الفرنسية الى العاصمة السورية واحتلال البلاد. وسعى أهل الأردن الى الاتصال بالحسين بن علي ملك الحجاز، قائد الثورة العربية الكبرى، لايفاد أحد أبنائه إليهم لانقاذ البلاد من الفوضى والاحتلال. فبعث بابنه الأمير عبدالله الذي استطاع ان يقيم حكومة عربية في عمان في ١٠ نيسان ١٩٢١ بعد اتفاق بينه وبين ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطانية تم في القدس في آذار من ذلك العام. وشارك قادة الحركة العربية في بلاد الشام في تأسيس الحكم العربي في الأردن، وظلوا خلال السنوات الأربع الأولى من قيام الدولة الجديدة المسيطرين على الإدارة والحكم. وفي أثناء ذلك دخل الأردن تحت الانتداب البريطاني واستثني من وعد بلفور بعد جهود كبيرة قام بها أميره وقادة الحركة العربية في البلاد(٤٩).

(٤٩) المحافظة، علي: عهد الامارة، ص ٢٠ ـ ٢٨.

الفصل الأول

المؤسسات التعليمية والثقافية

لم تعرف فلسطين والأردن التعليم الحديث قبل القرن التاسع عشر، وإنما اقتصر التعليم فيهما على الكتاتيب والمدارس الإسلامية والطائفية. والكتّاب كمدرسة أولية يعود إلى بداية العهود الإسلامية. إذ كان الصبيان بين الخامسة والثانية عشرة من أعمارهم يجتمعون في مسجد أو في بيت خاص أو في «مضافة»، ويقوم شيخ بتدريسهم حفظ القرآن وتجويده ومعرفة بعض قراءاته، والإلمام ببعض مبادىء الدين الإسلامي وبخاصة ما يتعلق منها بالعبادة، وحفظ بعض الأحاديث النبوية، وتعلم شيء من الحساب والفلك. أما نفقات التعليم فتجبى من أولياء أمور التلاميذ. ولم تمارس الدولة في مختلف العهود الإسلامية، بما في ذلك العهد العثماني، أية رقابة فعلية على هذه الكتاتيب. أما التعليم الأعلى من هذه المرحلة فكان يتم في المدرسة. والمدرسة الإسلامية تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي. وكانت مدرسة دينية تدرّس مبادىء الشريعة وأصول الدين والعبادة بالإضافة الى اللغة العربية بما في ذلك القواعد والبلاغة وفقه اللغة. وقد وجدت هذه المدارس في فلسطين والأردن في العهدين الأيوبي والمملوكي واستمر وجودها حتى مطلع القرن العشرين(١).

أما الكتّاب لدى الطوائف المسيحية فكانت الكنيسة أو الدير أو أي بيت خاص

(١) Tibawi, A.L.: Arab Education in Mandatory Palestine, P. 56

في الحي والقرية. وكان المعلم من رجال الدين يعلم تلاميذه الكتاب المقدس وأصول العبادة المسيحية واللغة العربية. وكان مستوى التعليم فيه أدنى من مستوى التعليم في الكتّاب الإسلامي، لضعف إلمام المعلمين باللغة العربية. ولعل خير وصف لهذا النوع من المدارس الأولية ما كتبه جرجس الخوري المقدسي في عام ١٩٠٦:

«ربّيتُ في مدرسة في إحدى القرى الحقيرة. وكانت غرفتها ضيقة وسخة مظلمة بلا مقاعد. فكان الواحد منا يحضر معه قطعة حصير أو شيئاً آخر. وكنا نجلس على الأرض مقوسي الظهور وفي حضن كل منا كتابه. وكان المعلم يجلس أمامنا مقطب الجبين، وبيده عصا طويلة. فكنا نسترق النظرات إليه والخوف آخذ منا مأخذه. وكنا نتعلم عنده المزامير، فإذا حفظها أحدنا نقد عليها شيئاً معلوماً. فلذلك كان يضغط علينا ظناً منه أن عقل الولد يلزم أن يُحشى بالمزامير دفعة واحدة. فكنا نقضي في المدرسة من الصبح إلى المساء، فلم نعرف فرصة ولا راحة إلا عند الذهاب لجلب الغذاء من بيوتنا، لأن الشرط كان يقضي بإطعام المعلم على حساب التلامذة... وكان إذا غلط أحدنا غلطة ابتدره المعلم بالعصا أو باللبط أو باللطم أو بشد الأذن وغير ذلك من أنواع الخشونة والامتهان التي تحقر التلميذ في عيني نفسه وتزيده عمى فوق عمى، فيمتزج عويله بقراءته. وإذا رأى ولداً ضجر من الدرس فبدلاً من تنشيطه بكلمات العطف كان يهوي عليه بالضرب والرفس... والخلاصة أن المدرسة كانت سجناً مخيفاً، والمعلم سجاناً مستبداً طاغياً لا رحمة في قلبه ولا شفقة... وكنا نتمنى لو تفتح الأرض فاها وتبتلعنا لنتخلص من تلك العذابات»(٢).

أما التعليم الحديث فكان دخوله إلى البلاد عن طريق الإرساليات التبشيرية الأجنبية وعن طريق محمد علي باشا. صحيح أن عدد المدارس التي أنشأها محمد علي في بلاد الشام قليل جداً، غير أنه شجع الدراسة في الكتاتيب والمدارس

(٢) المقدسي، جرجس الخوري: التعليم قديماً وحديثاً في سورية، المقتطف، المجلد ٣١ سبتمبر ١٩٠٦، ص ٧٤٧.

الإسلامية باللغة العربية. ويتضح ذلك من خلال قوائم الكتب التي كانت تطلب من مصر من أجل توزيعها على المدارس في بلاد الشام مثل: كتاب المعادن، وكتاب الطبيعة، وكتاب جر الأثقال، وكتاب التشريح، وكتاب الجراحة، وكتاب علم الأمراض، وكتاب الأقراباذين (الصيدلة)، والجغرافية الطبيعية، وابن عقيل، وابن مالك من الكتب الدينية، وإنشاء العطار، وكليلةودمنة من كتب اللغة. ومن الكتب التاريخية بعض الكتب المترجمة عن تاريخ مصر القديم وتاريخ أمريكا وإيطاليا، وحياة اسكندر الأكبر وبطرس الأكبر ونابليون. وقد تلقت غزة ٢٨٩ نسخة من هذه الكتب، كما تلقت يافا ١٤٥ نسخة منها(٣).

ويمكن تقسيم المعاهد الحديثة إلى أصناف ثلاثة: المعاهد الرسمية والمعاهد الوطنية والمعاهد الأجنبية، سنتناولها بالترتيب.

المعاهد الرسمية

كانت أول محاولة رسمية قامت بها الدولة العثمانية لتحديث التعليم صدور قانون المعارف العثماني لعام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م. فقد اعتبرت الكتاتيب والمدارس الدينية، بموجب هذا القانون، مدارس خاصة أو مدارس دينية. ووضعت المدارس التبشيرية والأجنبية تحت الرقابة الحكومية. وأصبح على كل مدرسة خاصة أن تحصل على ترخيص من مجلس المعارف في كل ولاية، وعلى موافقته على مناهجها وعلى تعيين المعلمين فيها.

أما المدارس الحكومية (العمومية) التي أنشأتها الدولة على الطراز الأوروبي الحديث، والتي نص عليها القانون، فكانت خمسة أنواع هي: المدارس الأولية «مكاتبي صبيانية»، والمدارس الابتدائية «مكاتبي رشدية»، والمدارس الثانوية المتوسطة «مكاتبي إعدادية»، والمدارس الثانوية العالية «مكاتبي سلطانية»، والمدارس العليا «مكاتبي عالية». ونص القانون على ان مدة التعليم الإلزامي هي السنوات الأربع الأولى من التعليم الابتدائي (بين السابعة والحادية عشرة للبنين وبين السادسة

(٣) Tibawi, A.L.: *American Interests in Syria*, PP. 68, 71

والعاشرة للبنات). كما نص على إنشاء المدارس الرشدية ومدتها أربع سنوات في التجمعات السكانية التي تزيد عن خمسمائة أسرة، وإنشاء المدارس الإعدادية ومدتها ثلاث سنوات في التجمعات السكانية التي تزيد عن ألف أسرة. أما المدارس السلطانية ومدتها ثلاث سنوات فتنشئها الدولة في المدن الكبرى وتتولى الإنفاق عليها. وتتألف المدارس العليا من المدارس الفنية والزراعية وإعداد المعلمين والمدارس الأكاديمية والمهنية المتخصصة التي كانت تؤلف «دار الفنون في الآستانة».

وتألف بموجب هذا القانون «مجلس أعلى للمعارف» في الآستانة يشرف على كافة المدارس. كما تألفت مجالس معارف في الولايات العثمانية تشرف على تنفيذ تعليمات وزارة المعارف وعلى صرف مخصصات المعارف. ويشرف المفتشون في كل ولاية على تعيين المعلمين ونقلهم، وإجراء الامتحانات، ومنح الشهادات. كما يشرفون على المكتبات والمطابع. وتتولى الدولة الإنفاق على التعليم في مرحلتيه الإعدادية والثانوية. أما التعليم الابتدائي فينفق عليه من ريع الأوقاف[٤].

ومع أن التعليم الرسمي كان مفتوحاً لجميع الرعايا العثمانيين بصرف النظر عن الجنس والمعتقد، فقد كانت معظم مدارس الدولة مقتصرة على التلاميذ المسلمين. وكانت اللغة التركية لغة التعليم في كافة المدارس باستثناء المدارس الأولية، حتى أن اللغة العربية كانت تدرّس للتلاميذ العرب بواسطة اللغة التركية.

وفي عام ١٣٢٩هـ/١٩١٣م صدر قانون مؤقت للتعليم الابتدائي طبق في فلسطين والأردن، ونص على أن يعهد إلى لجان المعارف في الألوية بالإشراف على الشؤون الإدارية والتعليمية للمدارس. أما لجنة المعارف فتتألف من رئيس ومفتش التعليم الابتدائي وطبيب الصحة وأربعة أشخاص آخرين يختارهم المجتمع المحلي. وكانت الغاية من إصدار هذا القانون منح السلطات المحلية مزيداً من الصلاحيات والمسؤوليات الإدارية والمالية في قطاع التربية والتعليم[٥].

(٤) المصدر السابق، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٥) السكاكيني، خليل: كذا أنا يا دنيا، ص ٧٢.

غير أن هذين القانونين لم يشملا المدارس العسكرية التي استهدفت تحديث الجيش والإدارة.

وقد أعيد تنظيم المدارس الابتدائية في فلسطين والأردن وحدثت مناهجها بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٤. فأصبحت المناهج تشمل تدريس القرآن الكريم واللغة التركية والتاريخ والجغرافية والحساب والصحة والرياضة البدنية والعلوم المنزلية والموسيقى. أما المدارس الأولية في القرى فلم ينلها التحديث، واقتصر التعليم فيها على حفظ القرآن والقراءة والكتابة والحساب[٦].

وعلى أية حال فقد بلغ عدد المدارس (العمومية) الحكومية ٩٥ مدرسة أولية وابتدائية وثلاث مدارس ثانوية عام ١٩١٤. وضمت هذه المدارس ٢٣٤ معلماً و٨٢٤٨ تلميذاً بينهم ١٤٨٠ تلميذة. وأنشىء في القدس مدرسة عالية، أثناء الحرب العالمية الأولى. ولأول مرة أصبحت اللغة العربية لغة التعليم في هذه المدرسة إلى جانب اللغة التركية. وكانت هذه المدرسة بمثابة كلية للتدريب[٧].

وكانت المعاهد العليا الرسمية، خارج فلسطين، مفتوحة للتلاميذ العرب، غير أن الدراسة في هذه المعاهد بدون منحة حكومية أمر متعذر. ولذلك كان العديد من التلاميذ يذهبون إلى الآستانة للالتحاق بالكليات العسكرية او بجامعة الدولة «دار الفنون». والقليل منهم يلتحقون بالجامعات الأوروبية والأمريكية[٨].

المعاهد الوطنية

وجد في فلسطين والأردن العديد من المدارس الوطنية (الخصوصية) من المستوى الأولي والابتدائي. فقد بلغ عدد المدارس الخصوصية الإسلامية، حسبما جاء في التقديرات الاحصائية التركية لعام ١٩١٤: (٣٧٩) مدرسة تضم (٤١٧) معلماً و(٨٧٠٥) تلاميذ بينهم (١٣١) تلميذة. وكان معظم هذه المدارس من

(٦) Tibawi, A.L.: Op.Cit, P. 77

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٨) المصدر السابق، ص ٢١.

الكتاتيب التي مرّ ذكرها. وكان معلموها إما من خريجي الجامع الأزهر أو من المتعلمين في المساجد. وكان التعليم فيها باللغة العربية. ولا تتلقى هذه المدارس أية معونة من الدولة كما لا تخضع لرقابتها.

وقد أنشىء في القدس مدرسة ابتدائية حديثة خصوصية بعد صدور الدستور العثماني عام ١٩٠٨ هي «روضةالمعارف»، وأضيفت إليها فيما بعد صفوف ثانوية. وكانت أول مدرسة إسلامية خاصة تتبنى مناهج حديثة في فلسطين[٩].

وفي عام ١٩١٨ أنشأت لجنة محلية في نابلس «مدرسة النجاح» التي تطورت إلى مدرسة داخلية تحتوي صفوفا ابتدائية وثانوية كاملة. فسارت على نهج «روضة المعارف» في القدس.

وكان من أبرز المدارس الوطنية في القدس «المدرسة الدستورية» التي أنشئت عام ١٩٠٩. فكانت أول مدرسة وطنية أسسها مسلمون ومسيحيون (علي جارالله وجميل الخالدي وخليل السكاكيني وافتيم مشبك)، وضمت التلاميذ من مختلف الأديان والمذاهب على مقاعد الدراسة، واختارت منهجاً تربوياً حديثاً، واعتمدت التدريس باللغة العربية واستهدفت بث الروح القومية العربية في نفوس تلاميذها[١٠].

أما المدارس الوطنية التي أنشأتها الطائفة الأرثوذكسية على نفقتها الخاصة فكانت من مستوى المدارس الأولية. ولم تخل أية قرية يقطنها أرثوذكس من هذه المدارس. وقد سبق إنشاء المدرسة الدستورية السابقة الذكر، إنشاء مدرسة حديثة في عكا على يد المربي نخلة زريق عام ١٨٨٨، واعتمدت تدريس اللغة العربيةواللغة الفرنسية والحساب ومسك الدفاتر[١١].

وكان للأقلية اليهودية في فلسطين مدارسها الخاصة بها. وكان بعض هذه

(٩) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(١٠) زيدان، جرجي: فلسطين أحوالها العلمية، **الهلال**، ج ٨، السنة ٢٢، أيار ١٩١٤ ص ٦٠٣
السكاكيني، خليل: **كذا أنا يا دنيا**، ص ٥١ ـ ٥٢.

(١١) شقير، نعوم: مدرسة في عكا، **المقتطف**، ١٨٨٨، السنة ١٣، ص ٦٩٣.

المدارس تقليدياً يعلم التوراة والتلمود باللغة العبرية، وبعضها الآخر حديث. وقد بلغ عدد المدارس التقليدية في القدس في عام ١٩١٤ العشرات وتضم مئتي معلم وحوالى أربعة آلاف تلميذ. أما خارج القدس فقد وجد نحو عشرين مدرسة أكثرها في تل أبيب، بلغ عدد معلميها ٥١ معلماً وتضم نحو ١٤٠٠ تلميذ.

أما المدارس اليهودية الحديثة في فلسطين فكان أول من أنشأها «جمعية الأليانس الاسرائيلية». وكانت هذه المدارس تضم حوالى ألفي تلميذ عام ١٩١٤. وأشهر هذه المدارس: مدرسة الأليانس، ومدرسة بيت ساليل ومدرسة لاميل ومدرسة الجمنازيوم في تل أبيب، والمدرسة الثانوية في حيفا، والمدرسة الزراعية قرب تل أبيب، ومعهد الموسيقى ومعهد التمثيل في تل أبيب.

وفي عهد الانتداب تولت الوكالة اليهودية مهمة إنشاء المدارس اليهودية. وبقيت هذه المدارس طوال عهد الانتداب، مستقلة عن النظام التعليمي العام في فلسطين[١٢].

المعاهد الأجنبية

أنشئت هذه المعاهد على يد الإرساليات التبشيرية ويمكن تصنيفها وفق مذاهب الإرساليات التبشيرية التي أسستها.

المعاهد اللاتينية والكاثوليكية

تعتبر الإرساليات التبشيرية اللاتينية أقدم الإرساليات نشاطاً في ميدان التعليم. فقد وجدت مدرسة داخلية للصبيان في دير الفرنسيسكان في القدس منذ عام ١٧٠٠م. غير أنها كانت مدرسة متواضعة لم يزد عدد تلاميذها عام ١٨٨٣ عن عشرين تلميذاً، يدرسهم ثلاثة معلمين. أما أقدم المدارس الحديثة التي أنشأها اللاتين في المدينة المقدسة فهي مدرسة مار يوسف للبنات The Pensionat St. Joseph التي افتتحت عام ١٨٤٨. وتلاها إنشاء مدرسة الكرسي البطريركي للشباب عام

(١٢) زيدان، جرجي: فلسطين أحوالها العلمية، **الهلال**، أيار ١٩١٤، ص ٦٠٤ ـ ٦٠٦.

١٨٦٠، ومدرسة راهبات صهيون للبنات عام ١٨٦٥، ومدرسة السيدة حنة تريزا للبنات عام ١٨٧٠، ومدرسة دير الفرنسيسكان للبنات والمدرسة الفرنساوية للبنات عام ١٨٧٨، ومدرسة الفرير للصبيان Le Collège des Frères عام ١٨٧٩، ومدرسة القديسة حنة للشبان عام ١٨٨٢ ومدرسة الروم الكاثوليك في العام نفسه[١٣].

وكان للرهبنات اللاتينية نشاط واسع في مدينة الناصرة وبخاصة إرسالية راهبات الناصرة التي وصلت المدينة عام ١٨٥٤، وأخوة يوحنا اللاهوتي (١٨٨١م) وراهبات مار يوسف الظهور (١٨٨٨م)، وراهبات الكلاريس، وراهبات المحبة والراهبات الكرمليات (١٩٠٩) والرهبان الكرمليون أو البيض (١٩٠٧). غير أن نشاط هذه الإرساليات اقتصر في بداية الأمر على إنشاء الأديرة والمستوصفات[١٤]. وكانت تتلقى العون من الكرسي البابوي ومن الحكومتين الفرنسية والنمسوية. كما شاركت الحكومة الإيطالية في إنشاء المدارس اللاتينية في فلسطين. وكانت الجمعية السالزيانية Societa Salesiana di Don Bosco تدير نصف المدارس الإيطالية في فلسطين. وكان أعلى هذه المدارس The Opera Cardinal Ferrari التي كانت تدرس الصفوف الثانوية باللغة الإيطالية. غير أنها لم تعمّر طويلاً إذ حلت محلها مدرسة التراسانطه La Terra Santa عام ١٩٢٩. وقد أنشأت البعثة الساليزانية مدرسة مهنية في بيت لحم[١٥]. ولعل أشهر المدارس الكاثوليكية الألمانية في القدس مدرسة شميدت للبنات التي كانت تضم صفوفاً من البستان وحتى نهاية المرحلة الثانوية. وقد أضيف إليها، في عهد الانتداب البريطاني، صف إعدادي لمن تريد من خريجاتها ان تصبح معلمة[١٦].

المعاهد البروتستانتية والانجليكانية

كان التنافس شديداً بين الإرساليات التبشيرية في إنشاء المدارس، وبخاصة في

(١٣) مكاريوس، شاهين: المعارف في سورية، المقتطف السنة ٧ (١٨٨٣)، ص ٤٧٠ - ٤٧٢.
(١٤) عبود، أسعد: تاريخ الناصرة، ص ١٤٩ - ١٥٠.
(١٥) Tibawi, A.L., Op. Cit, P. 63.
(١٦) المصدر السابق، ص ٦٢.

المدينة المقدسة. فقد بدأت الإرساليات البروتستانتية بإنشاء مدرسة The Diocesan Boys School عام ١٨٤٧ التي تطورت بعد ذلك وأصبحت مدرستين إحداهما للصبيان والأخرى للبنات. كما أنشئت مدرسة إعدادية للبنين وأخرى للبنات تحمل الاسم نفسه The Diocesan Preparatory. وبعدها أنشئت المدرسة البروسية للبنات The Prussian Deaconesses Girls School كمدرسة داخلية. وتلاها إنشاء مدرسة جمعية يهود لندن للبنين والبنات The London Jewish Society School. وفي أعقاب فتنة الشام عام ١٨٦٠ أنشئت مدرسة الأيتام السورية بدعم من حكومة بروسيا وأخذت فيما بعد اسم أول أساتذتها المؤسسين فأصبحت تدعى مدرسة شنلر Schneller[١٧]. وكانت تعلم اللغات وبعض الحرف مثل صناعة الخزف والحدادة والنجارة وغيرها. وبلغ عدد تلاميذ هذه المدرسة في عام ١٩١٤ نحو ٧٥٠ تلميذاً منهم ٤٠٠ داخليون وحوالى خمسين فتاة. كما كانت تضم حوالى خمسين تلميذاً أعمى. وبلغ عدد معلميها خمسة وأربعين معلماً منهم ثلاثة وعشرون لتعليم اللغات والعلوم واثنان وعشرون لتعليم الحرف. ومن أشهر المدارس التي أنشأتها الجمعيات البروتستانتية الألمانية في القدس مدرسة طاليتا قومي الداخلية للبنات التي تأسست عام ١٨٥١م، ومدرسة الهيكليين للصبيان ومدرسة الهيكليين للبنات اللتان تأسستا عام ١٨٧٨م[١٨].

وكان لجمعية المرسلين الكنسية Church Missionary Society التي تأسست في لندن عام ١٧٩٩ دور بارز في إنشاء المدارس البروتستانتية في فلسطين والأردن منذ عام ١٨٥٠. فقد أنشأت مدرسة صهيون الداخلية للصبيان عام ١٨٥١، ومدرسة صهيون الداخلية للشبان عام ١٨٧٥، ومدرسة يومية للبنات عام ١٨٧٠، في القدس[١٩]. وأنشأت هذه الجمعية مدارس مماثلة في بيت لحم وبيت جالا واللد والرملة ويافا ونابلس ورفيديا نصف الجبيل وزبابده والرينة وكفركنه ومجيدل وبرقين وشفا عمرو ومعلول والسلط وعجلون والحصن وإربد. وكان لهذه الجمعية أربع

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٥٨ - ١٥٩.
(١٨) مكاريوس، شاهين المعارف في سورية، المقتطف السنة ٧، (١٨٨٣) ص ٤٧١ - ٤٧٢.
(١٩) ياغي، عبد الرحمن: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، ص ٦٣.

مدارس في غزة اثنتان للصبيان واثنتان للبنات[٢٠]. هذا وقد بلغ عـدد مدارس جمعية المرسلين الكنسية في فلسطين والأردن ٣٥ مـدرسة عـام ١٨٨٢ كـانت تضم ١٦٣٥ تلميذاً. وازداد عددها باضطراد حتى بلغ ٤٧ مدرسة عام ١٨٩٦[٢١] موزعة كما يلي:

المدينة	عدد المدارس	المعلمون الوطنيون		التلاميذ	
		ذكور	إناث	ذكور	إناث
القدس وقراها	٨	١٠	٦	٢٩٠	١٩٢
مدارس الأسقف غوبات	٢	٥	—	٥٤	—
يافا وقراها	٧	٩	٥	٣٣٥	٢٣٠
غزة وقراها	٢	١	٤	٤٥	١٢٠
نابلس وقراها	٨	١٠	٣	١٠٠	٩٠
الناصرة وقراها	١٥	١٨	٦	٤٧٠	٢٢٠
السلط وقراها	٥	٥	٢	١٢٤	٤٩
المجموع	٤٧	٥٨	٢٦	١٤١٨	٣٢ + ٨٨٩
			٨٤	٢٣٠٧	

أما المدارس البروتستانتية في لواء القدس فكانت موزعة على الإرساليات عام ١٨٨٦/١٨٨٧م على الشكل التالي[٢٢]:

(٢٠) العارف، عارف: تاريخ غزة، ص ١٠٠، مكاريوس، شاهين: المعارف في سورية، المقتطف (السنة ٧ (٣٨٨٣) ص ٥٣٢.

(٢١) Tibawi, A.L.: British Interests in Palestine, P. 226

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

الإرسالية	عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد التلاميذ	عدد التلميذات
جمعية المرسلين الكنسية C.M.S.	٤٥	٧٤	١٠٣٠	٧٣٠
جمعية لندن اليهودية L.J.S.	٣	٨	٦٤	٧٣
إرسالية السيدات الانكليزيات English Ladies Mission	٢	٢	—	٥٥
إرسالية الأصدقاء السورية Friends Syrian Mission	٤	٥	٨٠	٣٠
إرسالية تابيتا Tabeetha Mission	٣	٧	١٠٠	١٦٠
المجموع	٥٧	٩٦	١١٨٤	١٠٤٨

غير أن جمعية المرسلين الكنسية واجهت معارضة شديدة من جانب الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية، كما واجهت لا مبالاة السكان المحليين وعداءهم في بعض الأحيان. فقد حدث أول صدام بين الروم الأرثوذكس والإرسالية الانجيلية في السلط في نيسان عام ١٨٥١م. إذ ثارت الأكثرية الأرثوذكسية من مسيحيي المدينة على الأقلية الانجيلية، فأغلقت المدرسة الانجيلية وطردت معلمها. وحصل حادث العنف الثاني في الناصرة في شباط ١٨٥٢ عندما هاجم الروم الكاثوليك مدرسة جمعية المرسلين الكنسية، وحطموا أثاثها، وجرحوا المبشرين الذين كانوا فيها. واضطر القنصل البريطاني في القدس إلى الاحتجاج لدى بطريرك اللاتين في المدينة المقدسة على هذا الحادث. وكان حادث العنف الثالث في مدينة نابلس حينما هاجم الروم الأرثوذكس دار الإرسالية في تشرين الثاني عام ١٨٥٣ وطردوا المصلين من أتباعها[٢٣].

هذا وقد أنشئت مدرستان انكليزيتان في القدس تسيران على المنهج البريطاني عام ١٨٩٩ وهما: مدرسة القديس جورج St. George's School وكلية القدس

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

للبنات The Jerusalem Girls College التي كانت تحت الإشراف المباشر للأسقف الانجليكاني. وكانتا مدرستين كاملتين (ابتدائي وثانوي) أصبحتا تهيئان في ما بعد لامتحان المترك البريطاني (.Matriculation Exam) وكانت كلية البنات تدرّس سنة واحدة بعد المترك لإعداد المعلمات[٢٤].

أما المدارس الأمريكية فقد دخلت البلاد في فترة متأخرة. إذ أنشئت مدرسة الفرندز للبنات في رام الله عام ١٨٨٩. وتلاها إنشاء مدرسة الفرندز للبنين The Friends Boys School في المدينة نفسها بعد ذلك بعامين. وكانتا مدرستين كاملتين واقتصرتا على قبول الطلبة العرب من المسيحيين والمسلمين[٢٥].

المعاهد الروسية الأرثوذكسية

بينما كانت الإرساليات الكاثوليكية والانجيلية تتسابق في ترسيخ أقدامها في فلسطين والأردن واكتساب المزيد من الأتباع، كان الروم الأرثوذكس الذين يشكلون الأكثرية الكبيرة من مسيحيي هذين القطرين يعيشون في تخلف كبير، ومدارسهم الوطنية مجرد مدارس دينية أولية دون مستوى الكتاتيب الإسلامية. وقد أهملت البطريركية الأرثوذكسية في القدس رعاياها واشتد الخلاف بين أساقفتها ورهبانها من اليونانيين وبين المواطنين العرب الذين كانوا يشعرون أن الإكليروس اليوناني قد اغتصب الكرسي البطريركي والمناصب الدينية المهمة منهم. ولذلك اضطر العديد من أبناء هذه الطائفة إلى إرسال أطفالهم إلى المدارس اللاتينية والبروتستانتية حيثما وجدت حرصاً منهم على أن يحصل أطفالهم على تعليم حديث يؤهلهم للحياة العصرية. ولما كانت روسيا القيصرية تعتبر نفسها حامية الكنيسة الأرثوذكسية فقد اتجهت بأنظارها إلى الروم الأرثوذكس في فلسطين والأردن لكسب ودهم وتبرير تدخلها في شؤون الدولة العثمانية كغيرها من الدول الأوروبية. ولكنها لقيت عقبات عديدة من جانب البطريركية الأرثوذكسية في القدس التي اعتبرت المحاولات الروسية تدخلاً في شؤونها الداخلية ودعماً للأرثوذكس العرب المناهضين لها. ولكن

(٢٤) Tibawi, A.L.: Arab Education in Mandatory Palestine, P. 62
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٦٣.

الحكومة الروسية بذلت جهوداً كبيرة لإرضاء البطريركية[٢٦]. وفي عام ١٨٦٦م اشترى رئيس البعثة الروسية في القدس قطعة من الأرض في بيت جالا بتبرع من القيصرة ماريا الكسندروفنا Marya Alexandrovna، وبنت عليها مدرسة لبنات العرب الأرثوذكس، فكانت أول مدرسة روسية في بلاد الشام كلها. وتحولت هذه المدرسة بعد عشرين سنة إلى معهد لتدريب المعلمات بعد أن أصبحت تحت إشراف جمعية فلسطين الروسية الامبراطورية[٢٧].

والواقع أن النشاط الثقافي الروسي لم يبدأ بصورة منظمة وفعالة إلا بعد تأسيس جمعية فلسطين الروسية الامبراطورية عام ١٨٨٢. فقد باشرت نشاطها بإنشاء مدرسة في قرية المجيدل في أواخر عام ١٨٨٢. وتولى إدارة هذه المدرسة راهب عربي، غير أن تلامذتها لم يتجاوزوا الأربعة بسبب النشاط البروتستانتي المنافس في القرية نفسها. وأنشأت مدارس مماثلة في قرى الرامة وكفرياسيف والشجرة في الجليل. وافتتحت أول مدرسة للبنات في الناصرة عام ١٨٨٥ تلاها إنشاء مدرسة للبنين في العام التالي. وتحولت هذه الأخيرة عام ١٨٩٤ إلى مدرسة ابتدائية كاملة، ومن ثم إلى معهد لتدريب المعلمين عام ١٨٩٨[٢٨].

ومع انتهاء القرن التاسع عشر كان في فلسطين والأردن عشرون مدرسة تابعة للجمعية السابقة الذكر. وتتدرج هذه المدارس في فئات ثلاث: المدارس الداخلية والمدارس النهارية والمدارس القروية. وكانت المدارس الداخلية والانموذجية ومدارس البنات تحت الرقابة الروسية المباشرة. أما المدارس القروية فكان يتولاها معلم عربي واحد، وتضم صفاً واحداً، والتعليم فيها لمدة ثلاث سنوات، يدخلها الطفل في سن الثامنة. وكان بعض المدارس القروية بصفين ومدة الدراسة فيها خمس سنوات. وعينت الجمعية لهذه المدارس المتفاوتة في مستواها التعليمي مفتشاً عاماً لينسق في ما بينها. ولكنها بدأت بإهمال المدارس في فلسطين والأردن منذ عام ١٨٩٥ حينما طلب

(٢٦) Hopwood, Op. Cit. PP. 137-140.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ٩٤.
(٢٨) المصدر السابق، ص ١٤١ ـ ١٤٦.

منها بطريرك انطاكية نقل نشاطاتها إلى منطقة بطريركيته، فقبلت هذا العرض. وواجهت الجمعية صعوبة كبيرة في استقدام المعلمين الروس وفي توفير المعلمين العرب لمدارسها. ورغم الصعوبات التي واجهت النشاط الثقافي الروسي فقد أقبل الطلبة على معهد إعداد المعلمين في الناصرة وتخرج فيه العديد من المعلمين وموظفي الشركات. فقد بلغ عدد خريجيه ٦٩ خريجاً عام ١٩١١، اشتغل ٤٢ منهم معلمين في المدارس الروسية في البلاد[٢٩]. وأخذت الجمعية الروسية توفد خيرة خريجيها إلى روسيا لإكمال تعليمهم العالي. غير أنها واجهت مشكلة جديدة. إذ اشتغل بعض هؤلاء في روسيا نفسها وحصلوا على الجنسية الروسية ولم يعودوا إلى وطنهم[٣٠]. أما أبرز خريجي هذا المعهد فهم ميخائيل نعيمه ونسيب عريضه وعبدالمسيح حداد الذين هاجروا إلى نيويورك حيث أنشأوا «الرابطة القلمية». وفي عام ١٩١٤ أغلقت المدارس الروسية في فلسطين والأردن بعد إعلان الحرب العالمية الأولى، وعاد جميع المعلمين الروس إلى بلادهم.

التعليم في بداية عهد الانتداب

منذ أن وقعت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني استمرت المدارس الحكومية والخاصة في التدريس، كما كانت الحال في العهد العثماني، باستثناء المدارس النمسوية والألمانية التي استمرت في مواصلة عملها تحت شروط معينة في بداية الأمر. ثم استأنفته بحرية تامة بعد ذلك. وبقي قانون المعارف العثماني سائداً حتى عام ١٩٣٣، حين صدر أول نظام للمعارف في فلسطين. وظلت إدارة المدارس خاضعة للقوانين العثمانية من الناحية النظرية ولمجموعة من التعليمات والتعميمات الصادرة عن مدير المعارف في حكومة فلسطين المدنية من الناحية العملية[٣١]. غير أن أهم التطورات التي حصلت في العهد الجديد في ميدان التعليم هي:

١ـ أصبحت اللغة العربية لغة التدريس، وأصبحت اللغة الانكليزية اللغة الأجنبية

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.
(٣٠) داغر، أسعد: المدارس الروسية في سورية، المقتطف، اكتوبر ١٩٠١، ص ٩٠١ ـ ٩٠٤.
(٣١) Tibawi, A.L.: Arab Education in Mandatory *Palestine*, P. 134

في مرحلة معينة من التعليم في مدارس المدن.

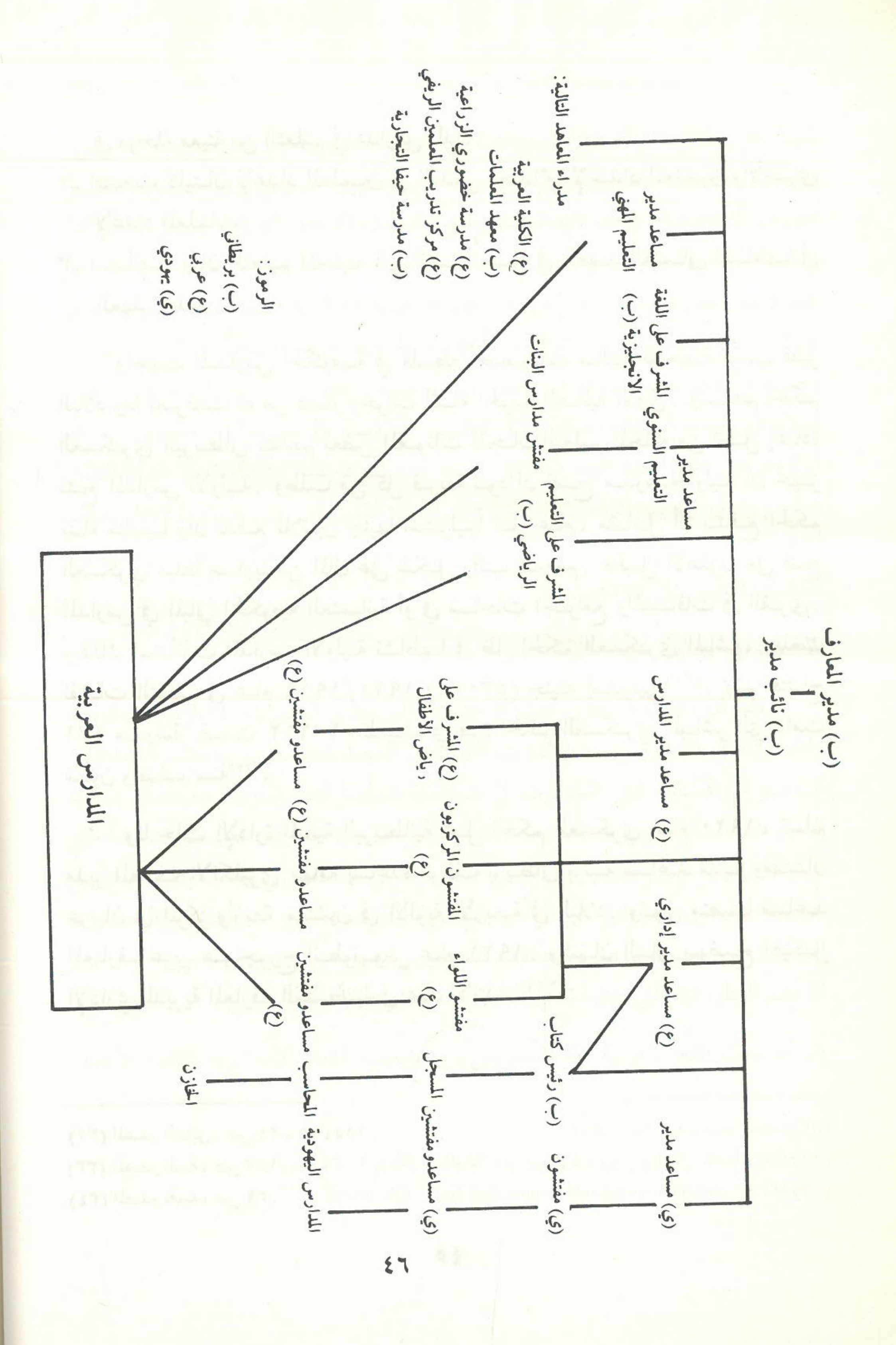
٢ـ افتتحت كليتان لإعداد المعلمين في القدس إحداهما لإعداد المعلمين والأخرى لإعداد المعلمات.

٣ـ استأنفت لجان التعليم المحلية التي كانت تعمل في العهد العثماني نشاطها في العهد الجديد.

وواجهت المدارس الحكومية في فلسطين صعوبات مالية ضخمة بسبب فقر البلاد وما تعرضت له من دمار وخراب أثناء الحرب العالمية الأولى. وساهم الحكم العسكري البريطاني بتقديم بعض المعونات للجان التعليم المحلية من أجل إعادة فتح المدارس الأولية. وطلب من كل قرية تود أن تفتح مدرسة أولية أن تجهز بناءً مناسباً وأن تدفع ثلاثين جنيهاً استرلينياً كل عام، مقابل أن يدفع الحكم العسكري مبلغاً مساوياً من المال على شكل راتب للمعلم. فأقبل الأهلون على فتح المدارس في المباني الحكومية العثمانية أو في ساحات الجوامع والمضافات في القرى. وبذلك استأنفت المدارس الأولية نشاطها في ظل الحكم العسكري المباشر، وبلغت نفقات التعليم في عام ١٩١٩/١٩٢٠ (٥٣٠٠٠) جنيه استرليني[٣٢]. وتم افتتاح ١٧١ مدرسة ضمت ١٠٦٦٢ تلميذاً في فترة الحكم العسكري المباشر التي دامت سنتين ونصف سنة[٣٣].

ولما حلت الإدارة المدنية البريطانية محل الحكم العسكري عام ١٩٢٠، تسلم مدير المعارف الانكليزي مهامه يساعده موظف بريطاني برتبة مساعد مدير ومفتشان عربيان في المركز وأربعة مفتشين في الألوية الأربعة في البلاد. وتولى منصب مساعد المعارف عربي هو جورج انطونيوس عام ١٩٢١. والبيان التالي يوضح الهيكل الإداري لمديرية المعارف الفلسطينية في عهد الانتداب[٣٤]:

(٣٢) المصدر السابق، ص ٢٤ ـ ٢٥، ١٥٥.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٥٧.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٩.



ومع قيام الإدارة المدنية البريطانية خصص مبلغ ٧٨ ألف جنيه استرليني للإنفاق على التعليم في موازنة عام ١٩٢٠/١٩٢١، وتبنت خطة تعليمية جديدة تقوم على فتح (٧٥) مدرسة ابتدائية في كل عام. وقد نجحت هذه الخطة بسبب إقبال العرب على التعليم وحماسهم لفتح المدارس الأولية في القرى.

وموازنة المعارف خلال السنوات الخمس الأولى من عهد الانتداب تدل على ذلك[٣٥].

السنة المالية	مقدار النفقات بالجنيهات الاسترلينية	نسبة النفقات التعليمية الى النفقات العامة
١٩٢٠/١٩٢١	٧٨٠٠٠	٪٦,٩
١٩٢١/١٩٢٢	١٣٠٠٠٠	٪٦,٧٣
١٩٢٢/١٩٢٣	١١٤٢١٧	٪٦,٠٦
١٩٢٣/١٩٢٤	٩٧٢٧٩	٪٥,٩٤
١٩٢٤/١٩٢٥	١٠٠٩٩٠	٪٥,٥٤
١٩٢٥/١٩٢٦	١٠١٣٩٢	٪٤,٩٦

ورافق هذه الزيادة في الموازنة زيادة في عدد المدارس. ويبين الجدول التالي نمو المدارس الرسمية في فلسطين بين عامي ١٩١٤ و١٩٢٥[٣٦]

(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٣٧.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

السنة الدراسية	عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد التلاميذ			السكان في سن الدراسة	عدد السكان العرب
			البنون	البنات	المجموع		
١٩١٥/١٩١٤	٩٨	٢٣٤	٦٨٤٨	١٤٠٠	٨٢٤٨	٧١٩٣٣	٦٠٤٢٧٥
١٩٢٠/١٩١٩	١٧١	٤٠٨	٨٤١٩	٢٢٤٣	١٠٦٦٢		
١٩٢١/١٩٢٠	٢٤٤	٥٢٥	١٣٦٥٦	٢٧٨٦	١٦٤٤٢		
١٩٢٢/١٩٢١	٣١١	٦٣٩	١٦٦٠٦	٣٠٣٣	١٩٦٣٩		
١٩٢٣/١٩٢٢	٣١٤	٦٧٢	١٦٠٤٦	٣٢٨٥	١٩٣٣١	١٦٨٠٠٠	٦٧٣٠٠٠
١٩٢٤/١٩٢٣	٣١٤	٦٨٥	١٥٥٠٩	٣٦٥٥	١٩١٦٤		
١٩٢٥/١٩٢٤	٣١٥	٦٨٧	١٦١٤٧	٣٧٣٤	١٩٨٨١		
١٩٢٦/١٩٢٥	٣١٤	٦٨٧	١٦١٤٦	٣٥٩١	١٩٧٣٧		

هذا ولم يتجاوز عدد التلاميذ في الصفين الأول والثاني الثانويين في المدارس الرسمية (١٦٣) تلميذاً في العام الدراسي ١٩٢٥/١٩٢٦. أما طلبة معهد المعلمين فبلغ عددهم (٨٠) طالباً و(٥٤) طالبة في العام نفسه[٣٧]. وهذا يشير إلى أن معظم المدارس التي افتتحت كانت مدارس أولية وابتدائية. وكانت المدرسة الأولية يتولاها معلم واحد وتضم ما بين أربعين وستين تلميذاً.

لقد نصت المادة الخامسة عشرة من صك الانتداب البريطاني على فلسطين على «أن لا تحرم أية طائفة كانت من حق المحافظة على مدارسها لتعليم أبنائها بلغتهم إذا كان ذلك مطابقاً لشروط التعليم العمومية التي تفرضها الإدارة»[٣٨]. وهذا يعني أن الانتداب البريطاني قد اعترف بالنظام التعليمي الذي كان سائداً في العهد العثماني والقائم على نظام (الملل) الطوائف، وفي ذلك ما فيه من مضار على عرب فلسطين وعلى مستقبل البلاد السياسي.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٣٨) المحافظة، علي: عهد الإمارة، ص ١٧١.

ومن الجدير بالذكر أن المدارس العربية الخاصة قد بلغت في إعدادها وإعداد طلابها ما بلغته المدارس الرسمية. إذ بلغ عدد التلاميذ في المدارس الخاصة الإسلامية والمسيحية ١٩٣٢٨ تلميذاً في نهاية عام ١٩٢٥، بينما بلغ عدد التلاميذ في المدارس الرسمية ١٩٨٨١ في العام نفسه. أما المعونة التي كانت تتلقاها هذه المدارس من الحكومة فكانت زهيدة للغاية، إذ لم تتجاوز (١٦٠٤) جنيهات استرلينية عام ١٩٢٥ أي بمعدل أربعة شلنات للتلميذ الواحد[٣٩]. والجدول التالي يبين نمو هذه المدارس بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٥[٤٠].

السنة الدراسية	المدارس الإسلامية			المدارس المسيحية		
	عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد التلاميذ	عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد التلاميذ
١٩٢٢/١٩٢١	٤٢	١١٤	٢٢٨٧	١٣٩	٦٨٨	١١٩٥٢
١٩٢٣/١٩٢٢	٣٨	١١٢	٢٤٧٧	١٧٢	٧٨٦	١٣٣٤٨
١٩٢٤/١٩٢٣	٤٧	١٣١	٣٠٤٤	١٧٩	٨٤٣	١٤٣٢٨
١٩٢٥/١٩٢٣	٥٠	—	٣٥٦٥	١٨٤	—	١٥٣٢١
١٩٢٦/١٩٢٥	٤٥	١٤٠	٣٤٤٥	١٨٣	٨٦٦	١٤٣٨٥

ويلاحظ من الجدول السابق أن المدارس الخاصة الإسلامية كانت قليلة في عددها وفي عدد تلاميذها، بسبب تحول معظمها إلى مدارس حكومية وبسبب العجز المالي الذي كانت تعاني منه. ولكن المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين وقف إلى جانبها وبعث الحياة فيها، ووضع الكتاتيب المتبقية في البلاد تحت إشرافه. وغيَّر من مناهجها بحيث يسهل على تلاميذها الانتقال إلى المدارس الحكومية. وكان هذا المجلس يقدم المساعدة لمدرستي «روضة المعارف» في القدس و«النجاح» في نابلس. وفتح دروساً دينية في جامع الجزار في عكا. وحافظ على مدرسة «الفلاح» في غزة ومدرسة «دار العلوم» في يافا. وأنشأ مدرسة للفنون للأيتام في القدس فاحتوت على صفوف ابتدائية عادية وفرع مهنية كالنجارة والطباعة وتجليد الكتب والخياطة ونسج

(٣٩) Tibawi, A.L.: Op. Cit., P. 66

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٧١.

السجاد وصناعة الخزف. وقامت إلى جانب المجلس الإسلامي الأعلى مؤسسات عربية أخرى تولت انشاء المدارس الخاصة مثل الجمعية الإسلامية في حيفا وجمعية يافا المحلية(٤١). أما المدارس الخاصة المسيحية فكانت في معظمها مدارس تبشيرية باستثناء المدارس الأرثوذكسية.

أما الأردن فقد شهد زيادة في عدد المدارس الأولية والابتدائية في عهد الدولة العربية السورية (العهد الفيصلي). وبلغ مجموع هذه المدارس الحديثة في هذا العهد عشرين مدرسة. ومنذ تأسيس الإمارة وجهت عناية خاصة للتعليم فبلغ عدد المدارس الحكومية بعد العام الأول من قيام الحكم الجديد ٤٤ مدرسة(٤٢).

وفي أيار سنة ١٩٢٣ احتفل بوضع حجر الأساس لأول مدرسة ثانوية في البلاد في مدينة السلط(٤٣). وتوحدت برامج التدريس في جميع المدارس الحكومية في آب من العام نفسه بقرار من مديرية المعارف العامة. وتألف أول مجلس للمعارف في البلاد في الشهر نفسه برئاسة رئيس المستشارين (رئيس الحكومة) وعضوية كل من مدير المعارف العامة والمفتش الملكي ومدير الصحة ومدير الأشغال. وأوكلت إليه مهمة اختيار المعلمين وموظفي المعارف بالإضافة إلى الإشراف على مناهج التدريس(٤٤). غير أن هذا المجلس لم يعمر طويلاً إذ حل في ٢٠ أيلول من العام نفسه وتشكل مجلس جديد من سبعة أعضاء يعينهم مجلس النظار (الوزراء) من مديري الدوائر ومن أهل الفضل(٤٥).

وصدر أول نظام للمدارس في الأول من حزيران عام ١٩٢٥، تعينت بموجبه واجبات مدير المدرسة وصلاحياته، ونظام الامتحانات وواجبات المدرسين وشروط قبول التلاميذ وانتقالهم والعقوبات التي تفرض عليهم ومهمات الضباط (المراقبين)

---

(٤١) المصدر السابق، ص ٥٧، ٥٩، **المقتطف**، المجلد ٦٥ (ديسمبر ١٩٢٤) ص ٥٦٧ - ٥٦٨.
(٤٢) الحصري، ساطع: **حولية الثقافة العربية**، السنة الأولى، ج ١، ص ٤٦.
(٤٣) الشرق العربي، عدد ٤ تاريخ ١٩٢٣/٦/٤.
(٤٤) الشرق العربي، عدد ١٣ تاريخ ١٩٢٣/٨/٢٠.
(٤٥) الشرق العربي، عدد ٢١ تاريخ ١٩٢٣/١٠/٢٢. وقد تألف المجلس الجديد من السادة: رضا توفيق وعوني القضماني والشيخ مصطفى الغلاييني ومحمد الشريقي وسعيد المفتي وطاهر الجقه.

في المدرسة، ووظائف المفتشين(٤٦). وبقي قانون المعارف العثماني الصادر عام ١٨٦٩ هو المعمول به نظرياً حتى صدور نظام المعارف عام ١٩٣٩(٤٧).

ويوضح الجدول التالي نمو المدارس (الأميرية) الرسمية وعدد معلميها بين عامي ١٩٢٢ و١٩٢٥(٤٨).

	عدد المدارس			عدد المعلمين		
السنة الدراسية	مدارس البنين	مدارس البنات	المجموع	المعلمون	المعلمات	المجموع
١٩٢٣/١٩٢٢	٣٨	٦	٤٤	٦٩	٢	٧١
١٩٢٤/١٩٢٣	٤٥	٥	٥٠	١٠٢	١٣	١١٥
١٩٢٥/١٩٢٤	٣٩	٥	٤٤	٩٧	١٣	١١٠
١٩٢٦/١٩٢٥	٤٤	٥	٤٩	١٠١	١٨	١١٩

لم يتجاوز خريجو المدارس الابتدائية عام ١٩٢٦/١٩٢٥ خمسة وخمسين تلميذاً(٤٩).
ويوضح الجدول التالي نمو عدد التلاميذ خلال السنوات الخمس الأولى من عهد الإمارة الأردنية(٥٠):

السنة الدراسية	عدد التلاميذ البنين	عدد التلميذات	المجموع
١٩٢٣/١٩٢٢	٢٩٩٨	٣١٨	٣٣١٦
١٩٢٤/١٩٢٣	٢٩٨٥	٤٠٣	٣٣٨٨
١٩٢٥/١٩٢٤	٢٩٠٤	٣٥٣	٣٢٥٧
١٩٢٦/١٩٢٥	٣٢٧٦	٣٩٨	٣٦٧٤

والواقع أن نمو المدارس والإقبال عليها خلال هذه الفترة الأولى من عهد الإمارة كان بطيئاً جداً بسبب الفقر الشديد الذي كان يعاني منه السكان وإهمال

---

(٤٦) الشرق العربي، عدد ١٠٦ تاريخ ١٩٢٥/٦/١.
(٤٧) الجريدة الرسمية، عدد ٦٢٣ تاريخ ١٩٣٩/١/١٦.
(٤٨) الحصري، ساطع: **حولية الثقافة العربية**، ج ١، ص ٤٦.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ٤٩.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ٤٧.

الحكومة الناشئة لشؤون التعليم وتوجيه اهتمامها الأساسي للحفاظ على الأمن والنظام في البلاد. فلم يتجاوز ما كانت تنفقه الدولة على التلميذ الواحد ٧٥ مليماً مصرياً في السنة[٥١]. وبلغت نفقات المعارف في الموازنة العامة لسنة ١٩٢٤/١٩٢٥ (١١٨٢٠) جنيهاً استرلينياً وهي تشكل ٤,٤٪ من مجموع النفقات العامة. كما بلغت في العام التالي (١٤٣٠٤) جنيهاً استرلينياً أي بزيادة طفيفة إذ أصبحت تشكل ٥,٣٪ من مجموع النفقات العامة[٥٢].

غير أن المدارس الخاصة التي أنشأها الأهلون في القرى والمدن من كتاتيب ومدارس وطنية، بالإضافة إلى المدارس التبشيرية بلغت في تعدادها ما بلغته المدارس الرسمية. وكان لها دور مهم في النهضة التعليمية التي شهدتها البلاد فيما بعد.

أثر المؤسسات التعليمية في الحياة الفكرية

رغم ان إنشاء المعاهد بمختلف أنواعها ومراحلها في فلسطين والأردن قد جاء متأخراً عن بقية الأقطار الشامية غير أنها تمكنت من نقل المعارف والأفكار الحديثة إلى الناشئة العربية في هذين القطرين. وكانت عاملاً أساسياً من عوامل النهضة الأدبية والعلمية التي شهدها في فترة ما بين الحربين العالميتين والتي بلغت أوجها بعد الحرب العالمية الثانية. وزودت هذه المعاهد الإدارة المحلية بالموظفين الذين كان لهم باع طويل في عملية التحديث التي شهدتها البلاد. وتخرج فيها خيرة المعلمين الذين شاركوا في النهضة التربوية.

غير أن النظام التعليمي السائد خلال هذه الفترة كان قائماً على أساس التقسيم (الملي) الطائفي للسكان. ولذلك ساهم في تعميق الهوة بين المواطنين بدلاً من خلق الشعور الوطني الواحد. وخلقت المدارس الأجنبية فوضى فكرية عجيبة، لأن كلاً منها كان يعتمد النظام التربوي السائد في البلد الذي تنتسب إليه. ولذلك وجدت أنظمة تعليمية بريطانية وفرنسية وأمريكية وإيطالية وألمانية وروسية.

---

(٥١) الوكالة اليهودية: اقتصاديات فلسطين ما بين اليهود والعرب، ص ١٠٦.

(٥٥) محافظة، علي: عهد الإمارة، ص ١٥٨.

فكان هذا الخليط المتناقض عاملاً في خلق فوضى تربوية كبيرة. وقد أبقت الإدارة البريطانية العسكرية والمدنية على هذا الخليط خلال فترة الانتداب، إمعاناً منها في تمزيق الشعب الواحد، وتطبيقاً للمبدأ الاستعماري القديم: فرق تسد. صحيح أن العديد من هذه المدارس كان يدعو إلى التسامح الديني والعرفي والقومي ولكنها بسبب اختلاف أهدافها وفلسفاتها التربوية ومناهجها التدريسية لم تخدم الثقافة العربية بمقدار ما عززت الولاء للثقافات وإيديولوجيات غريبة ومتنافرة.

لقد وصف تأثير ارساليات التعليم الأجنبية هذه أحد خريجيها جرجس الخوري المقدسي فقال:

«إن إرساليات التعليم التي أتت إلينا من أوروبا وأمريكا إنما كان تأثيرها في وجهات مختلفة. فالفرق النصرانية مالت كل منها إلى ما يوافق مشربها من تلك الإرساليات، فزاد اختلاف النغمات في طنبور مشاربنا وأذواقنا... أما الرهبنية فدعاتها رهبان وراهبات قدموا بلادنا، وانشأوا فيها مدارس للصبيان والبنات، وأخذوا يستدرون لها الأموال من بلادهم. ولا ينكر ما لهؤلاء من الأيادي البيضاء في رفع شأن الإنسانية. فكم علموا من جهال، وربوا من يتامى متروكين! فلهم على الوطن ديون أدبية عظيمة. إلا أنّا مع كل هذا لا نجهل أن تعليم هؤلاء المرسلين تعليم رهبني يقصد به سوق المتعلم في طرق خصوصية لا يتأتى عنها النفع الوطني المطلوب. ولذلك ترى الممالك الكاثوليكية نفسها مثل فرنسا والنمسا أنكرت على الإكليروس أساليبهم في التعليم. واختطت لهم الحكومات أساليب جديدة، والذين رفضوها منهم أغلقت مدارسهم واستولت على أوقافهم»[٥٣].

وقد أدرك خليل السكاكيني، المربي المقدسي، خطورة المدارس الأجنبية على حياتنا الثقافية والفكرية فقال:

«هل كان ينتظر من رؤساء الدين وكلهم أجانب لا يعرفون حاجات البلاد،

---

(٥٣) المقدسي، جرجس الخوري: التعليم قديماً وحديثاً في سورية، المقتطف، المجلد ٣١ (سبتمبر ١٩٠٦) ص ٧٤٩.

ولم يجيئوا إلا لغرض ديني أن يؤسسوا في بلادنا مدارس مثل مدارسهم في بلادهم تتلقى حاجاتنا بقضائها؟ بل هل كان ينتظر من الأمّة وهي جاهلة خاملة أن تنشط لأن تتولى بنفسها جميع أمرها؟ بل لو حاولت ذلك لمنعته. لأن أمر التعليم كان محصوراً في يد الحكومة ورؤساء الدين. لم يكن في الإمكان أن تكون في البلاد مدارس غير مدارس الحكومة والمدارس الطائفية... وكانت للمدارس الطائفية صفتان: الأولى أنها كانت أجنبية وقل بين رؤسائها من عرف حاجتنا واهتم بقضائها. ولذلك قلت العناية بلغتنا واذكاء الروح الوطنية فينا، وإن أفادت البلاد من جهة أخرى مما نجمل الثناء عليه. والثانية أنها دينية. وكان المفهوم من الدين في ذلك الوقت التحزن والكآبة والزهد في الحياة وترك العمل وقمع النفس والرضى من الدنيا بالنصيب الأخس. فكان ضررها من الجهتين: من جهة كونها أجنبية، ومن جهة كونها دينية»[٥٤].

دورَ الكتب

وجد في مدن فلسطين المهمة مثل القدس وعكا ويافا وغزة ونابلس وحيفا العديد من المكتبات الخاصة والطائفية والمدرسية والتي ساهمت في اليقظة الفكرية العامة في البلاد. فقلما خلا مسجد أو دير في هذه المدن من مكتبة خاصة به، وإن كان معظم هذه الكتب ديني. وكانت مكتبات المساجد أو المدارس الإسلامية غنية بالكتب الدينية والمخطوطات القديمة التي تتناول موضوعات دينية وأدبية ولغوية مثل مكتبة المسجد الأقصى في القدس، ومكتبة جامع الجزار في عكا، ومكتبة الحرم الإبراهيمي في الخليل. ومن أشهر مكتبات الأديرة مكتبة دير الروم الأرثوذكس في القدس التي بلغ عدد مجلداتها في مطلع القرن العشرين ٢٧٣٣ مجلداً، ومكتبة دير اللاتين الدومنيكان، ومكتبة الآباء البيض، ومكتبة دير الفرنسيسكان ومكتبة دير الأرمن ومكتبة المدرسة الأمريكية، ومكتبة مدرسة الآثار الإنجليزية ومكتبة المجمع العلمي الأثري البروتستانتي وكلها في المدينة المقدسة.

أما أهم المكتبات الخاصة فالمكتبة الخالدية والتي ضمت حوالي أربعة آلاف

(٥٤) السكاكيني، خليل؛ كذا أنا يا دنيا، ص ٦١.

مجلد، وكانت مفتوحة لمن يشاء من الجمهور، والمكتبة الحنبلية ومكتبة عبدالله مخلص ومكتبة الشيخ الخليلي ومكتبة البديري وكلها في القدس، وخزانة المفتي في غزة، والخزانة الإسلامية وخزانة أبي نبوت في يافا، وخزانة دير الكرمل في حيفا، وخزانة آل الجوهري وخزانة آل صوان في نابلس، وخزانة آل النحوي في صفد[٥٥].

الأندية والجمعيات الأدبية

رافق هذه النهضة التعليمية العامة إنشاء الجمعيات والنوادي الأدبية، التي كان لها دور ثقافي وسياسي واجتماعي مهم. وأشهر جمعيات القدس الأدبية:

- جمعية القدس الأدبية التي تأسست عام ١٨٤٩ على يد القنصل البريطاني في المدينة المقدسة. وكانت تعنى بالأبحاث الأدبية والعلمية والآثار والإحصاءات والحياة الاقتصادية في فلسطين، كما أولت تاريخ البلاد وأديانها وعاداتها المحلية اهتمامها الكبير. غير أن عضويتها اقتصرت على المسيحيين البروتستانت. وهي أقدم الجمعيات الأدبية في البلاد.

- جمعية سوسنة صهيون: انشئت في القدس عام ١٨٧٧ كفرع لجمعية اتحاد الشبان المسيحيين في لندن.

- جمعية الغيرة المسيحية لشبان الروم الأرثوذكس[٥٦].

- جمعية الآداب الزاهرة: تأسست عام ١٨٩٨ برئاسة داود صيداوي. ومن أعضائها عيسى العيسى، وفرج فرج الله، وافتيم مشبك، وشبلي الجمل، وجميل الخالدي، ونخله ترزي، وخليل السكاكيني.

وأشهر جمعيات عكا الأدبية: جمعية شعبة المعارف، والجمعية الأدبية الخيرية وجمعية مار منصور. وأنشئت في حيفا الجمعية الإسلامية برئاسة مفتيها محمد مراد

(٥٥) زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٤، ص ١٢٤ - ١٢٥، كرد علي، محمد: خطط الشام، ج ٦، ص ١٩٥ - ١٩٧.

(٥٦) Tibawi, A.L.British Interests in Palestine, P. 125

عام ١٩١٨، كما أنشئت في العام نفسه الجمعية المسيحية برئاسة فؤاد سعد وكان لهاتين الجمعيتين دور بارز في عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث في حيفا في ١٣ كانون الأول ١٩٢٠. ومن جمعيات حيفا الأدبية جمعية نهضة فتاة الروم الكاثوليك التي أنشئت قبيل الحرب العالمية الأولى وتعطلت أعمالها أثناء الحرب ثم أعيد إنشاؤها في شباط ١٩١٩ باسم «جمعية الشبيبة المسيحية»، برئاسة أديب جدع، وجمعية السيدات المسيحية، وجمعية تهذيب الفتاة الإسلامية، وجمعية النهضة الاقتصادية العربية التي أنشئت عام ١٩٢٢ وكان من أبرز أعضائها نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل ووديع البستاني والقس صالح سابا ومحمد علي التميمي وعبدالله مخلص ورشدي الشوا وتوافيل بوتاجي وميشيل جرجس الخوري. وقد أسست هذه الجمعية «حلقة الأدب» في ٢٨ نيسان ١٩٢٢ بهدف تعزيز اللغة العربية وتشجيع فن الخطابة والنقد الأدبي والعناية بالتعليم. ولم تقبل في عضويتها سوى حملة الأقلام والخطباء والأدباء فكان من أعضائها توفيق زيبق ورفيق التميمي والدكتور قيصر الخوري وأديب الجدع ويوسف الخطيب وعبد الرحمن رمضان وجميل البحري[٥٧]. وأنشئت في يافا جمعية ترقي الأداب الوطنية عام ١٩٠٨ بهدف تهذيب الشبيبة وترقيتها.

أما النوادي فأهمها: النادي العربي في القدس الذي انشىء عام ١٩٢٤، والنادي القومي في يافا، والنادي الأرثوذكسي في غزة، والنادي الأدبي في الناصرة، ونادي الشبيبة التلحمية في بيت لحم[٥٨].

---

(٥٧) ياغي، عبد الرحمن: **حياة الأدب الفلسطيني الحديث**، ص ٩٥ - ٩٧. السكاكيني، خليل، **كذا أنا يا دنيا**، ص ٤٨.

(٥٨) ياغي، ص ٩٨.

الفصل الثاني

حركة الطباعة والترجمة والصحافة

الطباعة

تأخر دخول الطباعة إلى الدولة العثمانية، مع أن المطابع العربية وجدت في أوروبا منذ القرن السادس عشر. وكان السلاطين العثمانيون يخشون تحريف الكتب الدينية إذا ما طبعت. ولعل هذا الاعتقاد هو الذي حمل السلطان بايزيد الثاني إلى تحذير رعاياه من اتخاذ المطبوعات عام ١٤٨٥ م. وسار بقية السلاطين على نهجه. وكان أول من أدخل مطبعة عربية إلى دار الخلافة إبراهيم متفرقة في مطلع القرن الثامن عشر. وقد أفتى له شيخ الإسلام بطبع كافة الكتب باستثناء القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والتفسير والكلام، وذلك في عام ١١٢٩ هـ/١٧١٢ م. أما أولى المطابع التي دخلت الولايات العربية فكانت في دير قزحيا في لبنان عام ١٦٠١ م، وتلتها مطبعة دير مار يوحنا بالشوير عام ١٧٣٣ م[١].

أما بالنسبة لفلسطين والأردن فيمكننا أن نصنف المطابع التي دخلتها إلى ثلاثة أصناف هي: مطابع الأديرة، المطابع الخاصة، والمطابع اليهودية.

---

(١) المحافظة، علي: **الإتجاهات الفكرية عند العرب**، ص ٢٧.

١ ـ مطابع الأديرة

مطبعة الآباء الفرنسيسكان

هي أول مطبعة دخلت فلسطين. أنشئت في القدس عام ١٨٤٧، وكان أول مدير لها الأب سبستيان فرتخنر S. Frochtner النمسوي الأصل. كانت تطبع الكتب العربية والتركية والأرمنية والعبرية واليونانية بالإضافة إلى اللغات الأوروبية الحديثة. وبلغ مجموع ما طبعته من كتب بهذه اللغات نحو مئة وعشرين كتاباً حتى عام ١٩٠٢. أما معظم الكتب المطبوعة فدينية مثل: الأناجيل والرسائل لكل آحاد السنة وأعيادها، ولأيام الصوم حسب الطقوس اللاتينية، والتعليم المسيحي، واللاهوت الأدبي، وارتيابات دينية بخصوص الشيعة البروتستانتية، والإيمان الصحيح في السيد المسيح، والتأملات اليومية للقديس الفونس ليكوري، وطريقة خشوعية لاستماع القداس الإلهي، وصلوات خشوعية مفيدة لعيادة المرضى، وتحفة الزهور الزكية للنفوس العابدة المسيحية، ومرشد المسيحي للأب بولس سنيري، وأمجاد سيدتنا مريم البتول للقديس الفونس ليكوري، وخلاصة الصلوات وجواهر الابتهالات، وروضة الألحان وتسلية الجنان، ومزامير التوبة السبعة، والروضة الروحية للعيال المسيحية، وإرشاد الأحداث للأب غوبينيت، وسيرة القديس فرنسيس، وملخص حياة القديس لويس غنزاغا اليسوعي.

وقامت المطبعة أيضاً بطباعة العديد من الكتب المدرسية مثل: تعليم القراءة لإفادة الأحداث، ومبادىء القراءة العربية لإبراهيم يزبك، والأجرومية مع تفسير وإعراب الأمثلة، والخلاصة الجلية في قواعد اللغة العربية للخوري يوحنا خليل، والأجوبة الجلية في الأصول النحوية للأب لاون الحلبي، وقاموس اللغتين الإيطالية والعربية لأحد الآباء الفرنسيسكان، وقاموس فرنسي تركي وفرنسي عربي، ومجموعة أزهار من ربى الأشعار للمعلم الياس فرج باسيل، ورغبة السائل في إنشاء الرسائل للمؤلف نفسه، ومتن البردة للعارف البوصيري مع ترجمتها إلى الفرنسية، وشذرات الأدب من منتخبات كتب العرب «جزءان»، ودليل الصواب في أصول الحساب، وضياء الألباب في علم الحساب للأب يواكيم الدعبول الناصري، وكتاب كشف

النقاب عن مسائل ضياء الألباب للأخ ديدكس سنان الحلبي، وتاريخ الحروب الصليبية للمؤرخ الفرنسي دي مونرون تعريب مكسيموس مظلوم، ومختصر تاريخ الأرمن للقس انطون خانجي، ومختصر التاريخ الكنائسي، ودراري الرشد في برج الأسد (رسائل البابا لاون الثالث عشر) تعريب المطران بولس عواد، ودليل الزوار على الأماكن المقدسة للمعلم الياس فرج باسيل.

وكانت مناشير الباباوات وبطاركة القدس اللاتين تطبع في هذه المطبعة، ناهيك عن الكتب الأخرى التي طبعت باللغات الأوروبية الحديثة[٢].

مطبعة دير الروم الأرثوذكس

انشأت هذه المطبعة جمعية القبر المقدس اليونانية في دار البطريركية في القدس عام ١٨٤٩. وتولى إدارتها يوحنا لازاريدس ثم الأرشمندريت سبيريدون صروف. وبلغ مجموع ما طبعته من الكتب العربية حتى عام ١٨٨٣ (٢٦) كتاباً، كما طبعت أربعين كتاباً باللغة اليونانية في الفترة نفسها. أما الكتب المطبوعة فدينية ومدرسية. وأهم الكتب الدينية: الزبور الإلهي، والأكطويخس للقديس يوحنا الدمشقي، والأورولوجيون أي السواعي الكبير المشتمل على الفروض الكنائسية، ومختصر في خدمة المساء والسحر، وترتيب الجناز، وتنوير المشتاق لمبحث الانبثاق، والبراهين الجلية على أن الحقيقة في الكنيسة الأرثوذكسية، والفريضة السنية في الواجبات الكاهنية للشماس غريغوريوس غوغس تعريب أسبيريدون صروف، ومرشد الأولاد لفرنسيسكو سواقيواس تعريب مينا يوسف دباس اليافوي، والمقابلة المضاعفة للمعلم اسكندر استورزا، وخدمة الأسرار المقدسة الإلهية، والتعليم المسيحي لاسبيريدون صروف، والجواهر الفخرية على العلة الانبثاقية لباسيلي فخر الدمياطي، وكتاب الرسائل الذي يقرأ على مدار السنة، والإنجيل الشريف الإلهي، والمنهاج في واجبات الأزواج تعريب جراسيموس يارد، ومختصر في الزيجات، وسير الأباء يوحنا الكوفي واكسينفون، والدليل الصريح على ملك المسيح، وبهجة الفؤاد في عيد الميلاد،

(٢) شيخو، لويس: تاريخ فن الطباعة في المشرق، المشرق السنة ٥ (١٥/١/١٩٠٢). ص ٦٩ ـ ٧٤، مكاريوس، شاهين، المقتطف (١٨٨٣) ص ٤٧٣.

والـدرة النفيسة في شـرح حال الكنيسـة، والزهـرة النضراء في نيـاح العذراء، وبهجـة الفؤاد في تفسير أناجيل الآحاد تعريب الخوري يوحنا حزيون.

أما الكتب المدرسية فهي: رسالة لتعليم الهجاء ومختصر في علم الحساب.

المطبعة الإنكليزية

انشأتها جمعية المرسلين الكنسيـة (C.M.S) عام ١٨٧٩ في القـدس. وبلغ مجموع ما طبعته من كتب عربية حتى عام ١٨٨٣ حوالي اثنين وعشرين كتاباً.

مطبعة دير الأرمن

أنشئت عـام ١٨٤٨ في دير الأرمن الغريغوريين في القدس. ولم تـطبـع سـوى الكتب الأرمنية والتركية[٣].

٢ ـ المطابع الخاصة

انتشـرت المطـابع الخاصـة في فلسطين بسبب الحـاجـة إليهـا. فبينـما اقتصـرت مطابع الأديرة على طباعة الكتب الدينية والمدرسية التي تـوزعها عـلى المدارس التـابعة لها اهتمت المطابع الخاصة بطباعة الصحف والمجلات والكتب الأدبية ووجـدت هذه المطابع في مدن ثلاث هي القدس ويافـا وحيفا. ففي القـدس تأسست مـطبعة مبـارك لاسفو ومطبعة دوميان وأخوانه عام ١٨٩٢، ومطبعـة جورج حبيب عـام ١٨٩٤ والتي كانت تطبع جريـدة القدس منـذ عام ١٩٠٨، ومـطبعة بنـدلي مشحور التي استمـرت حتى عهد الانتداب وكانت تعتبر من أجمل مطابع القدس وأجـودها، ومـطبعـة جـريدة النجاح، ومطبعة إيليّا زكا صاحب جريدة النفير التي نقلت في ما بعد إلى حيفا.

أمـا في يافـا فقد وجـدت مطـابع جريـدتي فلسطين والأخبار ومطبعـة جـريـدة «صوت العثمانية» ومطبعة الونزو التي كانت تطبع جريدة الترقي.

---

(٣) المصدر السابق، ص ٧٤ ـ ٧٥.
يهوشع، يعقوب: تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني، ص ٧.

وفي حيفـا وجدت مـطبعة الكـرمـل لصـاحبهـا نجيب نصـار صـاحب جـريـدة الكرمل[٤].

٣ ـ المطابع اليهودية

اقتصرت هذه المطابع عـلى طباعـة الكتب العبريـة. وأقدمهـا مطبعـة نسيم باق التي أنشئت عـام ١٨٣٠، وتلاهـا مطبعـة جمعية لنـدن لانتشـار الإنجيـل بـين اليهـود (L.J.S) عـام ١٨٤٨، ومطبعـة دافيـد سـاسـون عـام ١٨٥٠، ومـطبعـة شـولمن عـام ١٨٦٠، ومطبعة اسحق كوشينا عام ١٨٦٥، ومطبعـة مزمكن عـام ١٨٧٠، ومطبعـة حاي جاجين عام ١٨٨٣، ومطبعة لنكس، ومـطبعة ابن يهـودا عام ١٨٩٠، وجميعهـا في القدس[٥].

وكـان لهذه المطـابع أثرهـا المهم في النهضـة الفكريـة التي شهدتهـا البـلاد. كـما كانت عاملاً مؤثراً في نشر الثقافة والوعي بين المواطنين.

الترجمة

أتـاحت المدارس التبشيـرية في فلسـطين لخريجيهـا الإلمام بـالعديـد من اللغـات الأوروبيـة الحديثـة، واجادتهـا، وبخاصـة أولئك الـذين أكملوا دراساتهم العليـا في جـامعات أوروبيـة. وأقبل هؤلاء عـلى نقل مـا تـوصـل إليـه الفكـر الغـربي من علوم ونظريات وآراء، وترجمة ما اعتقدوا أنه مناسب للذوق العربي من آداب وعلوم إنسانية. وسـاهمت ترجمـاتهم في النهضـة الفكـرية في قـطرهم وفي بقيـة الأقـطار العربيـة. وكـانت حـركـة التـرجمة في فلسـطين ذات اتصـال وثيق بحـركـة التـرجمـة العـامـة في بـلاد الشـام ومصر متأثرة بها ومؤثرة فيها.

بـدأت الترجمـة بالكتب الـدينيـة. فمن هـذه الكتب التي نقلت عن اليـونـانيـة وطبعت في مطبعة القبر المقدس (دير الروم الأرثـوذكس) الكتب التاليـة: الأكطويخس

---

(٤) يهوشع، ص ٩ ـ ١٣.
(٥) شيخو، ص ٧٦.

للقديس يوحنا الدمشقي، وهو يشتمل على الألحان الثمانية للقيامة (طبع عام ١٨٥٠)، والتريو ديون الذي يتضمن ترتيب الصوم (١٨٥٠ م)، والأورولوجيون أي السواعي الكبير المشتمل على الفروض الكنائسية (١٨٥١ م)، والبند يكستاريون أي الخمسيني ويتضمن ترتيب الصلوات والطقوس من أحد الفصح إلى أحد جميع القديسين (١٨٥٤م)، والفريضة السَّنية في الواجبات الكاهنية للشماس غريغوريوس غوغس تعريب اسبيريدون صروف (١٨٦٠م)، ومرشد الأولاد لفرنسيسكو سوافيواس تعريب مينا يوسف دباس اليافوي (١٨٦٠م)، والمنهاج في واجبات الأزواج تعريب جراسيموس يارد (١٨٦٤م)، والدليل الصريح على ملك المسيح لاينوكنديوس مطران موسكو تعريب الأرشمندريت جراسيموس يارد (١٨٨٦)، وبهجة الفؤاد في تفسير أناجيل الأحاد لنيكفورس ثيوطوكي مطران استراخان تعريب الخوري يوحنا حزيون (١٨٩٨). وقد أعيدت طباعة هذه الكتب أكثر من مرة.

ومن الكتب الدينية التي ترجمت عن اللاتينية والفرنسية والإيطالية وطبعت في مطبعة دير الرهبان الفرنسيسكانيين: مختصر التعليم المسيحي عرب عن الإيطالية وطبع عام ١٨٤٧، وكتاب الاستعداد للموت للقديس الفونس ليكوري تعريب مكسيموس مظلوم (١٨٥١)، ومسبحة سبعة أفراح مريم العذراء تعريب بولس بليط الحلبي (١٨٥١)، والشهر المريمي للأب موزارلي تعريب القس ليباوس المتيني (١٨٥٣)، واللاهوت الأدبي للقديس الفونس ليكوري تعريب الأب لويس أومينيا (١٨٥٨)، واحتقار أباطيل العالم لدياكوستلا تعريب الأبوين رافائيل فنتايوس وميخائيل النصو (١٨٦٠)، وأجوبة مختصرة في بعض الاعتراضات على الديانة الكاثوليكية للأنبادي سيغور، تعريب لودفيكوس بيافي (١٨٦٣)، وارتيابات دينية بخصوص الشيعة البروتستانتية تعريب الخوري سمعان اسحق القدسي (١٨٦٤)، ورياضة شهر تشرين الثاني لاسعاف النفوس المطهرية تعريب بولس بليط الحلبي (١٨٦٤)، وأمجاد سيدتنا مريم البتول للقديس الفونس ليكوري تعريب مكسيموس مظلوم (١٨٦٧)، وباب المحبة، وهو مجموعة صلوات وتأملات لأحد الآباء الفرنسيسكان تعريب الأب رفائيل فنتايول، ورئاسة بطرس وخلفائه على الكنيسة رداً على نشائيل خيخا لمنصور براكو تعريب الخوري سمعان اسحق القدسي (١٨٧٠)، والتعليم المسيحي

للبطريرك منصور براكو عن الفرنسية (١٨٨١)، سيرة القديس فرنسيس للقديس بونا ونتورا تعريب الأب لاونردوس النحو الطرابلسي (١٨٨٢)، والدرة اليتيمة للنفوس العابدة الكريمة وهي صلوات خشوعية ترجمة الخوري ميخائيل كرم (١٨٩٠)، وفرض أسبوع الآلام من أحد الشعانين إلى الأحد الجديد تعريب خليل جريس الخوري القدسي (١٨٩٢)، وزهرة الأسقفية أو سيرة البطريرك منصور براكو تعريب الخوري غطاس (١٨٩٤)، ومناط الرغائب في تاريخ قديس العجائب لماري انطونيوس البادوي تعريب الأب لاونردوس النحو الطرابلسي (١٨٩٥)، والاقتداء بالمسيح لتوما الكمبيسي ترجمة الأب سالستينوس الكرملي وفرنسيس ماريا فرًّا (١٨٩٩)[٦].

ومن الكتب التاريخية التي نقلت إلى العربية تاريخ الحروب الصليبية للمؤرخ الفرنسي دي مونرون تعريب مكسيموس مظلوم (١٨٦٥).

وقد اتسمت ترجمة هذه الكتب في طبعاتها الأولى بالركاكة في التعبير والأخطاء اللغوية والاملائية. أما أسلوب المترجمين فلا يختلف في أدائه عن أسلوب الأداء والكتابة في ذلك العصر. وفيما يلي أنموذج من ترجمة كتاب «مختصر تاريخ التوراة لأجل الشبان» تأليف المعلم شميد[٧]:

في عظة يسوع على الجبل:

«أن أحد الأيام التقى بيسوع جمع غفير من الشعب، وكان مجتمعاً حوله. فيسوع حينئذ صعد إلى محل عال وجلس فوقه. واقترب إليه تلاميذه من الجانب الواحد والآخر. ولما كانت الجموع أسفل محدقة به بسكوت سامي[٨] فابتدى[٩] عند ذلك يعلمهم قايلاً[١٠] هكذا: طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السما[١١].

---

(٦) شيخو، ص ٧٠ ـ ٧٥.

(٧) مختصر تاريخ التوراة لأجل الشبان، ص ١١٨.

(٨) سام.

(٩) فابتدأ.

(١٠) قائلاً.

(١١) السماء.

طوبى للحزانى فإنهم يعزّون. طوبى للمتواضعين فإنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش من أجل البر فإنهم لا يشبعون. طوبى للرحما[١٢] فإنهم يرحمون. طوبى للنقية قلوبهم فإنهم يعاينون الله. طوبى لفاعلي السلام فإنهم أبنا[١٣] الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر فإن لهم ملكوت السماوات».

ويلاحظ أن الكتب الدينية المترجمة عن اليونانية أسلم لغة وأجود أسلوباً. وفي ما يلي أنموذج من ترجمة كتاب الزبور الإلهي:

«من المزمور الثامن والسبعين:

«اللهم إن الأمم قد دخلوا إلى ميراثك، ونجّسوا هيكل قدسك. جعلوا أورشليم مثل منظرة فاكهة. جعلوا جثث عبيدك طعاماً لطيور السماء. ولحوم أبرارك لوحوش الأرض. اهرقوا دماءهم مثل الماء حول أورشليم. ولم يكن من يدفن. فصرنا عاراً لجيراننا، وهزءاً وسخرية للذين حولنا. إلى متى يا الله تسخط علينا إلى الانقضاء. وتتقد كالنار غيرتك. ادفق رجزك على الأمم الذين لا يعرفونك، وعلى الممالك الذين لا يدعون باسمك لأنهم قد أكلوا يعقوب وخربوا موضعه. لا تذكر لنا ذنوبنا القديمة سريعاً فلتدركنا رافتك يا رب لأننا قد افتقرنا جداً...»[١٤].

غير أن حركة الترجمة في فلسطين لم تزدهر إلا بعد ظهور الجيل الجديد الذي تعلم في المدارس الأجنبية الحديثة. ولعل أبرز هؤلاء القاص خليل بيدس الذي أتقن اللغة الروسية وألّم بالأدب الروسي الماماً وافياً وترجم العديد من القصص الروسية إلى العربية مثل: «ابنة القبطان» التي نشرت في بيروت عام ١٨٩٨، و«الطبيب الحاذق» (١٨٩٨) و«القوقازي الولهان» (١٨٩٩) و«شقاء الملوك» (١٩٠٨) و«أهوال الاستبداد» (١٩٠٩) و«هنري الثامن» التي نشرت في القدس عام ١٩١٣، و«الحسناء المتنكرة» (١٩١٩) و«العرش والحب» (١٩١٩)،

(١٢) للرحماء.

(١٣) أبناء.

(١٤) **الزبور الإلهي لداود النبي والملك**، الطبعة الثالثة، مطبعة القبر المقدس البطريركية، القدس، ١٨٦٦، ص ١٠٧ - ١٠٨.

و«الوارث» (١٩١٩). كما ترجم كتاب «الروضة المؤنسة في وصف الأرض المقدسة» الذي نشر عام ١٨٩٩. واشتهر رشيد الدجاني في ترجمة الروايات التاريخية مثل «ابنة الكاهن»، وبندلي الجوزي الذي نقل القصص والأبحاث التاريخية عن الروسية مثل البحث التاريخي «أمير أموي من سلالة مسيحية» لبارتولد عضو اكاديمية لينغراد العلمية[١٥]. واشتهر جميل البحري بنشر الروايات والأعمال التاريخية المترجمة في مجلته «الزهرة»، وانطون بلان أحد أساتذة دار المعلمين الروسية في الناصرة الذي ترجم عن الروسية رواية «في سبيل الحب» والتي نشرت عام ١٩١٢، ورواية «سياحة في عالم الخيال»، وخواطر من كتاب «طريق الحياة» لتولستوي. ومنهم نجاتي صدقي الذي قدم دراستين أحداهما عن الشاعر الروسي بوشكين والثانية عن الروائي الروسي تشيكوف، وأحمد شاكر الكرمي الذي كان يتقن الإنكليزية وله إلمام واسع بالأدب الإنكليزي. فقد ترجم قصائد «فلسفة الحب» و«الحرية» و«التقلب» من بواكير قصائد الشاعر الإنكليزي شيلي. ونشرت هذه القصائد في كتاب «الكرميات» الذي صدر عام ١٩٢١. ونقل عن الإنكليزية «الفلسفة الشرقية» للكاتب الفرنسي برناردين دوسان بيير، وقصة «ما أعلاه» للقاص الفرنسي غي دوموبا سان، و«أسطورة الزهرة» من كتاب الصور لمارك توين، ورواية «مي أو الخريف والربيع»، للشاعر الإنكليزي بوب، وقصة «خالد» للروائي الأمريكي ماريون كروفورد، والعديد من قصص أوسكار وايلد وقصائد للشاعر الهندي رابندرات طاغور[١٦].

وقام عجاج نويهض بترجمة كتاب «حاضر العالم الإسلامي» تأليف لوثروب ستودارد الذي نشر في القاهرة عام ١٩٢٤. كما تضمن كتاب روحي الخالدي «فيكتور هوكو وعلم الأدب عند الإفرنج والعرب» ترجمات عدة من قصائد الأديب الفرنسي فيكتور هوكو V. Hugo. ومن الذين عملوا في ميدان الترجمة في هذه الفترة سليمان بولس، وإبراهيم جابر، وعبد الكريم سمعان، ولطف الله الخوري صراف، وكلثوم نصر عودة وفارس نقولا مدور[١٧].

(١٥) الجوزي، بندلي: أميراموي من سلالة مسيحية، **المقتطف** المجلد ٧٩ (أكتوبر ١٩٣١) ص ٢٠ - ٢٨.

(١٦) الكرمي، عبد الكريم: **أحمد شاكر الكرمي**، ص ١٧٧.

(١٧) ياغي، عبد الرحمن؛ **حياة الأدب الفلسطيني**، ص ١٠٩ - ١١٠.

واتصفت ترجمات هذه الفئة من الأدباء بسلامة التعبير ودقة المعنى والحفاظ على الروح الأدبية، وحرية التصرف في أغلب الأحيان. يقول أحمد شاكر الكرمي في هذا الصدد: «لقد قل بين الذين ترجموا كتباً أجنبية من الإنكليزية من استطاعوا أن يحافظوا على اللفظ والمعنى وأن ينجحوا في تأديتها تأدية تامة لا يشوبها نقص ولا اخلال. . . ولا تكون الترجمة جديرة بأن تسمى ترجمة إلا إذا كانت كما قال النقادة الكبير ماتيو ارنولد: تترك في نفس القارىء الذكي من الأثر ما يتركه أصلها سواء بسواء»[18].

ونقتطف في ما يلي انموذجاً من ترجمة قصيدة الينور رينارد ترجمة أحمد شاكر الكرمي بعنوان «ليلة القدر»:

«حينما غاض معين سروري وإبتهاجي،

وبكيتُ حتى احمرت عيناي ونزفت دما

وأضنتني الوحدة وأمضني اليأس

طلعت علي باسم الثغر طلق المحيا

ثم أدنيت وجهك من وجهي

وطوقتني بذراعيك وتوجت رأسي بقبلة

فانطلقت نفسي من عقال احزانها

وكانت تلك ليلة القدر.

لم أسمع منك كلمة ولا حرفاً
لكنك دنوت مني والتقى جسم بجسم
فسرت نار الغرام من روح إلى روح
ولم تك أنت إلا صورة، ألف شوقي الملح

(١٨) الكرمي، عبد الكريم: **أحمد شاكر الكرمي**، ص ١٦٧ - ١٦٨.

أجزاءها من ذرات الهواء
أجل كان ذلك حلماً هيج أشجاني
ثم انقضى، بعد أن زارني في ليلة القدر»[19].

ومن ترجمة روحي الخالدي نقتطف هذه القصيدة من نظم فيكتور هوكو بعنوان «الدعاء للجميع»:

«يا بنيتي قومي للصلاة، أنظري قد عسعس الليل، ونزل الضباب على الأفق، وطلع النجم من وراء السحاب كأنه دينار، انصتي لم يبق إلا مركبة تكرّ في الظلام على بعد. والكل دخل ليستريح. والشجرة التي على الطريق نفضت غبار النهار بريح المساء.

«زحزح الشفق عن النجوم ستار الليل، وفجر كل نجم كالشرارة الحامية. ورق المغرب حاشيته الحمراء، وفضض الليل في الدجى وجه الماء. وإمتزجت أقلام المحراث بالمسالك وبما حولها من الشوك. واختفى الجميع عن العيان والتبست الطريق على ابن السبيل.

«النهار للأذى والتعب والبغض، فلنشرع في الصلاة حيث دخل الليل. ما أصفى الليل وما أوقره! الراعي يعود والماشية تجأر، والريح تعزف في نوافذ البرج، والمياه تركد في المستنقعات، والجميع يتألم ويشكو، لأن الطبيعة من شدة تعبها أمست في احتياج للنوم والصلاة والحب»[20].

الصحافة

دخلت الصحافة فلسطين متأخرة بالنسبة إلى غيرها من الأقطار الشامية. فقد صدرت فيها أول صحيفة عام ١٨٧٦، أي في العام الذي صدر فيه الدستور العثماني الأول، وهي صحيفة «القدس الشريف» الناطقة بلسان المتصرفية. وفي السنة نفسها أصدر الشيخ علي الريماوي جريدة «الغزال» الشهرية في المدينة

(١٩) المصدر السابق، ص ١٧٦ - ١٧٧.
(٢٠) الخالدي، روحي: **فيكتور هوكو وعلم الأدب عند الإفرنج والعرب**، ص ٢١٣ - ٢١٤.

المقدسة. غير أن هذه الصحيفة الأخيرة لم تصدر بانتظام ولمدة طويلة. وبقيت البلاد خالية من الصحف المحلية نيفاً وثلاثين سنة، واكتفت بما يصل إليها من صحف دمشق وبيروت والقاهرة والإسكندرية والآستانة.

ومع الإنقلاب العثماني وعودة الدستور عام ١٩٠٨، شهدت البلاد نهضة صحفية حقيقية. فقد صدر بين ذلك العام وزوال الحكم العثماني عام ١٩١٨ قرابة ثلاثين صحيفة. وانحصرت هذه الصحف في ثلاث مدن هي القدس ويافا وحيفا. وكانت صحف يافا متفوقة على غيرها من حيث سعة الانتشار والخبرة واستقطاب خيرة الكتّاب. وبقيت يافا قلب الصحافة العربية النابض في فلسطين طوال العهدين العثماني والبريطاني. ورغم الرقابة العثمانية الشديدة التي كان يمارسها أول الأمر مدير المعارف ثم مجلس المعارف في كل لواء، فقد كانت بعض الصحف توجه نقداً شديداً لسياسة الحكومة العثمانية. وحملت لواء النقد والمعارضة العربية في فلسطين صحف «المنادي» و«الكرمل» و«فلسطين». فقد انتقدت جريدة «المنادي» سياسة الحكومة التعليمية وجاء في عددها الصادر في ١١ حزيران ١٩١٢ مقالة بعنوان «التعليم الإجباري»:

«إذا حق لنا أن نلوم الحكومة الدستورية بذنب أذنبته أو خطأ أخطأته فليس أجدر بأن تلام عليه كإهمالها التعليم الاجباري المجاني كما يقضي به القانون الأساسي. وإننا لا نبالغ إذا قلنا إننا لا نحترم ذلك القانون العظيم لمادة فيه أجل وأعظم من تلك المادة التي تقول ان التعليم الإبتدائي في البلاد إجباري بلغة البلاد لكل طبقات الشعب».

أما صحيفة «فلسطين» فقد استعرضت بعد مرور ستة شهور على صدورها الموضوعات التي عالجتها وشكت من ضعف الإستجابة الشعبية لما كانت تثيره من موضوعات. وجاء في تلك الإفتتاحية:

«ومن جملة المواضيع التي طرقنا بابها الأمن العام، وانتخابات البلدية، وإصلاح المحاكم، وجباية الأعشار، وتجارة البرتقال، وزراعة القطن، إلى غير ذلك من المواضيع العمرانية التي نحن في أشد الحاجة إليها. وربما كنا في بعض نظرياتنا

على غير الصواب، ولكننا لم نجد لسوء الحظ من يقوم من المواطنين لمساجلتنا والأخذ والرد معنا، وإظهار بواطن الوهن في آرائنا. وقد كنا أحياناً نستثير في كتاباتنا الرأي العام لنرى درجة قوته فينا. ولكن من المحزن أننا لم نر على وجوده دليلاً في هذا اللواء. وأكبر شاهد مقالتنا التي عنوانها «فليثبت الشعب وجوده» فإننا قلنا هناك ماهو بحرفه الواحد: لاحظنا بأن أهالي بلدتنا قد استولى على هممهم الفتور وسرى الخمول إلى نفوسهم، وعشعش الجبن في قلوبهم، فلا هم يعارضون ولا هم يتظاهرون، ولا هم لنا على الأقل يكتبون..».

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى دار نقاش طويل على صفحات الجرائد العربية في فلسطين حول إلى أي من الكتلتين ينبغي للدولة العثمانية أن تنضم: إلى دول الوسط (المانيا والنمسا) أم إلى الدول الحليفة (بريطانيا وفرنسا وروسيا). وذهبت جريدة فلسطين إلى أن على الدولة العثمانية أن تتخذ موقف الحياد في هذه الحرب، وذلك لأن زوالها وشيك وقد يكون فرصة تنتهزها الدول العظمى للتسلط على بلدان الشرق. وهاجمت الفئات العربية التي تؤيد هذه الكتلة أو تلك من الدول الأجنبية والتي تعتقد أن الحكم الأجنبي سيؤدي إلى ازدهار البلاد. ولفتت الأنظار إلى أحوال الهند السيئة تحت الحكم البريطاني. ومع ذلك فقد فتحت «فلسطين» صفحاتها لأنصار دول الوسط ولأنصار الدول الحليفة. ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب في الرابع من تشرين الثاني عام ١٩١٤، أسرعت إلى إغلاق هذه الصحيفة التي صدر آخر أعدادها في ١٢ تشرين الثاني عام ١٩١٤.

أما صحيفة «الكرمل» فقد اتخذت موقفاً مخالفاً لموقف «فلسطين» ودعت الدولة العثمانية إلى التحالف مع بريطانيا، بحجة أن الشواطىء العثمانية مهددة بالقصف من الأسطول البريطاني. فما كان من السلطات العثمانية إلا أن أغلقت الصحيفة، وهرب صاحبها نجيب نصار إلى إحدى القبائل البدوية، ثم ألقت عليه القبض وقدمته إلى المحكمة التي حكمت ببراءته.

ولما ارتفعت رايات الثورة العربية في الحجاز تتبعتها صحف فلسطين وبخاصة جريدة «الكوكب» باهتمام زائد، ونشرت أخبارها نقلاً عن جريدة «القبلة» لسان حال الثورة التي كانت تصل بصورة سرية إلى فلسطين.

وتوقف معظم الصحف العربية طوال سنوات الحرب عن الصدور إثر فرض الأحكام العرفية في البلاد، ولكنها عادت إلى الصدور بعد الإحتلال البريطاني. وظلت الصحافة مرآة تعكس الإتجاهات السياسية والإجتماعية بين السكان. فقد اختلف موقفها من الإحتلال البريطاني: إذ أيد بعضها هذا الاحتلال وصب جام حقده على الحكم العثماني البائد، ووقف بعضها الآخر موقف الحذر واليقظة. فقد نشر الشيخ علي الريماوي قصيدة في ملحق «جريدة فلسطين» الرسمية التي كان يصدرها الجيش البريطاني في بلاد العدو المحتلة بمناسبة مرور العام الأول على الاحتلال البريطاني للمدينة المقدسة، في ٢٦ كانون الثاني ١٩١٨، يمجد فيها الإنكليز، حلفاء العرب. ومنها هذه الأبيات:

وهذا نهار فيه حلت قيودنا … وقد نشط الأقدام وانطلق الفكر
وحل محل الظلم عدل محبب … وقد لاح من بعد الظلام لنا فجر
فكل ضمير بالهناء ممتع … وكل يراع في مهارقه حر
بريطانيا العظمى وأنت شهيرة … وعندك طبعاً ـ يحمل الحمد والشكر
عهدناك للمظلوم أعظم ناصر … فمن أجل هذا جاءك الفوز والنصر
عهدناك للإسلام اكرم دولة … عهدناك والعمران دينك والبر[٢١].

ونشرت «الكوكب» قصيدة طويلة لاسكندر الخوري البيتجالي يهجو فيها الأتراك ويرحب بالإنكليز بعنوان «رويداً أيها المدفع» نقتطف منها هذه الأبيات:

حكمتم في أراضينا … وجرتم في أهالينا
وعاكستم مساعينا … وما انصفتمو فينا
لذاك لقربكم نفزع
بني التاميز قد فزتم … وبالإنقاذ قد جئتم
بلاد القدس شرفتم … فأهلاً أينما بتم
وسهلاً فيكم أجمع[٢٢]

(٢١) يهوشع، يعقوب: تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، ص ٧٧.
(٢٢) المصدر السابق، ص ١٥٧.

وكانت الصحف يقظة واعية للمخطط الصهيوني في البلاد، فنبهت الحكومة العثمانية لهذا الخطر الداهم ودعتها إلى الأخذ بأسباب الحيطة والحذر وحمّلت جرائد «المنادي» و«فلسطين» و«الكرمل» الحكومة العثمانية مسؤولية تقديم العون للهجرة اليهودية إلى فلسطين، ودعم الحركة الصهيونية ـ وشنت حملات عنيفة على الاستيطان اليهودي وأساليبه المختلفة من مشاريع زراعية وعمرانية وصحية. وأثارت حفيظة اليهود الشرقيين الذين أصدروا صحيفة «صوت العثمانية» في يافا في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩١٤ للرد على الصحف العربية الوطنية وتهدئة خواطر العرب. غير أن صاحبها الدكتور شمعون مويال[٢٣] تورط في خلاف مع صحيفة «فلسطين» ومع الحكومة العثمانية ورفعت عليه قضية لدى المحكمة، فأصدرت الأخيرة حكمها بتعطيل جريدته في تشرين الثاني عام ١٩١٤ ودفع غرامة نقدية[٢٤].

تأثرت صحف فلسطين في كتابتها بأدب الصحافة السورية وصحف بيروت بنوع خاص والتي كانت قد سبقتها في حل مشكلات اللغة والأسلوب والمصطلحات والأسماء الجديدة. وكان للنهضة الأدبية التي شهدتها مصر والشام منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر أثرها القوي في تطوير أسلوب الكتابة الصحفية. أما بالنسبة للمصطلحات الإدارية والعسكرية والإقتصادية والتجارية وحتى الإجتماعية فقد تأثرت بالمصطلحات التركية الدارجة آنذاك. ولم تظهر المصطلحات العربية الحديثة في هذه القطاعات إلا بعد الحرب العالمية الأولى وتطور الأنظمة الإدارية والإقتصادية والتجارية المحلية. وقد تأثرت هذه المصطلحات بالمصطلحات الفرنسية والإيطالية بسبب تداول الصحف الفرنسية بين المثقفين العرب في مصر والشام.

(٢٣) ولد شمعون مويال عام ١٨٧٠، ودرس في المدارس الدينية اليهودية في القدس، ثم التحق بكلية زكي كوهين في بيروت حيث اتقن العربية والفرنسية. وتابع دراسته الجامعية في القاهرة. ثم عاد إلى بيروت حيث درس الطب، وانتقل إلى القاهرة حيث أصدر كتاب «فصول الآباء» عام ١٩٠٩. وجاء إلى يافا قبيل الحرب الأولى ببضع سنوات فاستقر فيها وأصدر جريدة «صوت العثمانية» التي كان يديرها عبد الفتاح نسيبه. يهوشع، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

وأقبل أدباء فلسطين على الكتابة في الصحف، فرفعوا من مستواها اللغوي وحسنوا في أسلوبها الأدائي. وكان من أبرز كتّاب جريدة «القدس» إبراهيم عبود وإسعاف النشاشيبي وإسماعيل محمد الخطيب وانطون لورنس وبندلي الجوزي وحافظ السعيد وخليل بيدس وروحي الخالدي وعارف العارف، وعبدالقادر المظفر، ويوسف العلمي، وعلي الريماوي. وكان من أبرز كتّاب جريدة «فلسطين» خليل السكاكيني والشاعر إسكندر الخوري البيتجالي، وبولس شحاده، وجرجس الخوري أيوب، وراغب الخالدي. ومن كتّاب جريدة «الترقي» يوسف العيسى وراغب الأمام. وكانت هذه الصحيفة الوحيدة التي فتحت صفحاتها لكتّاب يهود أمثال ديزنغوف واستير مويال.

ولم تخل العلاقات بين الصحف العربية في فلسطين من المنافسة والتوتر. فقد كان عيسى داود العيسى صاحب جريدة فلسطين جريئاً في نقده لزملائه من الصحفيين حتى قال عنه عمر الصالح البرغوتي «لم يبق في فلسطين جريدة إلا هجاها...»[٢٥]. أما جريدة المنادي فقد انتقدت بمرارة سرقات جريدة «النفير» عنها، وجاء في عددها الصادر في ٢٧ شباط ١٩١٢ مقالة بعنوان «النفير السارق»:

«سئل صاحب النفير عن سبب سرقاته أخبار المنادي وعدم عزوها إلى مصدرها فقال: ولم أكن أعلم أن المنادي سيصدر بعد ذلك العدد فيطالبني بالسرقة. ونحن نقول له: فليهنأ بالاً، وليعلم أن ما اختلقته قريحته الصهيونية غير الواقع، وسيظل المنادي قائماً ماثلاً يفقأ في عيون الحساد حصرماً إلى الأبد».

وكانت علاقات صاحب النفير سيئة مع جريدة «جراب الكردي» التي كانت تصدر في حيفا، ومع جريدة «القدس»[٢٦].

وحملت الصحف العربية في العهد العثماني شعارات متباينة. فجريدة القدس حملت شعاراً من ثلاثة نجوم في داخل كل نجم كلمة من الكلمات التالية «حرية،

---

(٢٥) مرآة الشرق، عدد ٥٤٢، السنة التاسعة تاريخ ١٩ كانون الثاني ١٩٢٨.

(٢٦) يهوشع، ص ٥٤.

مساواة، إخاء» وهي شعار الإنقلاب العثماني المقتبس عن شعار الثورة الفرنسية. وكان شعار جريدة «الإنصاف» ملاكين ينفخان في الأبواق وفوق رأسيهما الهلال الشعار العثماني. أما جريدة «النفير العثماني» فقد أزالت كلمة العثماني في عهد الإنتداب وزينت بملاك ينفخ في النفير.

ولكن هذه الشعارات والرموز أخذت تختفي تدريجياً في عهد الإنتداب وحلت محلها شعارات قومية: كخارطة الجزيرة العربية أو خارطة الهلال الخصيب.

لم تجر العادة في العهد العثماني على بيع الصحف في الشوارع، بل كانت توزع على بعض الدكاكين حيث يمر الناس ويشترونها. وكانت جريدة فلسطين توزع مجاناً على مخاتير القرى التي يزيد عدد سكانها على مئة نسمة، وذلك بواسطة الدرك (الجندرمة). وقصدها من ذلك فتح المجال أمام الفلاحين للإطلاع على ما يجري في المملكة العثمانية، والتعرف إلى حقوقهم وواجباتهم. فقد جاء في افتتاحية عددها الصادر في ٢٩ أيار ١٩١٣ إيضاحاً لهذا المقصد:

«إن مشتركي هذه الجريدة كلهم طلبوها بأنفسهم، ومن عاداتنا التي يعرفها جميع أهالي اللواء أننا لا نرسل الجريدة لأحد إلا إذا خاطبنا هو بنفسه لا بالوساطة وأرسل إلينا طلباً يقول فيه انه يريد أن نعده مشتركاً.

«وبهذه الواسطة نقول أننا نعد مخاتير القرى جميعاً مشتركين طبيعين في هذه الجريدة. ونحن مداومون منذ زمان على إرسال الأعداد مجاناً إلى كل قرية من قرى هذا القضاء يزيد عدد سكانها على مئة نفس. والقصد من ذلك أن يطلع الفلاح على ما يجري في المملكة من جهة ويفقه حقوقه من جهة أخرى، فلا يجعل سبيلاً للذين لا يخافون الله ولا أنبياءه من التسلط عليه واغتصاب أرزاقه. فعلى المخاتير الذين تأخرت عليهم بعض الأعداد ولم تصلهم بأوقاتها أن يراجعوا القائمقامية لأنها هي التي تكفلت بإيصال ذلك بواسطة الجندرمة».

وتسهيلاً للبحث رأيت أن أتناول الجرائد مرتبة حسب تاريخ صدورها وأن أصنفها أصنافاً ثلاثة: الجرائد الإخبارية، الجرائد الدينية، والجرائد المخطوطة.

وكذلك الحال بالنسبة للمجلات التي صنفتها: مجلات عامة ومجلات دينية ومجلات مدرسية.

١ ـ الجرائد الإخبارية

القدس الشريف: أنشئت عام ١٨٧٦، وكانت الجريدة الرسمية لمتصرفية القدس تصدر مرة في الشهر باللغتين العربية والتركية، ويحرر قسمها العربي الشيخ علي الريماوي ويحرر قسمها التركي عبدالسلام كمال. إقتصرت على نشر الأخبار ذات الطابع الرسمي كترقية الموظفين وإجازاتهم وبيانات الحكومة الرسمية. تحولت بعد أربع سنوات من صدورها إلى جريدة أسبوعية تصدر يوم الخميس من كل أسبوع. وكانت تطبع في المطبعة الحكومية (دار الأيتام الإسلامية الصناعية اليوم).

الغزال: أصدرها ١٨٧٦ الشيخ علي الريماوي كجريدة شهرية. غير أنها لم تصدر بانتظام فأغلقت بعد حين[٢٧].

القدس: بعد جهود شاقة وانتظار دام سبع سنوات، ودفع رشوة مقدارها مئتا ليرة إفرنسية (نابليون) حصل جورج حبيب حنانيا على ترخيص بإصدار جريدة «القدس» في ١٨ إيلول ١٩٠٨[٢٨]. تتضح أهداف هذه الجريدة من إفتتاحية العدد الأول منها والتي جاء فيها:

«لا بد أن تنشأ غداً أحزاب مختلفة، ولا بد أن تتنازع البلاد أهواء متضاربة فمهما أختلفت الأحزاب، ومهما تضاربت الأغراض والأهواء فجريدتنا عثمانية محضة لا تنتصر إلا للحق ولا تتوخى إلا خدمة البلاد خدمة صادقة. ستتعقب آثار الإستبداد، وتبحث عن مواطن الضعف، وتفتش عن الأدواء المحلية. وستقتصر في أبحاثها على ما يجمل أثره، إن شاء الله. وهي تقبل ما يرد إليها من المقالات والرسائل المفيدة فتنشرها مع الشكر لأصحابها. والخلاصة أن جريدتنا وقف على خدمة البلاد. والله المسؤول أن يلهمنا الصواب والسداد». وكان يطبع من هذه

---

(٢٧) خوري، يوسف: الصحف العربية في فلسطين، ص ٣، يهوشع، ص ٣٣، ٣٩.

(٢٨) خوري، ص ٨، يهوشع، ص ٣٣.

الجريدة حوالي ألف وخمسمائة نسخة[٢٩].

الإنصاف: سياسية إخبارية أدبية علمية فكاهية صاحبها ومحررها المسؤول بندلي إلياس مشحور. صدر العدد الأول منها في ٢٣ كانون الأول عام ١٩٠٨ في القدس. وبقيت تصدر مرتين في الأسبوع حتى قبيل الحرب العالمية الأولى.

النجاح: سياسية أدبية علمية زراعية صاحب امتيازها أحمد الريماوي ومحررها المسؤول الشيخ علي الريماوي[٣٠]. صدر العدد الأول منها في القدس في ٢٤ كانون الأول عام ١٩٠٨. وكانت تصدر يوم الخميس من كل أسبوع وتطبع في مطبعة النجاح في القدس باللغتين العربية والتركية. وكان يشارك في تحريرها علي رضا مدير معارف القدس. عنيت بالشؤون السياسية وبخاصة أخبار الدولة العثمانية ولواء القدس. كان هدفها تحسين العلاقات بين الحكومة العثمانية والعرب الذين أحسوا بخيبة الأمل بعد صدور الدستور العثماني عام ١٩٠٨. وتولى رئيس تحريرها تفنيد الآراء القائلة بأن الحكم التركي يسعى إلى خنق اللغة العربية ونشر التركية. ودعا العرب إلى تعلم اللغة التركية كي يستطيعوا الترقي في المناصب الحكومية.

جراب الكردي: صحيفة هزلية، تعرضت لملاحقة الرقابة العثمانية فاضطرت إلى تغيير اسمها والصدور باسم جديد. صاحبها ومحررها المسؤول توفيق جانا. صدرت عام١٩٠٨ في حيفا، واتخذت أسماء عديدة مثل، «حمارة الجبل» و«البغلة» و«الحمارة». أما شعارها فهذان البيتان من الشعر:

بجراب الكردي يا صاح	أمست تستنير الأفكار والألباب
إن يكن حاوياً مجوناً وهزلاً	فهو للظرف والكمال جراب

استمرت في الصدور بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وحصل على امتيازها

---

(٢٩) يهوشع، ص ٤٤.

(٣٠) يهوشع، ص ٦٣ ـ ٦٥. الشيخ علي بن محمود الريماوي من مواليد القدس، درس في الأزهر وعمل معلماً في القدس وتولى تحرير القسم العربي في جريدة «القدس الشريف» ومن ثم في جريدة «النجاح».

باسيلا الجدع وخليل نصر. وتأثرت إلى حد كبير بالجرائد الهزلية السورية التي كانت تصدر في هذه الفترة(٣١).

الكرمل: سياسية إقتصادية إجتماعية أسبوعية، صدرت في حيفا عام ١٩٠٨، واعتباراً من عددها الخامس والسبعين الصادر في ٦ آب ١٩١٠ أصبحت تصدر مرتين في الأسبوع. توقفت عن الصدور أثناء الحرب بسبب ميولها البريطانية(٣٢).

النفير العثماني: صحيفة سياسية أدبية علمية أسبوعية أصدرها إبراهيم زكا في الإسكندرية عام ١٩٠٢(٣٣). ثم انتقلت إلى يافا حيث صدرت لسنة واحدة، وصدرت من جديد في القدس عام ١٩٠٨ وأصبح صاحب امتيازها أيليا زكا شقيق إبراهيم مؤسسها، وأخذت اسم النفير. وتنقلت إدارتها في السنوات التي سبقت الحرب بين القدس ويافا، وانتقلت نهائياً إلى حيفا ابتداءً من ٢٣ أيلول ١٩١٩ وأصبح يشرف على إدارتها سهيل وزكي ابنا إيليا زكا(٣٤).

الأخبار: صحيفة سياسية، صاحب امتيازها بندلي حنا غرابي ومحررها المسؤول الفونس يعقوب الونزو. صدرت في يافا في ٢٩ حزيران ١٩٠٩(٣٥).

الإعتدال: صحيفة سياسية أصدرها بكري السمهوري في القدس في اليوم الأول من أيار عام ١٩١٠، وانتقلت إلى يافا في ١٨ آذار ١٩١٤(٣٧).

فلسطين: صحيفة سياسية إخبارية أدبية مصورة صاحب الإمتياز عيسى داود العيسى ويوسف العيسى، ومحررها المسؤولان يوسف العيسى وداود العيسى. صدرت في يافا في ١٤ كانون الثاني ١٩١١ (مرتين في الأسبوع). وتوقفت عن الصدور في ٩ كانون الثاني ١٩١٥. ثم عادت إلى الظهور بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في ٩

(٣١) يهوشع، ص ١٢٦ - ١٢٩.
(٣٢) خوري، ص ١٤.
(٣٣) طرازي، ج ٣، ص ٦٦.
(٣٤) خوري، ص ١٥.
(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٧.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٨.

آذار ١٩٢١. وأصبحت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع. وأصبحت جريدة يومية بعد حوادث عام ١٩٢٩(٣٧).

الأخبار الأسبوعية: إخبارية أدبية اجتماعية أسبوعية صاحبها ومحررها المسؤول حنا فضول صباغة، صدر العدد الأول منها في يافا في ٢٨ كانون الثاني عام ١٩١١.

الحمارة القاهرة: صحيفة فكاهية أدبية مستقلة صاحباها ومحرراها المسؤولان خليل زقوت ونجيب جانا. صدر العدد الأول منها في حيفا في ٤ أيلول ١٩١١(٣٨).

المنادي: صحيفة سياسية عمرانية أسبوعية صاحب الإمتياز ومديرها المسؤول سعيد جارالله. وكان يتولى تحريرها محمد موسى المغربي. صدر العدد الأول منها في القدس في ٨ شباط ١٩١٢. وكانت تعنى عناية خاصة بالأخبار المحلية. عرفت بمناوأتها للسلطة العثمانية فأحرزت نجاحاً قوياً. جاء في إحدى إفتتاحياتها بعنوان «السر في النجاح»:

«أصدرنا المنادي في يوم كره فيه الناس الصحافة، وعافت الآذان سماع هذيان بعضها وتضليلات أصحابها في الحجم الذي يراه القارىء، والمواد التي تشابه مواد هذا العدد، واللهجة التي لا يزال عليها. فلم نكد نطبع العدد الثالث منه حتى تواردت علينا الرسائل من الجهات بطلب الإشتراك وأكثرها موقعة بأسماء العشرات من الطالبين. ولا شك أن ذلك غريب لم تصادفه صحيفة أخرى من الصحف التي صدرت في هذه الجهات وإليك السر:

«إننا حصرنا مباحث المنادي في أحوال هذا اللواء خاصة لا تتعداه، فلا تكاد ترى فيه خبراً لا يهم الفلسطينيين ويخرج عن أحوال بلادهم. ثم تركنا ما دون هذا من الأخبار التافهة التي نشاهدها في كل يوم. وانتقدنا الكثيرين من المسيطرين من

(٣٧) خوري، ص ٢٠، يهوشع، ص ١١٦ - ١٢٠.
(٣٨) خوري، ص ٢١.

الحكام والوجهاء الذين ما كان أحد يتخيل في صحيفة أن نذكر أسماءهم بسوء أو بغير التسبيح بحمدهم. وسهلنا على جميع الطبقات تلاوته بتخفيض قيمة الاشتراك فيه، وتكييف عبارته بصورة لا يعسر فهمها على العامي ولا يأباها الخاص. فإذا علمت صحفنا السر في نجاح الصحف الحقيقي تركت مرضاة بعض الوجهاء بالتعظيم ولم ترم الناس بالجهل وعدم المعرفة بالنفيس إذا كانت تريد أن تنهب الناس بقيمة الاشتراك الباهظة، وتأتيهم بالمباحث التي تعلو على فهمهم ولا تفيدهم فائدة عاجلة من مثل تعريب مقالة في تاريخ ثورة الفرنسيس أو تدبيج رسالة في أحوال الهنود وغير ذلك. وخير الكلام ما وافق المقام أو أفاد سامعه. ولولا خوفنا من الخروج عن تلك الدائرة لبسطنا الأمر أكثر وكتبنا عن أسرار في النجاح تفيد كثيراً»(٣٩).

المحبة: صحيفة أسبوعية صاحبها ومحررها المسؤول فضل الله فارس أبي حلقة، صدر العدد الأول منها في حيفا في ٢٤ شباط ١٩١٢ ثم انتقلت إلى طرابلس.

أبو شادوف: صحيفة أدبية إنتقادية أسبوعية مستقلة، صاحبها وهبي تماري ومحررها صليبا عريضة. صدر العدد الأول منها في يافا في ١٣ آذار ١٩١٢. تبنت القضية العربية الأرثوذكسة والدفاع عنها أمام البطريركية في القدس. استمرت في الصدور حتى الحرب العالمية الأولى(٤٠).

الصاعقة: صحيفة سياسية أدبية مستقلة أسبوعية صاحبها ومحررها المسؤول جميل رمضان. صدرت في حيفا عام ١٩١٢.

الكوكب: صحيفة سياسية أدبية أسبوعية كان يديرها الشيخ محمد القلقيلي ويحررها نخبة من الكتّاب. صدر العدد الأول منها في آب ١٩١٦ واستمرت في الصدور حتى ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩١٩. كانت تنشر رسائل عن سير الحرب

---

(٣٩) خوري، ص ٢٢، يهوشع، ص ٥٥ ـ ٥٧.
(٤٠) خوري، ص ٢٣.

العالمية الأولى في الميادين المختلفة. وتعتبر من المراجع المهمة في أحوال المدن الفلسطينية في عهد الاحتلال البريطاني والحكم العسكري المباشر. وتابعت هذه الجريدة سير الثورة العربية ونقلت التصريحات الرسمية لقادتها أحمد شاكر الكرمي وعادل زعيتر ومحمد علي الطّاهر صاحب جريدة الشورى في مصر، وأمين سعيد والشاعر سليمان التاجي الفاروقي وحنا خليل دكرت والشاعر إسكندر الخوري البتيجالي والقاص خليل بيدس. واهتمت بالحركة الصهيونية ففضحت أساليبها ووسائل تآمرها على عرب فلسطين(٤١).

سورية الجنوبية: صحيفة سياسية أصدرها عارف العارف بالإشتراك مع محمد حسن البديري في القدس في ٨ أيلول ١٩١٩. صدر منها ٦٣ عدداً وتوقفت عن الصدور في ١١ حزيران ١٩٢٠ بسبب انتفاضة العرب الأولى في المدينة المقدسة.

مرآة الشرق: صحيفة سياسية، صاحبها بولس شحادة. صدر العدد الأول منها في القدس في ١٧ أيلول سنة ١٩١٩.

بيت المقدس: صحيفة سياسية أدبية كانت تصدر كسابقتها مرتين في الأسبوع. أصدرها بندلي الياس مشحور في القدس في ٢٦ كانون الأول ١٩١٩(٤٢).

القدس الشريف: صحيفة سياسية مستقلة أسبوعية، أصدرها حسن صدقي الدجاني في القدس في ١٣ نيسان ١٩٢٠(٤٣).

الأقصى: صحيفة سياسية أدبية إجتماعية أسبوعية، أصدرها صالح عبداللطيف الحسيني في ٦ أيلول ١٩٢٠(٤٤).

الجريدة الرسمية: هي جريدة حكومة فلسطين الرسمية، وكان يصدرها قلم

---

(٤١) يهوشع، ص ١٥٦ ـ ١٦١.
(٤٢) خوري، ص ٢٩.
(٤٣) المصدر نفسه، ص ٣٠.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣١.

المطبوعات في الحكومة مرة كل شهر باللغات الرسمية الثلاث: العربية والانكليزية والعبرية. بدأت في الصدور في اليوم الأول من كانون الثاني عام ١٩٢١.

حيفا: جريدة عمالية أسبوعية كانت تدافع عن حقوق العمال والفلاحين في فلسطين. صاحب الإمتياز ومحررها المسؤول إيليا زكا. صدر العدد الأول منها في حيفا في آذار ١٩٢١. وكانت أول صحيفة نهجت نهجاً إشتراكياً في البلاد. غير أنها لم تعمر طويلاً إذ احتجبت عن الصدور بعد عام واحد فقط من صدورها.

لسان العرب: صحيفة سياسية أدبية مستقلة يومية صاحبها ومحررها المسؤول إبراهيم سليم النجار. صدر العدد الأول منها في القدس في ٢٤ حزيران عام ١٩٢١.

الصباح: صحيفة سياسية أدبية مستقلة أسبوعية صاحب امتيازها محمد كامل البديري ومحررها يوسف ياسين. صدرت في القدس عام ١٩٢١ واصبحت الناطق بلسان اللجنة التنفيذية العربية للمؤتمر العربي الفلسطيني[٤٥].

الطبل: جريدة سياسية إجتماعية فكاهية أسبوعية أصدرها إبراهيم كريم في حيفا عام ١٩٢١[٤٦].

صوت الشعب: جريدة سياسية يومية صاحباها عيسى البندك ويوسف أبو العراج. صدر العدد الأول منها في بيت لحم في ١١ أيار ١٩٢٢[٤٧].

الأردن: جريدة أسبوعية صاحباها خليل نصر وباسيلا جدع. صدر العدد الأول منها في حيفا في ٨ تشرين الأول سنة ١٩٢٣. واستمرت في الصدور حتى عام ١٩٢٧ حين انتقل بها خليل نصر إلى عمان فأصدرها هناك[٤٨].

الجزيرة: جريدة سياسية أدبية أسبوعية أصدرها حسن فهمي الدجاني ومحمد

(٤٥) المصدر السابق، ص ٣٥.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٦.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ٤٠.

كامل الدجاني في يافا في ٣١ كانون الثاني عام ١٩٢٤[٤٩].

اليرموك: جريدة يومية سياسية إخبارية كانت تصدر خمس مرات في الأسبوع. صاحباها كمال عباس ورشيد الحاج إبراهيم. صدر العدد الأول في حيفا في ٣١ آب ١٩٢٤. ثم إنتقلت ملكيتها إلى علي بشير وصبحي فؤاد الريس ثم إلى عزة قاسم[٥٠].

الاتحاد العربي: جريدة سياسية أسبوعية، صاحبها سليم عبدالرحمن الحاج إبراهيم. وكان يحررها موسى الكيالي ومحمود العابودي ومحمود الشركسي في طولكرم. صدر العدد الأول منها في ١٥ نيسان ١٩٢٥. وكانت تطبع في يافا. شعارها: «باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت»[٥١].

الإنارة: جريدة سياسية أصدرها نقولا يوحنا في عكا في الأول من أيلول عام ١٩٢٥[٥٢].

ويلاحظ أن معظم هذه الجرائد لم يعمر طويلاً. إذ كانت تختفي بسرعة، لأسباب مالية أو سياسية، أو لدوافع ذاتية.

٢ ـ الجرائد الدينية

هي صحف دينية كانت تصدر عن المؤسسات الدينية المسيحية في فلسطين، لنشر مبادىء المذهب الديني لكل طائفة، وأخبار المؤسسة الدينية التي تصدر عنها الجريدة. وقد ظهر في فلسطين خلال هذه الفترة ثلاث جرائد هي:

بشير فلسطين: صدرت عن البطريركية الأرثوذكسية في القدس في ٢٢ تشرين الثاني عام ١٩٠٨. وكان القصد من صدورها الرد على الحملة التي شنها الوطنيون

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٤١.
(٥٠) المصدر السابق، ص ٤٣.
(٥١) المصدر نفسه، ص ٤٤.
(٥٢) المصدر نفسه، ص ٤٥.

العرب على البطريركية ورجال الدين اليونان الذين يتولون مناصب الأكليروس العالية في البلاد. وقد حددت أهدافها العلنية في «الدفاع عن المزارات المقدسة في فلسطين، ومقاومة الدعاية اللاتينية والبروتستانتية، وتنوير أذهان الأرثوذكس من حيث أصلهم البيزنطي، ومساعدة فلاحي فلسطين». أما صاحب الإمتياز فهو أطناسيوس باندازي كاتب البطريركية. وكانت تصدر باللغتين العربية واليونانية. وكان يرأس تحرير القسم العربي فيها وهبة الله صروف.

جاء في افتتاحية العدد الأول منها تحديد لأهدافها كما يلي:

«إن أساس موضوع هذه الجريدة منحصر في أربعة أمور: أولها البحث عن جميع ما يتعلق بالأماكن المقدسة والحقوق الممنوحة لعموم ملة الروم وبذل أقصى الجهد في إثبات وتأييد ما تقرر وتأكد من الأمور التي تتعلق بإدارتها المتخذة قديماً. وثانيها: إفراغ الوسع وبذل أقصى الجهد لدفع كل ضرر ينشأ عن مساعي الدعاة (موسيونر) إلى المذاهب المختلفة. وأهم ما أرومه بذلك المحافظة على الملة الارثوذكسية من مشروع الدعاة المذكورين. وثالثها: تنوير أفكار الأرثوذكسيين الوطنيين لايقافهم على حقيقة جنسهم وإعادة ما فقد مما كان متوارثاً فيها بينهم أباً عن جد. ورابعها: بيان أسباب صلاح حال الفلاح بما يلزمه من تحصيل المعلومات الزراعية وغيرها التي توسع أفكاره، وليستعين بها على إصلاح معاشه ومعرفة ما له من الحقوق. إذ لا ريب في أن ذلك أقوى الأسباب لهذا اللواء في السعادة العظيمة والحصول على الثروة الجسيمة». هذا وقد استمرت هذه الجريدة في الصدور لمدة ثلاث سنوات ثم توقفت بعد ذلك[٥٣].

صهيون الجديدة: أصدرتها بطريركية الروم الأثوذكس عام ١٩٠٨. وكانت تطبع في مطبعة دير الروم في القدس وتصدر باللغتين العربية واليونانية. أما محررها فالأرشمندريت باكوبولس كبنكاس. وكانت تتناول الموضوعات الدينية والكنسية المتعلقة بطائفة الأرثوذكس[٥٤].

---

(٥٣) يهوشع، ص ٦٣ - ٦٥.
(٥٤) خوري، ص ١٢.

القدس الجديدة: جريدة دينية أدبية بروتستانتية. صاحب الامتياز والمحرر المسؤول القس غاتلنج Gattling. صدر العدد الأول منها في القدس في اليوم الأول من تشرين الثاني عام ١٩٢٢[٥٥].

٣ ـ الصحف المخطوطة

وجدت الصحف المخطوطة إلى جانب الصحف المطبوعة. وكانت توزع على عدد محدود من الناس. كانت تكتب باليد وتوزع سراً. ومن بين هذه الصحف «الأحلام» و«الناسك» و«البلبل» و«الطائر» و«الديك الصياح» و«منبه الأموات»[٥٦].

المجلات

يمكن تصنيفها أيضاً إلى مجلات عامة ودينية ومدرسية.

١ ـ المجلات العامة

القدس: مجلة أدبية تاريخية دينية أصدرها طه المحتسب بالله عام ١٩٠٠ ولا نعلم مدة صدور هذه المجلة التي ورد ذكرها في مجلة المقتطف[٥٧].

الترقي: أنشأها عادل جبر في يافا عام ١٩٠٧ وكانت تصدر مرتين في الشهر وتعالج الموضوعات الأدبية والاجتماعية.

الأصمعي: مجلة أدبية اجتماعية صدر العدد الأول منها في القدس في اليوم الأول من أيلول عام ١٩٠٨. محررها المسؤول حنا عبدالله العيسى وكانت تصدر مرتين في الشهر.

النفائس العصرية: أصدرها الأديب المشهور خليل بيدس في اليوم الأول من تشرين الثاني عام ١٩٠٨ باسم «النفائس» الأسبوعية باعتبارها على حد تعبيره مجلة

---

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٣٩.
(٥٦) يهوشع، ص ٧٧.
(٥٧) المقتطف، ج ٢٤ (١٩٠٠)، ص ٢٥٥.

فكاهية أدبية. ثم أخذت تصدر مرتين في الأسبوع اعتباراً من بداية عام ١٩٠٩ وحملت اسماً جديداً هو «النفائس العصرية». كانت تطبع في المطبعة الوطنية في حيفا. وانتقلت في العام الثالث لصدورها (١٩١١) إلى القدس وأصبحت تطبع في مطبعة دار الأيتام السورية فيها[٥٨].

الحرية: مجلة أدبية اجتماعية فكاهية قصصية أسبوعية، أصدرها بكري السمهوري في يافا في ٢٠ حزيران ١٩٢٠[٥٩].

المنهل: مجلة أدبية تاريخية اجتماعية شهرية، صاحبها ومحررها المسؤول محمد موسى المغربي. صدر العدد الأول منها في القدس في ٥ آب ١٩١٣[٦٠].

الصحراء المصورة: مجلة عربية تركية أصدرها جمال باشا قائد الجيش الرابع العثماني في ١٤ أيلول عام ١٩١٦ في بئر السبع التي اتخذها مركزاً لقيادة حملته على السويس[٦١].

بيت لحم: مجلة أسبوعية عنيت بنقل أخبار فلسطين إلى الجالية العربية في المهجر صاحباها يوحنا خليل دكرت وعيسى الخوري بندك. صدر العدد الأول منها في بيت لحم في ١١ أيلول ١٩١٩[٦٢].

زهرة الجميل: مجلة أدبية أصدرها جميل البحري في حيفا في اليوم الأول من أيار عام ١٩٢١. وغير اسمها في العام التالي إلى «الزهرة»[٦٣].

---

(٥٨) يهوشع، ص ٩٢-٩٣، خوري، ص ١٦. ولد خليل بيدس في الناصرة سنة ١٨٧٥، وانهى تعليمه في دار المعلمين الروسية فيها. اشتغل في التعليم في سورية ولبنان ثم عاد إلى البلاد ليعلم في المدارس الروسية. وانتخب عضواً في المجلس الأرثوذكسي المختلط عن أبرشية الناصرة. ويعتبر بيدس رائد القصة الحديثة في فلسطين.

(٥٩) خوري، ص ١٨.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٢٤ - ٢٥.

(٦١) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٦٢) خوري، ص ٢٨.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٣٤.

الحقوق: مجلة قضائية شرعية بوليسية أدبية شهرية. صاحبها ومحررها المسؤول فهمي الحسيني. صدر العدد الأول منها في يافا في اليوم الأول من كانون الأول عام ١٩٢٣. وبقيت تصدر في يافا حتى عام ١٩٢٨ ثم انتقلت بعد ذلك إلى غزة[٦٤].

الروايات الأهلية: مجلة قصصية شهرية كانت تصدر عن مكتبة ومطبعة بيت المقدس، ويحررها بندلي الياس مشحور[٦٥].

٢- المجلات الدينية

يوم الرب: مجلة دينية بروتستانتية شهرية. صاحب الامتياز والمحرر المسؤول القس اسبير ضومط. صدر العدد الأول منها في القدس في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٠[٦٦].

رقيب صهيون: مجلة دينية شهرية أصدرتها بطريركية اللاتين في القدس في ١٥ كانون الثاني عام ١٩٢١. وكان يحررها الأب بولس سمعاني[٦٧].

الأخبار الكنسية: مجلة دينية شهرية، كانت تصدر عن المجمع الكنسي للطائفة الإنجيلية الأسقفية، ويحررها القس الياس مرمورة. صدر العدد الأول منها في القدس في الأول من كانون الثاني عام ١٩٢٤[٦٨].

الزنبقة: مجلة شهرية كانت تصدر عن كشافة القديس جاورجيوس في القدس وتعنى بالموضوعات الرياضية والكشفية. صدر العدد الأول منها في ١٨ أيار ١٩٢٤[٦٩].

---

(٦٤) المصدر نفسه ٤٠.

(٦٥) المصدر نفسه ص ٤٣.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٦٧) المصدر نفسه ص ٣٣.

(٦٨) المصدر نفسه ص ٤١.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٤٢.

٣ ـ المجلات المدرسية

حرصت المدارس الثانوية في فلسطين على تنشيط الحركة الأدبية بين تلامذتها وأساتذتها فأصدرت مجلات مدرسية تتناول مختلف الموضوعات التي تهم التلاميذ والمجتمع المحلي. وفي ما يلي قائمة بهذه المجلات.

الباكورة الصهيونية: كانت تصدر عن مدرسة صهيون الإنكليزية ويحررها أساتذتها وتلاميذها. وصدر العدد الأول منها في القدس عام ١٩٠٩[٧٠].

الدستور: أصدرتها المدرسة الدستورية في القدس. وكانت تطبع على الجلاتين وكان يرئس تحريرها الأديب المعروف خليل السكاكيني. صدر العدد الأول منها في ٦ كانون الأول سنة ١٩١٠[٧١].

رائد النجاح: صدرت عن كلية الفرير في القدس خلال عامي ١٩١٠ و١٩١١ ومن هيئة تحريرها موسى العلمي وانطون شكري لورنس[٧٢].

دار المعلمين: مجلة مدرسية تهذيبية أصدرتها دار المعلمين في القدس. وكان يحررها طلبة الدار وخريجوها. صدر العدد الأول منها في الأول من تشرين الثاني عام ١٩٢٠. وكانت تصدر عشرة أعداد في السنة.

روضة المعارف: مجلة مدرسية أدبية تهذيبية مصورة شهرية، كانت تصدر عن مدرسة روضة المعارف ويحررها نخبة من أساتذتها وتلاميذها. صدر العدد الأول منها في كانون الثاني عام ١٩٢٢[٧٣].

(٧٠) خوري، ص ١٧.
(٧١) المصدر نفسه، ص ١٩.
(٧٢) المصدر نفسه، ص ١٩.
(٧٣) المصدر نفسه، ص ٣٧.

الفصل الثالث

التيارات الفكرية

تأثرت فلسطين والأردن بالتيارات الفكرية العامة التي ظهرت في مصر والشام والعراق وأثرتا فيها. وشارك المفكرون والمثقفون في هذين القطرين في الحركات الدينية والسياسية والاجتماعية والأدبية. وقد أعطى الغزو الاستيطاني الصهيوني الذي تعرضت له فلسطين بعداً جديداً لمشاركتهم وشحذ هممهم وجعلهم أكثر حساسية لما يجري في الوطن العربي. وساهم المفكرون في حركة المقاومة العربية للصهيونية منذ بداية ظهورها على أرض فلسطين، متطلعين إلى دعم إخوانهم العرب وتأييدهم في نضالهم الطويل.

وهنا عرض لهذه التيارات الفكرية.

التيارات الدينية

كان سكان فلسطين والأردن، خلال فترة دراستنا هذه، يتألفون من أكثرية كبيرة من المسلمين وأقلية صغيرة من المسيحيين واليهود. أما المسلمون فمعظمهم من أهل السنة، وبينهم أقلية من الشيعة والدروز والبهائية[١]. والمسيحيون في أكثريتهم

(١) البهائية أو البابية، حركة دينية ظهرت في إيران على يد ميرزا علي محمد الذي لقب بالباب (أي باب الوصول إلى المهدي المنتظر والحقائق الإلهية). وبعد موته عام ١٨٥٢، انقسم أتباعه بين خليفته صبح أزل وشقيقه بهاء الله، وبسبب ملاحقة السلطات الإيرانية لهما هربا إلى بغداد وأقاما فيها. غير أن الدولة =

من الروم الأرثوذكس الذين أخذ عددهم يتناقص مع انتشار الإرساليات التبشيرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بينما أخذت أعداد المتمين إلى الطوائف الأخرى مثل اللاتين (الكاثوليك) والبروتستانت بالازدياد. أما اليهود فلم يزد عددهم خلال هذه الفترة عن ١٠٪ من السكان[٢]. وكانوا ينقسمون إلى فئات ثلاث هي: سفارديم (أي اليهود الشرقيين)، واشكنازيم (أي اليهود الغربيين)، وسامرة[٣]. وكان لكل طائفة دينية من هذه الطوائف مدارسها الخاصة بها.

أ ـ التيارات الدينية الإسلامية

ظهر في فلسطين فئتان من المفكرين المسلمين: فئة مقلدة لمن سبقها من العلماء ومشايخ الطرق الصوفية، اقتصر همها على دراسة الكتب الدينية، ووضع الشروح اللازمة لها، ونظم القصائد المطولة في التصوف والتغزل بالذات الإلهية ومدح رسول الله والأنبياء والأولياء وأقطاب الطرق الصوفية، والتوجه إلى

= العثمانية استدعتهما عام ١٨٦٤ إلى العاصمة استانبول ثم نقلتهما إلى أدرنة، فبقيا فيها أربع سنوات. ثم نفت صبح أزل إلى قبرص حيث بقي فيها حتى وفاته عام ١٩١٢. ونفت بهاء الله إلى عكا حيث تزعم الحركة البابية التي أصبحت تنسب إليه. وقام بنشرها في فلسطين والعراق وإيران وأمريكا عن طريق أتباعه. وبقي في عكا حتى وفاته عام ١٨٩٢، فخلفهُ ابنه الأكبر عباس الذي انتقل إلى حيفا. وازداد انتشار الدعوة في عهده خارج العالم الإسلامي. توفي عباس عام ١٩٢١ وخلفه أخوه محمد علي. أما أهم مبادىء البهائية فهي: وحدة الإنسانية، والاستقلال في تحري الحقيقة، ووحدة أسس الأديان، والتوفيق بين الدين والعلم والعقل، وإنصاف الفقراء، والمساواة بين الرجل والمرأة، ونبذ التعصب بمختلف أشكاله، ونشر السلام والاطمئنان بين بني البشر، وتوفير التربية والتعليم لكل الناس.

ساذج بهائي: البابية والبهائية: الهلال، ج ٩، السنة ٣٠ (١٩٢٢/٦/١) ص ٨٣٦ ـ ٨٤٠.

ـ : بهاء الله والبابية: الهلال، ج ١٠، السنة ٣٠ (١٩٢٢/٧/١) ص ٩٢٢ ـ ٩٢٧.

بندلي الخوري: **الحركات السرية في الإسلام**، ص ١٧٥ ـ ١٧٦، ميرزا فضل الله الإيراني: الباب والبابية، **المقتطف**، سبتمبر ١٨٩٦، ص ٦٥٠ ـ ٦٥٧، حسينقلي جديد: البابية، **المقتطف**، فبراير ١٩٠٤، ص ١٨١ ـ ١٨٢. طائفة البابية وشرائعها: **الهلال** ج ٥، (١٩٠٥/٣/١)، ص ٣٥١ ـ ٣٥٨. **الهلال**: ج ٧ (١٩٠٠/٤/١) ص ٣٩٣ ـ ٤٠٢، عباس أفندي ومذهب البابية والبهائية: **الهلال**، ج ٤، ١٩٢٢/٤/١، ص ٣٠٨ ـ ٣١٤.

(٢) المقتطف، المجلد ٥٨ (مارس ١٩٢١) ص ٢١٤.

(٣) السامرة، فئة دينية يهودية قليلة العدد تقيم في مدينة نابلس.

الصحابة والأولياء الصالحين يطلبون منهم تفريج الكربات وقضاء الحاجات، واستغلال مشاعر العامة الدينية بمختلف الوسائل والأساليب للحفاظ على مركزهم الاجتماعي الرفيع. ولم يتح لهذه الفئة من رجال الدين الإلمام بلغة أجنبية غير التركية والفارسية؛ فعاشت في مجتمعها تجهل ما دخل إليه من أفكار وآراء جديدة ونظريات ومبادىء حديثة من خلال المطبوعات والترجمات والصحف والمدارس والجامعات.

وفئة ثانية مجددة أتيح لها أن تطلع على التيارات الحديثة التي هبت على البلاد العربية من الغرب، فأقبلت عليها تدرسها وتمعن النظر فيها، وتقارن بينها وبين ما لديها من تراث. فانقسمت في موقفها منها إلى فريقين: فريق رفض النظريات والمبادىء الغربية وفريق ثان حاول التوفيق بينها وبين التراث الإسلامي. وسنتناول في ما يلي الفكر الديني لدى هاتين الفئتين محاولين أن نلقي الضوء على ما قامت به كل منها من جهد، وعلى مواقفها المتباينة من الحضارة والتراث الغربيين.

١ ـ فئة المقلدين

تركزت جهود هذه الفئة من العلماء على شرح الكتب الدينية وتلخيصها وتحقيقها، ونظم قصائد التصوف والمدائح النبوية، وهو ما اعتاد عليه شيوخ العصور السابقة. وقلما تحرر شيخ من التصوف والانتماء إلى طريقة من الطرق الصوفية السائدة في ذلك العصر كالنقشبندية والقادرية والرفاعية والخلوتية والمولوية وغيرها. ومن أبرز شيوخ هذه الفترة الشيخ محمد الحطابي الذي ألف كتاباً في شرح «الجوهرة في التوحيد»، وآخر في شرح «متن التلخيص في المعاني والبيان»[٤]؛ والشيخ عمر بن محمد البكري اليافي الذي ألف كتباً عدة ورسائل في بعض المسائل الدينية مثل: «هداية أهل المحبة في معنى قوله (ص) من عرف نفسه عرف ربه» و«الباب المغنم ومنية المغرم في معنى الاسم الأعظم» و«رسالة في الفرق بين الواحد والأحد»

(٤) ولد في نابلس وقدم إلى دمشق بصحبة عمه حيث درس في الجامع الأموي وتولى التدريس فيه. هاجر إلى الهند وأقام فيها عشرين سنة وتوفي هناك عام ١٣٢٣ هـ. الشطي: أعيان دمشق، ص ٤٢٩.

و«رسالة في الحض على بر الوالدين» و«رسالة في تفسير الشيخ الأكبر حول وحدة الوجود»:

إياك إياك يا من أحياك من إياك   واخرج لأياك من اياك عن اياك
وافن بأياك عن إياك من إياك   وانظر لأياك تلق اياك هو إياك

وله رسالة في الطريقة النقشبندية التي كان ينتمي إليها تناول فيها تفسير إحدى عشرة كلمة بنيت عليها هذه الطريقة الصوفية. وله رسالة في حكمة اجتماع الذاكرين وحركاتهم على الطريقة الصوفية، ورسالة في معنى التصوف والصوفي، وأخرى في تفسير البيت المشهور:

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا   ولا موجعات القلب حتى تولت

ومن رسائله في أحكام الدين رسالة في دخول الحمّام وأخرى في «منح العليم في بسم الله الرحمن الرحيم» ورسالة في «قطع النزاع وكشف القناع في الرد على من اعترض على العارف النابلسي في إباحة السماع» و«رسالة في اسم عليّ» قدمها لحاكم عكا آنئذ علي آغا[5].

ويعتبر الشيخ عمر اليافي أنموذجاً لهذه الفئة من الشيوخ التقليديين. فمن شعره الصوفي الذي سار فيه على خطى شعراء الصوفية في الغزل:

أفتاة قلبي رحمة بفتاك   كفى مهند لحظك الفتّاك
قد شبهوا بالبدر حسنك طلعة   حاشاك مما شبهوا حاشاك
فالبدر ينقص في الكمال وأنت في   أوج الجمال على المدى مثواك
وإذا رأيت وميض برق قلت من   ذكري لديك تحركت شفتاك

---

(٥) ولد الشيخ عمر اليافي في يافا سنة ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ م، ونشأ بها وتعلم على يد شيوخها. ثم انتقل إلى غزة ودرس على يد شيوخها. رحل إلى نابلس طلباً للعلم ثم رحل إلى مصر فدرس في الأزهر وعاد إلى غزة حيث انتمى إلى الطريقة الخلوتية. وسافر بعد ذلك إلى دمشق واستقر فيها حتى وفاته عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م وفي دمشق انتسب إلى الطريقة النقشبندية. الشطي: **أعيان دمشق**، ص٢١١-٢١٣. شيخو، لويس: **الآداب العربية في القرن التاسع عشر**، ص ٢٤ - ٢٥.

يا طلعة الأفلاك هاج البحر من   دمعي وسارت في الهوى أفلاكي
جل الذي والاك فينا عندما   أولاك حسناً عز عن إدراك

ومن موشحاته الصوفية:

يالطيف الشمائلِ   بك هاجت بلابلي
في محياك شامة   حيّرت كل عاقلِ
لو رأى منك لفتة   عابد فيك لافتتن
هب لمضناك رشفة   منك تطفي غلائلي
أقبل إلينا صادقاً   وبعهدنا كن واثقاً
سلمى السحاري تنجلي   في المشهد الأسنى العلي
ولقد تحلت من حلي   عقد لآل ودرر

ولما اشتدت وطأة المرض عليه قال يرجو ربه:

يا رب قد عجز الطبيب فآوني   بخفي لطفك واشفني يا شافي
أنا من ضيوفك قد حسبت وإن من   شيم الكرام البر بالأضياف
لا تحرمني نيل عفوك واسقني   من حضرة القدس الرحيق الصافي[6]

وكان من عادة الناس الاستغاثة بالأنبياء والتشفع بالأولياء وأقطاب الطرق الصوفية، وزيارة قبورهم، وتقديم النذور اليهم، اعتقاداً منهم أنهم خير واسطة للاتصال بالذات الإلٓهية لتحقيق رغباتهم. وكان رجال الدين التقليديون يعززون هذا الاتجاه ويقدمون أنفسهم قدوة لغيرهم. فهذا الشيخ يوسف بن عمر البشتاوي، ينظم العديد من القصائد الصوفية، ومنها قصيدته التي يمدح فيها النبي يحيى ويستغيث به:

باكر وصل بني أمية في الدجا   واعطف على كنز السماح معرجا
وارقب مهب الجود من أعتابه   والزم لذياك المقام أخا الحجا

---

(٦) الجندي، أدهم: **أعلام الأدب والفن**، ص ٢١٤ - ٢١٦.

يـم وقف متضرعاً بجنابه ... وابسط أكف الفقر في باب الرجا

وادعوه يا يحي الحصور وقل له ... عطفاً على جانٍ إليك قد التجا

يا سيداً وصف الإله كما له ... في محكم التنزيل أضحى مدرجا

ذو الجاه يرجى في الخطوب ولم يزل ... عند الشدائد مسعفاً ومفرجا

إني رجوتك حاجة فاشفع بها ... عند الكريم ومن رجاك فقد نجا

عجل بها يا ابن الكرام أجب أجب ... واسأله لي من كل ضيق مخرجا

سل خالقي في ما رجوت إجابة ... فالأمر الجا للّجاح وأحوجا

صلى عليك الله ربي دائماً ... ما البدر أشرق فاستنار به الرجا

وكانت زيارة القبور من العادات المستحبة السائدة وبخاصة زيارة قبور الأولياء والأقارب، يقول الشيخ يوسف في هذا الصدد:

زر والديك وقف على قبريهما ... فكأنني بك قد حملت إليهما

لو كنت حيث هما وكانا بالبقا ... زاراك حبواً لا على قدميهما

ما كان ذنبهما إليك فطالما ... منحاك نفس الود من نفسيهما

كانا إذا ما أبصرا بك علة ... جزعا لما تشكو وشق عليهما

بشراك لو قدّمت فعلاً صالحاً ... وقضيت بعض الحق من حقيهما

وقرأت من آي الكتاب بقدر ما ... تستطيعه وبعثت ذاك إليهما

فاحفظ حفظت وصيتي واعمل بها ... فعسى تنال الفوز من بريهما[7].

ومن شيوخ هذه الفترة الذين ساروا على النهج نفسه، الشيخ حسن بن سليم الدجاني[8]، وشقيقه الشيخ حسين. تولى الأول الافتاء في مدينة يافا لمدة أربعين سنة. ومن شعره في التصوف ومدح الرسول قوله:

قد عيل صبري وأيام الصبا ذهبت ... واليد صفر ودمع العين كالديم

(٧) ولد الشيخ البشتاوي في نابلس، ثم انتقل إلى دمشق حيث درس فيها وانتسب إلى الطريقة النقشبندية وتوفي عام ١٢٦٣ هـ. البيطار: **حلية البشر**، ج ٣، ص ١٦٠٨ - ١٦١٠.

(٨) ولد الشيخ حسن الدجاني في يافا سنة ١٢٣٠ هـ/ ١٨١٥ م، ودرس في الأزهر، وكان يتقن التركية والفارسية. توفي عام ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م. المصدر السابق، ج ١، ص ٥٢١ - ٥٢٣.

ولي حنين سما في كل آونة ... لخير من جاء بالتبيان والحكم

وقد خشيت من الأيام تمنعني ... عن الوصول لباهي النور والشيم

يا رب سهل طريقي في زيارته ... من قبل أن تعتريني شدة الهرم

ومن قوله يستغيث برسول الله (ص):

رسول الله لاحظني فإني ... ضعفت جوانجاً وكبرت سنّا

فلي أمل علا فيكم قوي ... ومن صغري لقد أحسنت ظنّا

فقربني رسول الله فضلاً ... وعجّل لا تطيل البعد عنّا

فبالنظر الشريف العبد يرقى ... إلى مرجاه من سعدى ولبنى

فلاحظني فعيل الصبر مني ... عسى فيكم يقر العبد عينا[9]

ولم يختلف الشيخ خليل التميمي الداري[10] والشيخ عبد القادر الدجاني[11] والشيخ إبراهيم الدباغ[12] والشيخ خليل الخالدي[13] والشيخ صالح التميمي[14].

غير أن خير من يمثل هذا الاتجاه التقليدي الشيخ يوسف النبهاني[15]، الذي

(٩) المصدر نفسه، ص ٥٣٧ - ٥٤٢.

(١٠) ولد في الخليل عام ١٢٢٩ هـ/ ١٨١٤ م وصحب عمه إلى الآستانة ثم عاد إلى الخليل وتولى الافتاء فيها وتوفي عام ١٣١٧ هـ/ ١٩٠٠ م. المصدر نفسه، ص ٥٩٤.

(١١) ولد في يافا ودرس في الجامع الأزهر وتوفي في التسعينات من القرن الثالث عشر الهجري، المصدر نفسه ص٧١.

(١٢) ولد في يافا عام ١٨٥١ م ونشأ فيها، ثم رحل إلى مصر واستوطنها حتى وفاته. جمع أشعاره ابن أخيه مصطفى الدباغ وأصدرها في ديوان «الطليعة» و«حديث الصومعة». الجندي، أدهم: **أعلام الأدب والفن**، ج ١، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(١٣) ولد في القدس ودرس في الأزهر والتحق بمدرسة القضاة في الآستانة وولي القضاء في حلب بين عامي ١٩٠١ و١٩٠٣. العودات، يعقوب: **أعلام الأدب**، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(١٤) ولد في نابلس سنة ١٨٧٧ م ودرس في الأزهر، عمل في القضاء في مجدل غزة وتوفي بدمشق عام ١٩٢٢. الجندي، أدهم: **أعلام الأدب والفن**، ج ٢، ص ١٢٥.

(١٥) ولد في قرية أجزم من قرى حيفا عام ١٢٦٦ هـ/ ١٨٥٠ م. درس في الأزهر ثم عاد إلى الآستانة عام ١٢٩٣ هـ وبقي فيها نحو سنتين ونصف سنة. وعين بعدها قاضياً في كوي سنجق في ولاية =

كان له باع طويل في التصوف والتأليف في هذا الموضوع. كما كان شاعراً مبرزاً. فقد ألف حوالي ثلاثين مؤلفاً في التصوف منها «الأنوار المحمدية» و«الشرف المؤبد لآل محمد» و«رسائل الوصول إلى شمائل الرسول» و«الأحاديث الأربعين في فضائل سيد المرسلين» و«الأحاديث الأربعين من أمثال أفصح العالمين» و«أفضل الصلوات على سيد السادات» و«سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين» و«صلوات الثناء على سيد الأنبياء» و«حجة الله على العالمين معجزات سيد المرسلين» و«الهمزة الألفية المسماة طيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء» و«سعادة المعاد في موازنة بانت سعاد» و«النظم البديع في مولد الشفيع» و«القول الحق في مولد سيد الخلق» و«خلاصة الكلام في ترجيح دين الإسلام» و«رسالة في مقال النعل الشريف» و«جامع الصلوات ومجمع السعادات» و«الفضائل المحمدية» و«المجموعة النبهانية في المدائح النبوية» و«جامع الثناء على الله» و«هادي المريد إلى طرف الأسانيد» و«السابقات الجياد في مدح سيد العباد» و«حجة الله على العالمين» و«جامع كرامات الأولياء» و«أسباب التأليف» و«شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الحق» و«جواهر البحار في فضل النبي المختار»[16].

هذا وقد ملأ مؤلفاته بالأشعار التي عارض بها بعض أشعار المتصوفين المشهورة مثل معارضته لقصيدة «بانت سعاد» والتي تبلغ نحو مئة وخمسين بيتاً نقتطف منها هذه الأبيات:

هواي طيبة لا بيضاء عطبول   ومنيتي عينها الزرقاء لا النيل
عذراء جلت عن التشبيب إذ جليت   هامت بها الخلق جيلاً بعده جيل
كل المحاسن جزء من محاسنها   أجمالها بجمال الكون تفصيل

= الموصل، وعاد إلى دار الخلافة عام ١٢٩٧ هـ فأقام فيها مدة سنتين، عين بعدها رئيساً لمحكمة الجزاء في اللاذقية عام ١٣٠٠ هـ. وأقام فيها خمس سنوات ثم تولى رئاسة محكمة الجزاء في القدس. وفيها تلقن الطريقة القادرية على يد الشيخ حسن أبي حلاوة الغزي. وبعد عام واحد عين رئيساً لمحكمة الحقوق في بيروت. وفيها ألف معظم كتبه وطبعها. البيطار: **حلية البشر**، ج ٣، ص ١٦١٢ - ١٦١٦.

(١٦) ياغي، عبد الرحمن: **حياة الأدب الفلسطيني**، ص ١٢٦، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٣.

متى أراها بطرف ظل يكحله   من تربة البيد ميل بعده الميل
يا برق أشبهت ثغر الحر مبتسماً   هل منك يا برق للأعتاب تقبيل
قل نازح في بلاد الشام حاجته   منكم قبول فقولوا أنت مقبول
يهوى الحجاز وتصبيه معالمه   شوقاً لأهليه والبيد المجاهيل
أستغفر الله من قول أحيله   صداً ومعناه بالتحقيق تخييل
يا سيد الرسل يا من لا يزال له   لكل صعب باذن الله تسهيل
عليك أزكى صلاة الله وهي لنا   مسك الختام بها للخير تكميل[17].

والواقع إن هذه الفئة من رجال الدين ظلت منغلقة على التراث الإسلامي في مراحل الجمود تنهل منه وتقلد من سبقها. فعاشت متجاهلة أو جاهلة لما حدث في المنطقة من تجديد، وما هب عليها من رياح غربية منذ مطلع القرن التاسع عشر. ولما أصدر الشيخ يوسف النبهاني كتابه «ديوان المدائح» وتضمن تعريضاً بالديانات الأخرى، هب مواطنه الشيخ محمد القلقيلي الذي أتيح له أن يطلع على التطور الذي شهدته البلاد، يرد عليه ويسفّه آراءه لأنها تتعارض والروح العربية القومية وتعبث بالمشاعر الوطنية. فنشر في جريدة «الوطنية» المصرية مقالة بعنوان «العبث بالوطنية، إلى الحكومتين العثمانية والمصرية» في ٩ جمادى الأولى سنة ١٣٣٠ هـ، جاء فيها:

«في بيروت شيخ مخرف نشأ في حجر الاستبداد، وتمرغ في أحضان كبار المستبدين، فتبوأ مركزاً كبيراً في حكومة بيروت، إذ كان رئيس محكمة الحقوق فيها. وأمّنه على هذا المركز يومئذ قصائده في مدح عبد الحميد وأبي الهدى وعزت العابد والولاة الطغاة البغاة. ولم ينس حظه من العامة الذين يتبعون كل ناعق. فكان ينظم لهم القصائد والأناشيد في مدح النبي (ص) ويملأ بها كتباً يطبعها على نفقة أغنيائهم...

«وكنا ننتظر من هذا الرجل... أن يحفظ عهده في علماء دينه ويراعي مبادئه الراقية في احتفاظه بشعور الملل والنحل في بلاده وعدم مسها بما يسوء.. ولكنه كان

(١٧) ياغي، ص ١٤٧ - ١٤٨.

على النقيض من ذلك. . . ومن مصائب العثمانيين أن يظهر هذا الكتاب لشيخ معمم في وقت يجتهد فيه عقلاؤهم بإصلاح ذات البين بين عناصرهم والتوفيق بين من يجمعهم وطن واحد تحت سماء واحدة. . .».

٢ ـ فئة المجددين

تأثرت هذه الفئة من علماء فلسطين بآراء الشيخ جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا وغيرهم من المجددين الذين نادوا بتنقية الدين مما علق به من شوائب أدخلها المتصوفة، وقلع ما رسخ في عقول العامة من فهم لبعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي، وإزالة الأوهام والضلالات والبدع التي علقت في أذهان المسلمين عبر القرون، والتخلص من الانحلال الداخلي في المجتمع الإسلامي، ورفض التقليد الذي جرى عليه علماء المسلمين، والعودة إلى منابع الفكر الإسلامي الأولى، واعادة النظر في المذاهب الإسلامية على ضوء معطيات الفكر الحديث، وفتح باب الاجتهاد، والتوفيق بين الدين والعلم، وإصلاح المدارس والمعاهد الإسلامية القائمة، والدفاع عن الإسلام بالرد على الملاحدة وتفنيد حججهم.

ولعل خير من يمثل هذه الفئة من علماء فلسطين الشيخان أسعد الشقيري[١٨] وسعيد الكرمي[١٩]. فقد كان الشيخ الشقيري داعية لأفكار جمال الدين الأفغاني

(١٨) ولد أسعد الشقيري في عكا عام ١٨٦٠ م ودرس في مدرستها الإبتدائية، ثم ذهب إلى مصر عام ١٨٧٥ م حيث دخل الأزهر والتقى بالشيخ جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده وتأثر بآرائهما ودعوتهما. وبعد أن حصل على شهادة العالمية من الأزهر عاد إلى عكا والتحق بالقضاء الشرعي. وفي عام ١٩٠١ عين مستنطقاً في اللاذقية. وما لبث أن رحل إلى الآستانة عام ١٩٠٥ فتعرف هناك بالشيخ أبي الهدى الصيادي، مستشار السلطان عبد الحميد للشؤون الدينية واحد كبار شيوخ الطريقة الرفاعية، فأصبح أميناً لمكتبة السلطان عبد الحميد، ثم رئيساً لمحكمة الاستئناف الشرعية في أضنة. واعتقل بعد مدة لصلته بعبد الحميد الزهراوي أحد قادة الحركة العربية. ونفي إلى تبنين في لبنان، ثم أفرج عنه بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨. وتوثقت صلاته بقادة «جمعية الاتحاد والترقي» حتى أصبح المفتي العام للجيش العثماني الرابع بعد إعلان الحرب العالمية الأولى. وغدا من أقوى المقربين لدى أحمد جمال باشا، قائد الجيش العثماني الرابع المرابط في بلاد الشام. وتوفي عام ١٩٤٠.

(١٩) ولد سعيد الكرمي بطولكرم عام ١٨٥٢، ودرس العلوم الإبتدائية فيها، ثم سافر إلى القاهرة والتحق

ومحمد عبده في الإصلاح الديني من خلال خطبه ومقالاته التي كان ينشرها في صحف فلسطين ودمشق وبيروت. تأثر الشقيري بآراء الأفغاني في الرد على نظرية داروين في أصل الأنواع التي ضمنها في كتابه «الرد على الدهريين». قال في إحدى مقالاته:

«وقد حارت العقول وضلت الأفكار وحق لها ذلك في حكمة إيجاد الخلق والباعث له. ولما هم الباحثون بفتح هذا الباب المغلق هلك ثلاثة من أرباب النظر: الأول من قال ان الوجود صدر على سبيل الاتفاق مصادفة بتأثير الطبيعة، وهو يعلم أنها قوة مبنية في الأشياء لا وجود لها في الحس والمشاهدة بل هي خالية من الشعور. وأين هي من هذا البناء المحكم والصنع المتقن. والثاني من قال ان الخلق من لوازم الوجود، وان الحاجة ماسة إليه، وهو يعلم أن الباري تعالى له الغنى المطلق، ولو كان محتاجاً لشيء لم يكن إليها. والثالث من قال إن الضرورة دعت لذلك الايجاد وهو يعلم أن المضطر مقهور والقاهر له فوقه. وإذا تقرر هذا فالحكمة الربانية مخزونة في خزانة الحديث القدسي الموحى به من رب العالمين وهو قوله جل جلاله: كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني»[٢٠].

وأرجع سعيد الكرمي أيضاً انتظام المجتمع الإنساني إلى الدين، في محاضرة ألقاها في المجتمع العلمي العربي في دمشق في ٨ تموز عام ١٩٢١ بعنوان: «بماذا يكون انتظام المجمع الإسلامي». وقال في هذا الصدد:

بالأزهر. واتصل هناك بالأفغاني وعبده وقامت بينه وبينهما صلات وثيقة لمدة طويلة من الزمن وعاد إلى طولكرم بعد نيله شهادة العالمية وعين مفتشاً للمعارف، ثم نقل إلى القضاء الشرعي وعين مفتياً لقضاء بني صعب (ومركزه طولكرم). دخل حزب اللامركزية العثماني وأصبح معتمد الحزب في القضاء المذكور. اعتقل بعد إعلان الحرب العالمية الأولى، وبقي في السجن عامين وسبعة شهور. وأفرج عنه في شباط ١٩١٨ فعاد إلى بلدته. ولما تشكلت الحكومة العربية بدمشق عين في المجمع العلمي العربي عام ١٩١٩، وانتخب نائباً لرئيس المجمع. وفي أيار ١٩٢٢ عين قاضياً للقضاة في الحكومة الأردنية، وتولى رئاسة المجمع العلمي الأردني في تموز ١٩٢٣. وبقي يشغل منصب قاضي القضاة ورئيس مجلس المعارف في شرق الأردن حتى عام ١٩٢٦ حيث عاد إلى مسقط رأسه وبقي فيه حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٣٥. الكرمي، عبد الكريم؛ سعيد الكرمي، ص ٢ ـ .

(٢٠) العودات، يعقوب، ص ٩١.

«إن الله تعالى خلق الخلق محتاجين، وفطرهم عاجزين، ليكون متفرداً بالغنى متفرداً بالقدرة. وجعل الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لأن من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه. والإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه، واستعانته به صفة قائمة في جوهره. قال تعالى: «وخلق الإنسان ضعيفاً»... والإنسان مدني بالطبع أي انه لا يقوم بحاجياته، وقد جعله الله تعالى بهذه الصفة نعمة منه عليه... ثم أنه جل وعلا جعل لنيل الإنسان حاجته أسباباً ولدفع عجزه حيلة وله عليها بما وهبه من نعمة العقل وأرشده إليها بالفطنة، وأنعم الله تعالى على الناس بما أودعه في الأرض من الخيرات حيث قال «خلق لكم ما في الأرض جميعاً».. ثم أودع فيهم غرائز التزموا بطبعهم المحافظة عليها مثل الغيرة والإباء وحب الأثرة وهي مراكب جامحة إن لم تلجم وتروض. فشرَّع عز وجل الشرائع على لسان رسله الكرام لحفظ هذا المجتمع من الفساد والاختلال».

وهو يرى بعد ذلك أن أساس إصلاح المجتمع الإسلامي وانتظامه بأسره في ستة أمور هي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم وأمل فسيح[21].

وإذا كان أسعد الشقيري وسعيد الكرمي قد وقفا موقف الرفض من النظريات الغربية، والمادية منها بوجه خاص، مع قبولهما بمنجزات العلم والتكنولوجيا الغربية، فقد وقف إسعاف النشاشيبي موقفاً متطرفاً عندما آمن بنظرية داروين ورهج لها، فاقتفى بذلك آثار شبلي شميل وفرح انطون وسلامه موسى في مصر. يقول النشاشيبي في كتابه «كلمة موجزة في سيرة العلم وسيرتنا معه»:

«كانت هذه الكرة مكان الجماد. فجاء انقلاب فكان النبات. ثم ردف الانقلاب الأول ثان فكان الحيوان. ثم عزَّزا بثالث ورابع فتبدت الأناسي. وكانوا أربعة أنواع. استأصل التناحر على البقاء ثلاثة منها من سِنْخها ولم يثبت في ميدان الجهاد في الحياة إلا نوع واحد فذ... وهذا النوع هو النوع البشري الذي نعتزي إليه.

(21) الكرمي، عبد الكريم، ص ١٧٨ - ١٧٩.

اجتاز الإنسان أفق الحيوانية، وصار إلى أفق الإنسانية. فطلع عليه الفكر في حالكات الحالة اللاإدراكية واللاشعورية. ولم ينفك يضيء له كلما أظلم إلى أن بلغ من الحضارة المبالغ. ونال المآرب والرغائب. وقذف بالعجائب والغرائب. وبهر وسحر أعين الناظرين»[22].

ودعا النشاشيبي إلى فتح أبواب العرب لحضارة الغرب وندد بكل من يقاوم ذلك، معتبراً إياه عدواً لأمته. ونادى أيضاً بأن تحمل هامة العربي عقلاً أوروبياً وأن يقل صدره قلباً عربياً. يقول بهذا الخصوص:

«... فالمدنية الغربية، يا سادة، فيها معقلنا. وفيها سد الصين. وفيها المنجاة من كل فعْلٍ شرقي أو غربي مقتحم، والخوف من ذلك الجار مثل الخوف من ضيف الدار. فالعربي الذي يكرّه إلينا هذه المدنية، ويثلب علمها ونظامها وفنها، ويسخر من روادها لا يروم، وحياتكم، أن نحيا في هذا الوجود أو أن نسود، بل يريد أن نبيد وأن نعود في الناس مثل العبيد. وهذا عدوّ وما تمنى عدو لعدو خيراً...

«فالبس، والبس جلد القوة. والقوة غربية. فاطلبها في الغرب... واعلم علمه وأخبر فنه، وابل نظامه، وحقق يا هذا تحقيقه. واسلك في الكون طريقه. وقبيح الشرق قبيح الغرب. فلا تجهل ولا تقبح ولا تقولن ذاك هناك فثمة داء وهناك دواء. فيا عليل اطلب هذا ودع السم وجوّد عيشك تجويده. واتقن صنعك اتقانه فلن يفلح بعد اليوم إلا التقنّ. واقتصد في دنياك اقتصاده. وجُدْ إما وفرلك جوده. واخلص اخلص في كل عمل قلدته إخلاصه فإنما الخلاص في الإخلاص»[23].

ب - التيارات الدينية المسيحية

كان معظم المسيحيين من سكان فلسطين والأردن، في مطلع القرن التاسع

(22) النشاشيبي، اسعاف: كلمة موجزة في سيرة العلم، ص ٧ - ٨.

(23) النشاشيبي، اسعاف: قلب عربي وعقل أوروبي، ص ١٥ - ١٧.

عشر من طائفة الروم الأرثوذكس مع أقلية صغيرة من الروم الكاثوليك. ومع دخول الإرساليات التبشيرية إلى البلاد في نهاية الأربعينيات من القرن بدأ الروم الأرثوذكس يعتنقون المذاهب الجديدة الوافدة. فقد أنشئت أول أسقفية بروتستانتية في القدس في مطلع عام ١٨٤٢. غير أن السلطات العثمانية لم تعترف بها ولم تعترف بالطائفة البروتستانتية كملة عثمانية إلا عام ١٨٥٠، بعد وساطة من الحكومة البروسية. وسارع اللاتين إلى بعث بطريركيتهم في القدس عام ١٨٤٧ لمنافسة النشاط البروتستانتي. والحقيقة أن التنافس التبشيري في فلسطين والأردن كان صورة من صور التنافس الدولي في المنطقة. فقد كانت بريطانيا وبروسيا والولايات المتحدة الأمريكية تدعم النشاط البروتستانتي وتتذرع به للتدخل في شؤون الدولة العثمانية والحصول على المزيد من الامتيازات والمكاسب منها. بينما كانت فرنسا والنمسا تؤيدان النشاط التبشيري الكاثوليكي وتعتمدانه لبسط نفوذهما.

رافق النشاط التبشيري البروتستانتي إنشاء المعاهد المختلفة التي نقلت إلى عرب فلسطين التيارات الفكرية الحديثة في الغرب، والتي وقفت منها الكنائس المسيحية الأخرى موقف المتحفظ أحياناً والرافض أحياناً أخرى. فقد ترجمت بطريركية اللاتين رسالة البابا لاون الثالث عشر إلى العربية ووزعتها على نطاق واسع. وهي الرسالة التي هاجم فيها الفوضويين الأوروبيين والدعوة إلى الاشتراكية القائلة بملكية الدولة لوسائل الإنتاج التي اعتبرها ظلماً يرتكب بحق أصحاب الملكية الفردية ووسيلة لهدم نظام الهيئة الاجتماعية. يقول البابا في رسالته تلك:

«فالفوضويون بعد أن أثاروا نقع حسد المعوزين على المتمولين قالوا بأنه يجب لحسم هذا الداء أن يلغى تملك الأموال الإفرادي الخاص، وتضم عوضاً عنه هذه الأموال كلها إلى بعض، وتُجْعَلُ مشتركة بين الجميع، فيوكل أمر تدبيرها إلى عهدة رؤساء المدن أو وكلاء الممالك واهمين أنه بتحويل الأموال من الأفراد إلى الجمهور وبجعلها أسباب راحة المعيشة بين الناس فوضى يتأتى لهم بسهولة استئصال شأفة هذا الشر.

«على أن مذهبهم هذا قاصر عن ارتاج باب هذا النزاع حتى انه يؤول على

الفَعَلَة أنفسهم بالضرر. وفضلاً عن ذلك فهو مجحف بالعدل كل الأجحاف لأنه يهتضم حقوق أرباب الملك الشرعيين ويشوش حقيقة وظائف أولياء الحكم وينتقص نظام الهيئة الاجتماعية كلها»[٢٤].

ويفند البابا في رسالته هذه نظرية ماركس في الصراع الطبقي معتبراً التعاليم المسيحية كافية لحل أي صراع في داخل المجتمع:

«فالشر الأساسي في هذه المسألة هو الإيهام في أن فئات الهيئة الإجتماعية متعادية طبعاً، كأن الطبيعة قد جبلت المثرين والمعدمين على التناحر والتنازع الشديد. وهذا يشذ عن الحق والصواب حتى أن عكسه حقيقة راهنة. وهو كما أن في الجسد أعضاء مختلفة تنتسق مع بعضها فينشأ عن ذلك الإعتدال السوي الذي يمكننا أن ندعوه بالصواب هنداماً، كذلك شاءت الطبيعة أن ينتسق في الألفة البشرية هاتان الفئتان المتجانستان وتلتئما سواءً لينشأ عنهما التوازن والتكافؤ، وكل منهما تفتقر إلى الأخرى. إذ لا يمكن أن يقوم المال بدون عمل ولا العمل بدون مال... والحال أن للتعاليم النصرانية قوة عجيبة ومتنوعة ليس على حسم النزاع فقط بل على إستئصال جرثومته أيضاً»[٢٥].

ثم يشن البابا هجومه على النقابات المهنية متهماً القائمين عليها بالاحتكار والتعصب فيقول:

«وإنما الرأي العام المؤيد بأدلة كثيرة هو ان هذه الجمعيات يرأسها غالباً أناس تحت طي الخفاء ينهجون لها طرائق مخلة بالاسم المسيحي وسلام الشعوب. وباحتكارهم جميع وجوه المكاسب يكرهون من يأبى الانضمام إليها على تحمل العقاب بالفقر[٢٦]...».

ولكنه يعود فيحبذ قيام هذه النقابات على قواعد الدين المسيحي:

(٢٤) رسالة البابا لاون الثالث عشر، ص ٧ - ٩.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٦ - ٢٧.
(٢٦) المصدر نفسه، ص ٨٠.

«فإذا ما وضع أساس نظامات الجميعات على قواعد الدين تمهدت الطريق لتوطد علائق أعضائها المتبادلة فيستتب السلم بينهم وتتكلل مساعي الجمعيات عينها بالنجاح»[٢٧].

لقد جاءت رسالة البابا لاون الثالث عشر هذه في وقت سابق لأوانها، لأن مثل هذه الحركات الإشتراكية لم تظهر آنذاك في الشرق العربي، وإن كان بعض المفكرين في مصر والشام حبذ الأفكار الإشتراكية وبشّر بها، لكنها لم تبلغ مرحلة التنظيم الفعلي. وكذلك الحال بالنسبة للنقابات المهنية التي لم تر النور في هذه البلاد إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

غير أن أهم التطورات حصلت في صفوف الطائفة الأرثوذكسية. فمن المعروف أن بطريرك هذه الطائفة وكبار الأكليروس فيها من اليونانيين، الذين يشكلون «أخوية القبر المقدس». فقد احتكروا المناصب العليا في مطرانيات فلسطين والأردن كافة قروناً عدة ولا يزالون ولم يسمحوا لأي عربي من الطائفة أن يرقى إلى أي منصب ديني رفيع. فأثاروا بذلك حفيظة أبناء الطائفة العرب. ومع نمو الوعي السياسي في البلاد اشتد التذمر في صفوف ابناء الطائفة وتحول إلى حركة وطنية منظمة بعد صدور خطي شريف همايون في الثامن عشر من شباط عام ١٨٥٦ م. فقد نصت المادة الثانية منه على أن «على كل طائفة من الطوائف المسيحية أو الطوائف غير المسلمة أن تعيد النظر وتدقق في فحص ما لديها من الامتيازات والمنح أمام مجالس تشكل خصيصاً لهذا الغرض في مراكز الرئاسات الدينية. ويصير تشكيل هذه المجالس بتنسيب سلطنتي، وتكون تحت مراقبة بابي العالي. ويصير البحث فيها عن الإصلاحات التي يجب أجارؤها في هذا الزمان، زمان الرقي والمدنية. وكل من تلك المجالس يجب أن يقدم تقاريره بشأن ما يتفق عليه من الإصلاحات إلى بابي العالي».

وحددت المادة الثالثة من هذا المرسوم صلاحيات المجالس المختلطة، التي ستدير شؤون كل طائفة من هذه الطوائف: «وأن إدارة الأمور الطائفية للمسيحيين ولبقية

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٨٧.

الطوائف غير المسلمة ستكون جارية تحت إدارة مجالس ينتخب أعضاؤها من رجال الدين ومن أفراد الشعب لكل طائفة»[٢٨].

وبناء على ذلك تشكلت المجالس المختلطة لكل الطوائف المسيحية باستثناء أكبر هذه الطوائف جميعاً، الطائفة الأرثوذكسية. فقد سارعت البطريركية في القدس إلى تقديم عريضة، أغرت بعض أفراد الطائفة بتوقيعها، إلى الحكومة العثمانية تطلب فيها إعفاءها من تشكيل المجلس المختلط بحجة عدم وجود رجال متعلمين ومؤهلين للقيام بواجبات هذا المجلس بين أبناء الطائفة، والأكتفاء بمجلس أخوية القبر المقدس المؤلف من الرؤساء الروحيين اليونانيين.

وإحتج قادة الطائفة العربية الأرثوذكسية على هذا التصرف من طرف البطريركية. وعند إنتخاب بطريرك جديد للقدس في آذار ١٨٧٣ ذهب وفد منهم برئاسة الدكتور جرجي صروف إلى الآستانة، واحتج على عدم اشتراك ممثلي الطائفة في انتخاب البطريرك الجديد، وفقا لما جاء في خطي شريف همايون. ولكن السلطات العثمانية لم تعر اهتماماً لمطالب الوفد فعاد إلى فلسطين بخفي حنين.

وتطورت المطالب العربية إلى أن تحددت بما يلي:

١ ـ تأليف مجلس مختلط للطائفة الأرثوذكسية مهمته اختيار البطريرك والإشراف على مالية البطريركية والمشاركة في اختيار الأساقفة.

٢ ـ الدخول إلى أخوية القبر المقدس التي كانت مقتصرة على اليونانيين.

٣ ـ إعطاء الرهبان العرب رواتب ثابتة كما نص على ذلك خطي شريف همايون.

٤ ـ فتح المزيد من المدارس العادية والدينية من أموال البطريركية.

وقدم العرب الأرثوذكس مطالبهم هذه في كتاب مثير ألفه عبد الأحد الشافي تحت اسم مستعار (سليم ميخائيل شحاده) عام ١٨٩٠.

(٢٨) قزاقيا، خليل: تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية، ص ١٧٣.

ولما أعلن الدستور العثماني في ١٠ تموز ١٩٠٨، هب الوطنيون الأرثوذكس في فلسطين والأردن يطالبون الحكومة الدستورية برفع الظلم عن أعناقهم واسترجاع حقوقهم التي سلبها الرهبان اليونانيون. وعقد أبناء الطائفة الاجتماعات في مختلف المدن. ووقف خليل السكاكيني في اجتماع أبناء الطائفة في القدس وقال:

«سقط استبداد الحكومة وبقي إستبداد الرئاسة الروحية. فلنعمل على إسقاطه، ولا تخشوا في ذلك بأساً، لا تخافوا السماء لأن سلطتهم ليست من السماء. ولا تخافوا من الحكومة لأن الحكومة لا تؤيد هذه السلطة. ولا تخافوا أن تتهموا بنكران الجميل فليس لهم علينا أقل جميل، بل كلكم تعرفون والسماء والأرض تعرفان أنهم أساءوا معاملتنا، احتقرونا، أذلونا، وقفوا في طريق تقدمنا... وإذا سكتم أحال الناس عليكم باللوم والتقريع».

وانهالت البرقيات على باب الصدارة العظمى ومجلس المبعوثان في الآستانة تطالب بإنصاف العرب الأرثوذكس. فطلبت الحكومة إرسال وفد يمثل الطائفة إلى دار الخلافة. فتألف الوفد وبلغ الآستانة في كانون الثاني عام ١٩٠٩[٢٩]. وتشكلت لجنة حكومية للبحث في مطالبه ووصلت إلى القدس واستمعت إلى الأطراف المختلفة. غير أن جهودها باءت بالفشل، ولم ينل العرب الارثوذكس شيئاً من حقوقهم.

وتبلورت مطالبهم بعد ذلك في برنامج محدد يتألف من النقاط التالية:

١ ـ تشكيل مجلس جماعة يكون حائزاً على صلاحية إجراء المهمات المبينة في المادة (١١) من مواد القانون الأساسي.

٢ ـ تشكيل مجلس مختلط برئاسة البطريرك يكون ثلث أعضائه من الرهبان والثلثان الآخران ينتخبان من الأهالي الذين تحت إدارة بطريركية القدس الروحانية من

(٢٩) تألف الوفد من السادة جرجي زخريا وخليل السكاكيني عن القدس، وخليل قزاقيا ويعقوب دحبورة عن بيت لحم، إوحنا العيسى وفريد كساب عن يافا، واسكندر الخوري عن بيت جالا وبشارة قعوار عن الناصرة، وفضول ربيز عن حيفا، وجاد حبيب حوا عن عكا، وبشارة عطاالله عن جنين. قزاقيا، خليل، ص ١٩١.

أجل الإشراف على المعابد والمدارس والأوقاف، وإدارة الشؤون المالية للبطريركية، وتولي الأمور العائدة للأبرشيات التابعة للبطريركية.

٣ ـ قبول الوطنيين الارثوذكس في سلك الرهبنة وترقيتهم إلى الوظائف الروحانية بحيث يتساوون مع بقية الرهبان.

٤ ـ توسيع حق الأهالي بإنتخاب البطريرك المحلي وحصر وظائف السينودوس (المجمع المقدس) في الأمور الروحانية، وإدخال الكهنة الوطنيين في هذا المجمع.

٥ ـ إلزام الأساقفة بالإقامة ضمن دوائرهم الروحانية، ومنح الأهالي حق انتخاب كل أسقف أو ارشمندريت أو كاهن أو شماس.

٦ ـ منع الرهبان من التدخل في الأمور الدنيوية، وحثهم على معاملة المواطنين بالتساوي ودون أي تمييز[٣٠].

واستمر النزاع بين العرب الأرثوذكس والأكليروس اليوناني في ظل الانتداب البريطاني. وأصبحت مقاومة العرب للهيمنة اليونانية على شؤونهم الدينية لا تقل عن مقاومتهم للانتداب البريطاني والهيمنة الصهيونية على البلاد. واتجهت أنظارهم في هذه الفترة إلى لندن لتحقيق مطالبهم.

حملت جريدة «فلسطين» منذ صدورها لواء المعارضة العربية للأكليروس اليوناني، وأصبحت الناطق بلسان هذه المعارضة. وأصبحت هذه القضية الدينية من القضايا الوطنية الحساسة التي بحثها المؤتمر العربي الفلسطيني السادس الذي عقد في حزيران عام ١٩٢٣. وعقد في أعقاب هذا المؤتمر، المؤتمر الأرثوذكسي العربي الأول في حيفا في ١٥ تموز من العام نفسه واستمرت أعماله ستة أيام. وشارك فيه ثلاثة وخمسون مندوباً بينهم ثمانية مندوبين عن أرثوذكس الأردن. وتولى رئاسة المؤتمر اسكندر كساب وأعمال السكرتارية ميشال جورج خوري. وجاءت مقررات المؤتمر

(٣٠) المصدر السابق، ص ٢٠٤.

تأكيداً للمطالب السابقة الذكر مثل تأليف المجلس المختلط والمجالس الملية في المدن، وفتح مدرسة اكليركية، ومدارس إبتدائية وثانوية في فلسطين والأردن، وموافقة المجلس الملي في كل بلدة على سيامة أي شماس أو كاهن، وتعيين رواتب للكهنة الوطنيين، وفتح أبواب رهبنة أخوية القبر المقدس للرهبان العرب، ورفض قبول أي رئيس ديني لا يتقن اللغة العربية، وأن تقوم المجالس الملية مقام المحاكم الكنسية، وإصدار مجلة أرثوذكسية عربية[٣١].

غير أن سلطات الانتداب أصمت آذانها لمطالب العرب الأرثوذكس ولم تعرها أي اهتمام. فعقد المؤتمر الأرثوذكسي العربي الثاني في رام الله في حزيران ١٩٢٦ برئاسة عيسى العيسى صاحب جريدة «فلسطين» وجاءت قراراته تأكيداً للقرارات السابقة.

وفي تشرين الثاني عام ١٩٢٧ تشكل حزب أرثوذكسي عربي هدفه استعادة حقوق العرب المغتصبة من اليونان[٣٢].

وخلاصة القول، هيمن الصراع بين العرب والأكليروس اليوناني على حياة الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين والأردن، وبقيت هذه الكنيسة جامدة لا تتطور، ولا تساهم في تطوير رعيتها، ولا تسمح لرعاياها العرب الإنخراط في السلك الكهنوتي. ولذلك بقي تأثير العرب في هذه الكنيسة معدوماً، ولم يكن للنهضة التي عاشوها أي أثر في الكنيسة وفي تعاليمها وسلوكها.

---

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٧، عبود، أسعد: تاريخ الناصرة، ص ١٢٢.
Hopwood, PP. 202-204

(٣٢) Hopwood. op. cit. PP. 204-205.

الفصل الرابع

التيارات السياسية

بدأ الوعي السياسي في فلسطين بداية مبكرة. فقد أشار القنصل البريطاني في القدس في رسالة بعث بها إلى السفير البريطاني في الآستانة في الثالث من آب عام ١٨٥٤، إلى أن بعض العرب لا يحترمون الأتراك ويعتبرونهم غزاة فاتحين ومغتصبين للخلافة الإسلامية[١]. ويذكر أيضاً أن روسيا وراء هذه الحركة التي لم تجد بعد قائداً عربياً مؤهلاً لقيادتها. ويشير القنصل نفسه في رسالة أخرى بعث بها إلى السفير البريطاني في العاصمة العثمانية في ١٣ أيلول عام ١٨٥٨، إلى أن سكان فلسطين يفهمون من كلمة الاستقلال التي راجت في تلك الفترة، استقلالهم هم عن الدولة العثمانية، لأنهم يعتبرون الأتراك شعباً أوروبياً[٢]. ولا نعرف إذاكانت مثل هذه الأفكار من بقايا الشعارات والآراء التي خلّفها محمد علي باشا وابنه إبراهيم في المنطقة أم أنها مجرد أفكار فجّة تعبّر عن ردة الفعل العربية الإسلامية على الانتماء الأوروبي للأتراك!

لقد أحسّ عرب فلسطين كغيرهم من العثمانيين بظلم الدولة وطغيان ولاتها، وابتزاز ملتزميها قبل ذلك بكثير، ورفعوا عقيرتهم على الظلم والجور. فلما مات أحمد باشا الجزار فرحوا لزوال ظلمه.

وشارك الشيخ يوسف ضياء الدين الخالدي، أحد مفكري القدس وأعيانها في

---

(١) F.O. 78/1032 (Despatch from Finn to Clarendon dated 3 August 1854).

(٢) F.O. 78/1384 (Despatch from Finn to Malmesbury dated 13 September 1858).

مجلس المبعوثان العثماني الأول عام ١٨٧٧. وساهم في الحركة الإصلاحية العثمانية، وكانت له صلات وثيقة بأحد دعاة هذه الحركة السيد خليل غانم الذي هرب إلى باريس وأقام فيها بعد تعليق الدستور وتعطيل الحياة النيابية عام ١٨٧٨ (٣).

وأجاد روحي الخالدي (٤) في وصفه للظلم والإستبداد الذي اتسم به عهد عبدالحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٨). وتحدث عما أصاب أحرار العثمانيين من اضطهاد وتحقير وعذاب حتى «صار أرباب الدناءة والفساد يتقربون للمابين بالتملق والوشاية والتجسس على اخوانهم وأعمامهم وآبائهم. ومنهم من تجسس على أمه وأخيه فنفيا من دار السعادة. فكانوا يصورون للمتبوع الأعظم بمفترياتهم التَّبَعَةَ الصادِقةَ بصورة وحوش ضارية تريد افتراسه وغصب تاجه، ويزينون في عيني جلالته الاستبداد». وكان من نتائج هذا الاستبداد أن «اختل نظام المملكة وبطلت مراعاة الأحكام القانونية والسير في إدارة الدولة على الأصول والتقاليد المتعارفة من القديم، وفسد التعليم في المدارس وإنحرفت إدارة الأمور الداخلية والخارجية عن محورها ومالت إلى الإنحطاط».

ويسوق لنا مثالاً على الفساد الإداري ما قاله وزير الداخلية العثماني حينما

---

(٣) حقق الشيخ يوسف ضياء الجزء الأول من ديوان لبيد بن ربيعة أحد شعراء المعلقات وطبع هذا الجزء في فينا عام ١٨٨٠. وألف قاموساً للغة الكردية. روحي الخالدي: **تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب،وفيكتور هوكو**، الطبعة الثانية، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩٠٤، ص ٤٥، ١٤٧.

(٤) ولد روحي الخالدي عام ١٨٦٤ في القدس، وتلقى تعليمه الإبتدائي فيها. ثم انتقل مع والده الذي كان موظفاً في الإدارة العثمانية فدخل المدرسة الرشدية في نابلس والمدرسة الوطنية في طرابلس الشام، والمدرسة السلطانية في بيروت. وعين رئيساً لكتاب محكمة غزة. والتحق بالمكتب الملكي في الآستانة وقضى فيه ست سنوات فنال شهادته عام ١٨٩٣. وعاد إلى القدس فاشتغل معلماً في مدرستها الرشدية. وسافر بعد ذلك إلى باريس والتحق بمعهد العلوم السياسية وحصل على شهادته. ودخل بعد ذلك في كلية الآداب في السوربون حيث درس العلوم الإسلامية والشرقية. وعين مدرساً في جمعية نشر اللغات الشرقية. وشارك في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في باريس عام ١٨٩٧. وعاد إلى الآستانة فعين قنصلاً عاماً للدولة العثمانية في مدينة بوردو بفرنسا عام ١٨٩٩. وبقي في هذا المنصب حتى حدث الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨. وعاد بعد ذلك إلى القدس وانتخب نائباً عنها في مجلس المبعوثان وبقي كذلك حتى حل المجلس وتوفي عام ١٩١٣. **الهلال**، ج ٢، السنة ٢٢ (١ تشرين الثاني ١٩١٣) ص ١٥٢ - ١٥٣.

عيّن قائمقام لقضاء بئر السبع «إني أرسلك لغابة لم تدخلها بلطة الحطاب» (٥).

تأثر روحي الخالدي في آرائه ودعوته إلى الإصلاح بالفكر السياسي الفرنسي وبخاصة بمفكري الثورة الفرنسية مثل ديدرو ومونتسكيو وفولتيروروسو. فهو يعالج قضية الحرية مستشهداً بآرائهم. ويسوق لنا ما قاله مونتسكيو في أثر الحرية على الانتاج: «ومن القواعد التي قررها الفيلسوف الشهير مونتسكيو، مؤلف روح القوانين: إن الأراضي تقل غلتها بالنسبة لحرية سكانها لا بالنسبة لخصبها. فإذا كان الفلاح حراً عمّر الأرض الموات وجعلها مخصبة بعمله وحراثته. وإذا فقد الحرية اصبحت أرضه المخصبة مواتا بسبب الظلم والإستبداد» (٦).

غير أن الإنقلاب العثماني عام ١٩٠٨ هو الذي أطلق الأفكار من عقالها. فقد استقبله المثقفون العرب في فلسطين بحماس بالغ ورحبت به الصحف أجمل ترحيب. فقد جاء في افتتاحية العدد الأول من مجلة الأصمعي الصادرة في ١٩٠٨/٨/١٩ ما يلي:

«الحمدلله الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، ومنّ علينا بأن أطلق ألسنتنا في القول بعد أن كاد يقضي عليها بالتعقيد لطول احتباسها وراء الثنايا والشفاه. ومكّن أيدينا من العمل بعد أن مرت عليها السنون وهي مكبلة بالأصفاد حتى كادت تورثها الشلل. فلم يكن إلاّ طرفة عين حتى أصبحنا طليقي الأيادي والألسنة، فوجب علينا والحالة هذه أن أول ما نبدأ باستعمال هذه الأعضاء في حمد الله وعمل ما يرضيه، ومن ثم في السعي وراء كل ما هو نافع للإنسان والإنسانية والوطن والوطنية وتوطيد دعائم القومية وتمكين روابط الجنسية» (٧).

وإذا كانت مجلة «الأصمعي» أثنت على حرية الرأي والتعبير التي جاء بها

---

(٥) الخالدي، روحي: الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة: **الهلال** ج ٣ السنة ١٧ (ديسمبر ١٩٠٨) ص ١٥٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

(٧) يهوشع، يعقوب: تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني، مطبعة المعارف، القدس، ١٩٧٤، ص ٦٩.

الدستور فإن جريدة «الإنصاف» أشادت بالمساواة والإخاء وبعث الحياة العربية «فانصف المظلوم من الظالم وتساوى أمام العدل السيد والخادم»[٨].

ومثّل فلسطين في مجلس المبعوثان الذي تكوّن إثر صدور الدستور السادة روحي الخالدي وسعيد الحسيني وحافظ السعيد عن لواء القدس، والشيخ أحمد الخماش عن لواء نابلس، والشيخ أسعد الشقيري عن لواء عكا[٩].

وحينما قامت الردة الرجعية على يد السلطان عبد الحميد في آذار ١٩٠٩، وتحركت القوات العثمانية في سلونيك فخمدتها، وخلعت السلطان ونصبّت أخاه السلطان محمد رشاد على عرش المملكة العثمانية، نظم إسعاف النشاشيبي[١٠] قصيدة يمجد فيها الجيش العثماني، ويحيي الحرية، ويندد بالرجعية والإستبداد اللذين تمثلا في حكم عبدالحميد في أبشع صورهما، نقتطف منها هذه الأبيات:

اخطري اليوم في الربوع اختيالا ... لا تخافي من العدو اغتيالا
حَسِبَ القومَ نائمينَ وخَالا ... كان هذا الحسبانُ منه ضلالا
نسي الكامنين في سلنيك ... يرقبون الشؤون والأحوالا
فأتَوْهُ مزمجرينَ غِضاباً ... وأذاقوهُ شِدَّةً ووَبالا
انزلوه عن عرشه مستكيناً ... وأذلوه في الورى إذلالا

ويدعو الشرق العربي إلى النهوض والتخلص من الجهل والابتعاد عن التعصب الديني فالدين غالباً ما استغل واتخذ سبيلاً للظلم والإستبداد:

أيها الشرق طال نومك فانهض ... للمعالي وصافح الاقبالا

(٨) الإنصاف، العدد الأول ١٠ ـ ٢٣ كانون الأول ١٩٠٨ (الافتتاحية).
(٩) الهلال، ج ٣ السنة ١٧ (١ كانون الأول ١٩٠٨) ص ١٧٧.
(١٠) ولد إسعاف النشاشيبي في القدس وتعلم فيها. أنتج عدداً من الكتب مثل: «كلمة في اللغة العربية». و«قلب عربي وعقل أوروبي» و«العربية في المدرسة» و«العربية وشاعرها الأكبر» و«العربية والأستاذ الريحاني» و«البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي» و«مقام إبراهيم». توفي عام ١٩٤٨. (محمد عبد الغني حس: العربية في رجل، **المقتطف**، المجلد ١١٢، مارس ١٩٤٨، ص ١٩٤ ـ ٢٠٠).

اهجرِ الجهلَ والعمايةَ هَجْراً ... وأعِدَّ للعلم مرقلاً ارقالاً
اترك الدين في المعابد يبكي ... واحتفل بالفتاة شرقُ احتفالا
تخذوه يا شرقُ للظلم سبلا ... واضلوا وحرفوا الأقوالا[١١]

غير أن هذه الفرحة التي عمت أوساط المثقفين العرب ما لبثت أن اختفت، وذلك الحماس الذي أبدته نحو الدستور تلاشى، والتأييد الذي منحته لقادة جمعية تركيا الفتاة، ورجال جمعية الاتحاد والترقي زال. وحلت محل ذلك كله مرارة خيبة الأمل. فانقلاب الاتحاديين لم يحقق لهم ما كانوا يرجون. وسياسة التتريك التي انتهجوها جاءت صفعة قوية لآمال العرب القومية. وعبر الشاعر سليمان التاجي الفاروقي، الملقب «بدوي فلسطين»، عن خيبة الأمل هذه، فقال يعاتب السلطان محمد رشاد:

العُرْبُ لا شَقِيَتْ في عهدِكَ العَرَبُ ... سيوفُ مُلْكِكَ والأقلامُ والكتبُ
همُ الجبالُ فما حَمَّلْتَهُمْ حَمَلُوا ... لكنْ إذا مسَّهُمْ ضيمُ النفوسِ أبوا
وكلُّ فضلٍ أتى فالعربُ مصدَرُهُ ... بل أي فضلٍ أتى لم تَحوِهِ العربُ
كنا نعلّلُ بالدستور أنفسَنا ... بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقبُ
حتى إذا جاء لم يُحدِثْ لنا حَدَثاً ... ولا استجيب لنا في مَطْلَبٍ طَلَبُ[١٢]

وما لبث العتاب أن تحوّل إلى ثورة تغلي في النفوس بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وفرض الأحكام العرفية في البلاد، وسوق آلاف الشباب إلى ميادين القتال، وسلب المؤن من الفلاحين والتجار لتأمينها للجند المشاركين في حملة السويس، وتعطيل الحياة الإقتصادية، ونشر المجاعة بين السكان، وتقديم العشرات من الشباب المثقف إلى المجلس العرفي في عاليه، وتعليقهم على أعواد المشانق في ساحة المرجة في دمشق وساحة الشهداء في بيروت خلال عامي ١٩١٥ و١٩١٦. ونهض الشيخ سعيد الكرمي أحد ضحايا أحمد جمال باشا، قائد الجيش الرابع المرابط في سورية، يدعو العرب إلى رفع راية الثورة في وجه الأتراك:

(١١) النفائس العصرية، ج ١ (تشرين الثاني ١٩٠٩) م ٢، ص ٥٠ ـ ٥٢.
(١٢) الشهابي، مصطفى: **القومية العربية**، ط ٢، القاهرة ١٩٦١، ص ٢٥.

أَيَا أُمةً أَوْدَى بها مرضُ الجهلِ   وَذَلَّتْ فَصَارت عُرضَةَ النَّهبِ والقَتْلِ
أَمَا فيكُمُ ذو نُخوَةٍ عربيةٍ   يَعَافُ ورودَ الضيمِ من مَنْهلِ الذلِّ
ويرفَعُ عن أبناءِ عدنانَ عَارَها   ويدفَعُ عَنْهُمُ سُلْطَةَ الخائنِ النذلِ
فتلك بيوتُ الله ثُلَّتْ صُروحُها   كما ضِيمَ بالتَّفْريقِ مجْتَمعُ الشَّملِ
وأبناؤكم في الجوعِ والعريِ والعَنَا   كأنكم عما يُعانون في شُغْلِ
تحكَّمَ فيكم نسلُ جنكيزَ فاتكاً   بسيفٍ عتوٍ ليس يَعْروهُ من فَلِ
فَلَمْ ننسَ طَرَابُلْسَ حين تَقَدَّمَتْ   لها دولةَ الطلْيانِ بالخيلِ والرّجل[١٣]

وتأثر المثقفون ورجال الفكر في فلسطين بالتيارات السياسية التي ظهرت بين اخوانهم العرب في هذه الحقبة، وأثروا فيها. وسأقتصر على تناول تياري الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، والدعوة إلى القومية العربية، كما سأتناول صورة فلسطين في ذهن ابنائها، وموقفهم من الصهيونية والإنتداب البريطاني.

الدعوة الى الجامعة الإسلامية

من المعروف أن هذا التيار السياسي الذي ظهر في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان رداً على الغزو العسكري والثقافي للعالم الإسلامي، ونتيجة لعجز الدول الإسلامية عن إيقاف هذا الغزو أو دفعه. ويتلخص في الدعوة إلى وحدة المسلمين في كفاحهم ضد الغزاة، وقيام نهضة صحيحة تعتمد مبادىء الإسلام والعلم الحديث والتربية المعاصرة والتجديد في مختلف جوانب الحياة. وكان رائد هذه الدعوة الشيخ جمال الدين الأفغاني الذي جاب العالم الإسلامي يبشر بها ويستنهض هممم الحكام والشعوب. وأنشأ مع الإمام محمد عبده جمعية «العروة الوثقى» وأصدرا مجلة بهذا الاسم في منفاهما في باريس، كما أصدر الأفغاني مجلة «ضياء الخافقين» لمدة في لندن في سبيل الدعوة لأفكاره ونقلها إلى أكبر عدد من المثقفين المسلمين.

وجدت هذه الدعوة هوى في نفوس الناس في الأقطار الإسلامية فأيدوها

(١٣) الكرمي، عبد الكريم: **الشيخ سعيد الكرمي**، دمشق، ١٩٧٣، ص ٢١٩.

وتحمسوا لها وعلقوا عليها الآمال. ولما كانت الدولة العثمانية أكبر الدول الإسلامية آنذاك وأكثرها عرضة لأطماع الدول الغربية ومؤامراتها فقد إتجهت إليها الأنظار لمواجهة الغرب والتصدي له. فاختلطت هذه الدعوة بالدعوة إلى تأييد الدولة العثمانية والولاء لها. وانقسم المفكرون من هذه الدعوة إلى فريقين: فريق مؤيد لتيار الجامعة الإسلامية الإصلاحي وفريق مؤيد للدولة العثمانية تأييداً أعمى. ويمثل الفريق الأول من مفكري فلسطين روحي الخالدي وأسعد الشقيري وعبدالقادر المظفر، ويمثل الفريق الثاني رجال الدين التقليديون الذين لم يَنْمُ لديهم وعي سياسي سليم.

فروحي الخالدي كان واعياً لهذين التيارين ولابعادهما فهو يرى أن لسياسة الجامعة الإسلامية معنيين: المعنى القديم الإستبدادي «الذي لا يوافق حقيقة الإسلام ولا روح العصر والمدنية الحاضرة»، ومعنى حديثا يوافق أصل الإسلام والمدنية «غير أنه يخالف مسلك المستبدين بالأمر ويحول بينهم وبين مآربهم»[١٤].

وظهر نشاط هذا الفريق في أعقاب إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ وانخرط في صفوف جمعية الإتحاد والترقي[١٥]. وانضم بعضهم إلى جمعية الاخاء العربي العثماني التي تشكلت من النواب والأعيان العرب في الآستانة عام ١٩٠٨. وبقي الشيخان أسعد الشقيري وعبدالقادر المظفر صديقين لقادة جمعية الإتحاد والترقي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وكان أولهما صديقاً وفياً لأحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع. وفي عام ١٩١٧ قاد وفداً من أعيان فلسطين وتوجه إلى دار الخلافة، وقابل الصدر الأعظم وألقى كلمة أمامه جاء فيها:

«فإذا سمعتم رجال الوفد السوري يمدحون أحمد جمال باشا ويطرون أعماله، ويثنون على أخلاقه وعاداته ويقدسون مبادئه. . . فليس ذلك إلا لأنهم وجدوا فيه

(١٤) الخالدي، روحي: الإنقلاب العثماني وتركيا الفتاة، **الهلال**، ج ٣، السنة ١٧ (١/١٢/١٩٠٨) ص ١٤٨.

(١٥) كان من أعضاء جمعية الإتحاد والترقي في غزة: أحمد عارف الحسيني أحد نواب القدس في مجلس المبعوثان، وسعيد الشواء ومحمد الصوراني، وحسني خيال، وخليل بسيسو، ومحمد الشافي (عارف العارف: **تاريخ غزة**، القدس ١٩٤٣، ص ٢٠٤).

الرجل الفعال الذي يطلبونه منذ الزمن الأطول، فلا يجدون إليه سبيلاً، حتى صاروا يعدونه من الأشخاص الخيالية التي يصورها الوهم وينفيها الحس والعقل. لذلك هم يقدسونه من أعماق قلوبهم ويقدسون كل من كان على شاكلته من رجال العمل المخلصين»[16].

أما الفريق الثاني فيمثلهم الشيخ سليم أبو إقبال اليعقوبي صاحب ديوان «حسنات اليراع» المليء بالثناء والمديح للسلطان عبدالحميد الثاني.

فمن شعره في مدح السلطان عبد الحميد:

عصر عبد الحميد ملك ملوك الأرض وافى بصبيب الرحمات
عصر علم به تجلى يراع   خط للناس هذه الحسنات

ويقول مهنئاً السلطان من مكيدة الأعداء:

نَجَوْتَ فخابت بالنجاة جناة   بغينَ وهل بالبغي ساد بغاة
نجاتك للآداب والدين والتقى   وللناس في أي الجهات حياة
وما أنت للإسلام إلا خليفة   يحفك نصرٌ في الوغى وتقاة[17]

لقد أضفى هذا الفريق على السلطان العثماني مسحة دينية مقدسة فهو في نظرهم شخصية دينية جليلة، لا يجوز أن تطالها يد النقد والتجريح. وهو رمز لوحدة المسلمين وعزتهم وفخرهم، وحامي الشريعة الإسلامية والقيّم على تنفيذها[18]. وقد استغل السلطان عبدالحميد دعوة الجامعة الإسلامية استغلالاً جيداً لصالحه. وأحاط نفسه بمجموعة من رجال الدين التقليديين وشيوخ الطرق الصوفية العرب، فكانوا له خير دعاة وافضل المدافعين عن استبداده وتسلطه.

---

(١٦) من أعضاء جمعية الاخاء العربي ـ العثماني في القدس: موسى الخالدي وفيضي العلمي وإسماعيل الحسيني، ونخلة زريق، وحنا العيسى وخليل السكاكيني (خليل السكاكيني: **كذا أنا يا دنيا**، القدس، ١٩٥٥، ص ٤٧ ـ ٤٨).

(١٧) البعثة العلمية إلى دار الخلافة الإسلامية، ص ١٠٠.

(١٨) اليعقوبي، سليم: **حسنات اليراع**، ص ١٩ ـ ٢٣.

الدعوة الى القومية العربية

ولد الوعي القومي عند العرب أثناء نهضتهم الفكرية العامة وكان ثمرة من ثمارها الأولى. غير أن الفترة التي شهدت ولادة هذا الوعي شهدت أيضاً ولادة يقظة قومية مماثلة عند الأتراك شركاء العرب في الدولة العثمانية. ونما الوعي القومي لدى الأمتين بصورة متوازية. واتخذ في بداياته شكل الحركة الإصلاحية التي دعت إلى تحديث الدولة وتعزيز قدراتها لكي تتمكن من الحفاظ على كيانها ودفع الأطماع الرامية إلى اغتصاب ممتلكاتها في أوروبا وآسيا وأفريقيا. ولم يجد العرب حرجاً في الإنضمام إلى الجمعيات الإصلاحية السرية بما فيها جمعية الإتحاد والترقي بعد قيامها عام ١٨٩٤. وساهم الضباط العرب من أعضاء هذه الجمعية في القضاء على الردة الرجعية التي قام بها السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٩.

صحيح أن بعض الجمعيات السياسية السرية العربية قد تشكلت قبل قيام جمعية الإتحاد والترقي، وكانت تنادي بنهوض العرب واستعادة أمجادهم ومقاومة الظلم والإستبداد في عهد عبدالحميد، كما أن بعضها دعا إلى إعادة الخلافة إلى أهلها العرب، غير أن نزعة الإنفصال عن الدولة العثمانية لم تظهر إلا في فترة متأخرة، وبعد أن اصطدم التيار القومي التركي المهيمن على جمعية الإتحاد والترقي الحاكمة، بالتيار القومي العربي، عند محاولة الإتحاديين تنفيذ سياسة التتريك في الدولة متجاهلين مشاعر العرب القومية والوجود العربي في الدولة.

كانت ردة الفعل العربية تمسكاً بالعروبة وإقبالاً على إنشاء الجمعيات والأندية الأدبية والسياسية العلنية والسرية في سبيل الدفاع عن كيانهم القومي الذي أصبح مهدداً بالزوال. وهكذا تأسس «المنتدى الأدبي» في دار الخلافة. وكان من أعضائه الفلسطينيين عارف العارف ورشدي الشوا وعاصم بسيسو ومصطفى الحسيني وغيرهم[19].

وفي عام ١٩١١ تشكلت «جمعية العربية الفتاة» على أيدي الطلبة العرب في

---

(١٩) العارف، عارف: **تاريخ غزة**، ص ٢٠٣.

باريس. وكان أثنان من أبناء فلسطين هما عوني عبدالهادي ورفيق التميمي من أعضائها المؤسسين. أما هدف الجمعية فهو النهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية في نطاق الدولة العثمانية. ولم تدع الجمعية إلى الانفصال عن الأتراك إلا بعد قيام الحرب العالمية الأولى، وبعد أن قلب الأتراك للعرب ظهر المجن وساقوا طليعتهم المفكرة إلى أعواد المشانق في دمشق وبيروت. فاصبحت تسعى إلى تحرير البلاد العربية الآسيوية من النير التركي واستقلالها التام. وانتقل مركز الجمعية إلى بيروت ثم إلى دمشق عام ١٩١٢. وتعرض أعضاؤها لبطش السلطات التركية أثناء الحرب العالمية. واتصلت عام ١٩١٥ بالأمير فيصل بن الحسين فانتسب إليها وأصبح صلة الوصل بينها وبين والده قبيل إندلاع الثورة العربية الكبرى [٢٠].

وكان لنواب فلسطين في مجلس المبعوثان دور بارز في تكوين الكتلة النيابية العربية في المجلس المذكور في آذار ١٩١١. وقد انضمت هذه الكتلة إلى النواب الألبان والأرمن وبعض الأتراك وأنشأوا «حزب الحرية والإئتلاف» الذي كان يسعى إلى منح الولايات العثمانية الإستقلال الإداري، وتطبيق مبدأ اللامركزية في إدارة الدولة [٢١].

وكانت مساهمة مفكري فلسطين في الدعوة إلى يقظة العرب والانعتاق من الإستبداد، كبيرة. فإسعاف النشاشيبي يشكو ضعف العرب وتخاذلهم ويتمنى أن يراهم سادة أعزاء:

العرب مات شعورهم   فاندبه دهرك باكيا
ولى فولى بعده   أنسي وساءَ مآليا
قد كنت أطمع أن أرى   وطني بهيجاً زاهيا
فوجدته من كل علم   أو علاء خاليا
فسعادتي يا ابن الكرام   وبغيتي ومراميا
أن تصبح العَرَبُ الأذلة   سادةً وموالـيا [٢٢]

(٢٠) الشهابي، مصطفى: **القومية العربية**، ص ٧٨.
(٢١) **ثورة العرب مقدماتها وأسبابها**، مطبعة المقطم، القاهرة ١٩١٦، ص ٥٥.
(٢٢) الجندي، أدهم: **أعلام الأدب والفن**، ج ١، مطبعة مجلة صوت سورية، دمشق ١٩٥٤، ص ٤٧٣.

وخاطب سليمان التاجي الفاروقي النواب العرب في مجلس المبعوثان بقصيدة تغنى فيها بامجاد العرب ومآثرهم وقارنه بامجاد الأتراك:

يقولون ان العُرْبَ مات رجالُها   يقولون أن الجوَّ أصبح خاليا
أَبَغْياً علينا وافتئاتا وأثرةً   ويرجون منا بعد هذا تغاضيا
ألا قل لهم لو أنصفوا أين مجدهم   وذاك البناء الضخم من كان بانيا
ومن ذا الذي قاد المقانب وارتمى   إلى ما وراء الصين في الشرق هاديا
ألا ليت شعري هل أرى العُرْبَ أمة   يساند بعضٌ بعضها لا تجافيا
إن صاح في وادي الكنانة صائح   يبيت له الرَّبْعُ الشامي داويا
وإن أنّ في الصقع اليماني مُثْقَلٌ   أهاب له القطر الحجازي باكيا [٢٣]

وأعلنت الحرب العالمية الأولى، واختلف مفكرو فلسطين في موقفهم منها. فمنهم من دعا الدولة العثمانية إلى التحالف مع ألمانيا. ومنهم من فضل التحالف مع بريطانيا. وكان لكل فريق حجته. غير أن الدولة العثمانية لم تأخذ برأي سواء أكانوا في موقع المسؤولية مثل الشريف حسين بن علي أمير مكة، أو كانوا من قادة الرأي العام مثل الأدباء والصحفيين وغيرهم من المفكرين. ولما فشل الجيش العثماني الرابع وقائده أحمد جمال باشا في حملته على مصر إتجه إلى العرب يحملهم مسؤولية الفشل والهزيمة. وقدم العشرات من طليعتهم المفكرة إلى المجلس العرفي في عاليه. وكان نصيب فلسطين من حقد جمال باشا وبطشه لا يقل عن نصيب غيرها من الأقطار العربية. فقد أصدر المجلس المذكور آنفاً الحكم بالإعدام على السادة: سعيد الكرمي من طولكرم، وحسن حماد من نابلس، وأحمد العارف من غزة، وعلي عمر النشاشيبي من القدس، وسليم عبدالهادي من جنين، ومحمد حافظ السعيد من غزة. وألقى القبض على خمسة منهم هم سعيد الكرمي ومحمد حافظ السعيد وسليم عبدالهادي وعلي النشاشيبي وأحمد العارف. ونفذ حكم الإعدام بثلاثة منهم هم سليم عبدالهادي وعلي النشاشيبي وأحمد العارف. وأبدل حكم الإعدام بحق حافظ السعيد وسعيد الكرمي بالسجن المؤبد لتقدمهما في السن. ونفي العشرات من أعيان

(٢٣) النشاشيبي، إسعاف: **هل الأدباء بشر**، ص ٧٤ ـ ٧٥.

فلسطين إلى الأناضول وغيره من المناطق النائية أثناء الحرب[٢٤].

ولما أعلنت ثورة العرب من مكة في العاشر من حزيران عام ١٩١٦ لم يتوان أبناء فلسطين عن اللحاق بها. وسارع المثقفون منهم إلى وضع أنفسهم تحت تصرف الأمير فيصل بن الحسين عند قيام الحكم العربي في دمشق بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٠.

وقبل قدوم لجنة كنج ـ كرين King-Crane إلى فلسطين التقى أعيان البلاد في القدس. واتفقوا على تقديم التوصيات التالية للجنة المذكورة:

١ ـ استقلال سورية الممتدة من جبال طوروس شمالاً إلى ترعة السويس جنوباً استقلالاً تاماً ضمن الوحدة العربية.

٢ ـ استقلال فلسطين التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من سورية، استقلالاً داخلياً بحيث تختار حكامها من الوطنيين بنفسها حسب رغائب أهلها وحاجات البلاد.

٣ ـ رفض الهجرة الصهيونية والاحتجاج على أماني الصهيونيين في فلسطين مع القبول باليهود الأصليين المقيمين في البلاد قبل الحرب باعتبارهم وطنيين لهم ما للعرب وعليهم ما عليهم[٢٥].

ولما وصلت اللجنة إلى القدس يوم ١٢ حزيران ١٩١٩ ارتفعت في شوارع المدينة المقدسة اللافتات التي تحمل الشعارات التالية: «سورية لا تتجزأ»، «نطلب استقلالاً تاماً»، «نحتج على الصهيونية ونرفض مهاجرة اليهود إلى بلادنا» «ليعيش أميرنا فيصل» و«سورية تمتد من جبال طوروس شمالاً إلى ترعة السويس جنوباً»[٢٦].

وشاركت فلسطين في المؤتمر السوري العام الذي عقد في دمشق في تموز ١٩١٩ والذي كان من مقرراته المطالبة باستقلال البلاد السورية ووحدتها ورفض

(٢٤) الجندي، أدهم: **شهداء الحرب العالمية الكبرى**، مطبعة العروبة، دمشق، ١٩٦٠، ص ٧٣، ٨١، ١٣٠، ١٤٧، ١٦٦، العارف، عارف: **تاريخ غزة**، ص ٢٠٥.

(٢٥) السكاكيني، خليل: **كذا أنا يا دنيا**، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢٦) المصدر نفسه ص ١٨٦.

وعد بلفور رفضاً قاطعاً. وقبيل انعقاد المؤتمر السوري العام الثاني التقى ممثلو فلسطين في المؤتمر مع ممثلين عن اللجنة العليا للدفاع الوطني وحزب الاستقلال العربي وحزب الاتحاد السوري وجمعية العهد السورية وجمعية العهد العراقية وجمعية النهضة الأدبية والنادي العربي وعدد من أعضاء المؤتمر السوري وبعض شيوخ العشائر وعلماء الدين، في النادي العربي بدمشق، في ٢٧ شباط ١٩٢٠، واتخذ المجتمعون قرارات ثلاثة أولها اعتبار فلسطين جزءاً لا يتجزأ من سورية، وثانيها المطالبة بدفع الخطر الصهيوني عن البلاد السورية، وثالثها رفض كل حكومة تتشكل في فلسطين قبل أن تعترف حكومة الاحتلال البريطاني بمطالب الشعب العربي في فلسطين[٢٧].

وبقيت ذكرى الثورة العربية عزيزة على نفس كل عربي في فلسطين. فكان يحتفل كل عام بيوم إعلانها باعتباره عيداً قومياً. ولما انهار الحكم العربي في دمشق في تموز ١٩٢٠ تسرب اليأس إلى النفوس وحدثت ردة فعل إقليمية، رهجت لها حكومة الانتداب. ومثل هذه الردة تحدث دوماً كلما فشلت تجربة وحدوية. فوقف وديع البستاني بمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي عام ١٩٢١ في حيفا يقول:

أبكل عام حفلة للمولد … تُقْضى مراسمها وتنسى في الغد
أيامنا تترى تمر ومن لنا … منها بيوم مثل يوم محمد
ما حال لونُ الصبح عن عهد به … لكننا في حالة لم تعهد
والأمس يوم تقرب لتوحد … واليوم يوم تفرق لتبدد
شتّى المذاهبُ والدروبُ كثيرةٌ … دربُ الكنيسةِ غير درب المسجد
يا ضيعة الأقوام بين تمقدس … وتمدين وتدمشق وتبغدد[٢٨]

صورة فلسطين في ذهن مفكريها

أطلق الرومان على فلسطين والأردن بحدودهما الحالية اسم فلسطين وقسموها

(٢٧) David, Philipe: *Un gouvernement Arabe a Damas,* Marcel Giard, Paris, 1923, PP. 91-92.

(٢٨) الأسد، ناصر الدين: **الشعر الحديث في فلسطين والأردن**، القاهرة ١٩٦١، ص ٨٥.

إلى مقاطعات ثلاث هي فلسطين الأولى Palestina Prima وفلسطين الثانية Palestina Seconda وفلسطين الثالثة Palestina Tertia . ومنذ قيام البطريركية الأرثوذكسية في القدس في العهد البيزنطي امتد نفوذها على هذه المناطق الثلاث. واستمرت كذلك حتى الفتح العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي. فقد قسم العرب جنوبي بلاد الشام إلى جندين هما: جند فلسطين ويشمل المنطقة الجنوبية من فلسطين والأردن وعاصمته اللد ثم الرملة فيما بعد، وجند الأردن ويشمل المنطقة الشمالية من فلسطين والأردن وقسماً من الجولان وعاصمته طبرية. واستمرت البطريركية الأرثوذكسية تمارس سُلطتها الدينية على فلسطين والأردن حتى اليوم. ولهذا كانت صورة فلسطين «كمنطقة جغرافية محددة المعالم» واضحة في ذهن المسيحيين الأرثوذكس من أبنائها. وكان للنزاع الذي نشب بينهم وبين الإكليروس اليوناني أثره القوي في وضوح صورة فلسطين في أذهانهم.

فلا عجب إذا قام اثنان من أبناء الطائفة الأرثوذكسية وهما عيسى داود العيسى[٢٩] ويوسف العيسى[٣٠] بإصدار صحيفة باسم «فلسطين» عام ١٩١١، وأن يعطي خليل السكاكيني لهذه الصورة معالمها الواضحة في كتابه «النهضة الأرثوذكسية في فلسطين» الصادر عام ١٩١٣[٣١].

أما مستقبل فلسطين فلم يطرح على بساط البحث من قبل أبنائها إلا بعد الاحتلال البريطاني في كانون الأول ١٩١٧. إذ حكمت فلسطين حكماً عسكرياً

(٢٩) ولد عيسى العيسى في يافا وتلقى تعليمه الأولي فيها. ثم التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت. وعمل في التجارة بعض الوقت، ثم أنشأ مع يوسف العيسى جريدة فلسطين عام ١٩١١. نفي إلى الأناضول أثناء الحرب العالمية وعاد إلى دمشق. وعين كاتباً في بلاط الأمير فيصل بن الحسين أثناء الحكم العربي. وبعد احتلال الفرنسيين لدمشق عاد إلى يافا وأصدر من جديد جريدة «فلسطين» التي توقف صدورها أثناء الحرب. وكان يدعى «شيخ الصحافة» (يهوشع، يعقوب: **الصحافة العربية في فلسطين**، ص ١١٧).

(٣٠) يوسف العيسى من أبناء يافا تثقف ثقافة فرنسية وتولى رئاسة تحرير «فلسطين» منذ نشأتها. أصدر جريدة «ألف باء» في دمشق بعد الحرب العالمية الأولى. (يهوشع، يعقوب: الصحافة العربية في فلسطين، ص ١١٨).

(٣١) Porath,: *The Emergence of the Palestine National Movement, 1918-1929* London, 1974, P. 7.

مباشراً باسم «بلاد العدو المحتلة: المنطقة الجنوبية» ووضعت تحت إدارة الميجور جنرال سير أ. موني A. Money الذي كان مرتبطاً بالرئيس الأعلى للإدارة العسكرية في بلاد الشام الجنرال ادموند اللنبي Edmund Allenby[٣٢]. وارتفعت أصوات فيها تقول: هل تستقل فلسطين عن بقية الأقطار السورية أم تنضم إليها؟

وبعد مناقشات طويلة ساد الرأي القائل: «إن فلسطين وسورية أختان اشتركتا في مصائب كثيرة قبل اليوم، وفي التطلع إلى الحرية والاستقلال معاً فيجب أن تشتركا الآن في مصيرهما، ولا يجوز بوجه من الوجوه بتر إحداهما عن الأخرى مهما كان ذلك المصير»[٣٣]. ولكن شكل الاتحاد الذي أراده أعيان فلسطين بين بلادهم وسورية كان أقرب إلى الاتحاد الفيدرالي. ففي الاجتماع الذي عقد في منزل اسماعيل الحسيني في القدس في ١٢ نيسان ١٩١٩ أي قبيل قدوم لجنة كنج ـ كرين الأمريكية بشهرين، والذي حضره راغب النشاشيبي ويعقوب فراج والمفتي كامل الحسيني وسعيد الحسيني وموسى كاظم الحسيني وعارف الدجاني وعلي جار الله وراغب الدجاني وإسعاف النشاشيبي والحاج أمين الحسيني وعزة دروزة وحافظ كنعان، تقرر أن تكون فلسطين جزءاً لا يتجزأ من سورية المستقلة، وأن تكون «مستقلة استقلالاً داخلياً بحيث تختار حكامها من أبنائها وحسب رغائب أهلها وحاجات البلاد»[٣٤].

واتجهت أنظار عرب فلسطين إلى الحسين بن علي لانقاذها من المؤامرة الصهيونية البريطانية. وكتب يوسف العيسى في مجلة «النفائس العصرية» في مطلع عام ١٩٢٠ يقول:

أيها الملك!

إذا كنت تجفوني، وأنت ذخيرتي، وموضوع حاجاتي، فما أنا صانع؟ نعم ما هي صانعة فلسطين... وقد تمكن عدوها في وسطها، واشتركت أمم الأرض في

(٣٢) David, Ph.: *Un Gouvernement Arabe à Damas*, P. 14

(٣٣) السكاكيني، خليل: **كذا أنا يا دنيا**، ص ١٦١.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

إصدار حكمها عليها، وأخذت العهود على إخراج أهلها منها، وكتبت المعاهدات على فصلها عن الوحدة السورية وتسليمها إلى أمة صهيونية... فلسطين عربية بمسلميها.. عربية بمسيحييها... عربية بيهودها الوطنيين أيضاً. فعلام يبيع حماها الأجنبي الصهيوني، وتسيل عليها أنهار المهاجرة الصهيونية من الغرب؟ ويأخذ أبناؤها أهبتهم لترك الوطن والرحيل؟ ان زوابع الطبيعة ربما تهدأ، ولكن زوابع فلسطين لا تهدأ إذا فصلت عن سورية وجُعلت وطناً قومياً للصهيونية»[٣٥].

ولما انهار الحكم العربي في دمشق، اضطربت النفوس وأحست بخيبة الأمل، ولكن الأنظار بقيت متجهة إلى الأقطار العربية المجاورة تعلل النفوس بالعون والمساعدة للتخلص من الانتداب البريطاني والمؤامرة الصهيونية. وسعى المفكرون الفلسطينيون إلى إيقاظ الرأي العام العربي وتنويره بما كان يجري في بلادهم. ونشر خليل السكاكيني مجموعة من المقالات في جريدة «السياسة» المصرية بهذا الهدف. فهو يقول:

«هذا وليس لي من غرض فيما أكتبه عن فلسطين في جريدة السياسة الغراء إلا إبلاغ ظلامات فلسطين واحدة واحدة إلى الرأي العام العربي عامة، والرأي المصري خاصة. إلى من تجمع بيننا وبينهم الأنساب ومواسك اللغة والأدب والتاريخ منذ عرفوا وعرفنا هذا الوجود. إلى من شاركناهم وشاركونا في آمال هذه الحياة وآلامها. إلى من هم حقيقون بالعطف علينا والقيام بنصرنا. وإن كان كل فريق منهم من همه في شغل شاغل بفضل سياسة هذا الزمان. وحسبي من التوفيق أن أكون مفهوماً»[٣٦].

ويطمع خليل السكاكيني في أن يهتم كتاب مصر بقضية فلسطين ويعطوها بعض وقتهم وكتاباتهم، مذكراً إياهم بروابط العروبة والجوار التي تربط القطرين:

«وإني لأطمع في كرم كتاب مصر الاعلام ووطنيتهم الصادقة أن يجعلوا

(٣٥) النفائس العصرية، ج ١٦، السنة السابعة (١٩٢٠)، ص ٢١٨ - ٢١٩.
(٣٦) جريدة السياسة، القاهرة، عدد ١٢ آب ١٩٢٣.

لفلسطين نصيباً فيما يكتبون ولو قليلاً. فإنا نعيذ فضلهم وشممهم وما بيننا من حقوق النسب والجوار أن يروا خصمنا يستكثر من الأنصار ويهيء أسبابه لمحاربتنا والقضاء علينا في عقر دارنا، فلا يقوم بنصرنا منهم معشر خشن»[٣٧].

وهذا إبراهيم الدباغ حث العرب على التدخل ودعم شعب فلسطين ويحذرهم من وخيم العاقبة فيقول:

يصول فيها العدا في جحفل لجب ... ولا يصد بغير الجحفل اللجب
أين الفتى العربي المستعان به ... يوم الكريهة هل ضاع الفتى العربي
إني أرى حولها برقاً وجلجلة ... وقد خلا رعدها من هاطل السحب
إني أرى الفلك الدوار ينذرهم ... بعاجل من خراب الدار مقترب
قومي وأهلي وما لاقوا ونجدتهم ... تقيمني وعناد الدهر يقعد بي[٣٨]

وإذا كان السكاكيني والدباغ قد حاولا استدرار العطف والتأييد العربيين وتعبئة الجماهير العربية، فقد ذهب غيرهما إلى الدعوة إلى العمل الجدي.

ويرى هذا الفريق أن العواطف والمقالات والمظاهرات لن تنقذ فلسطين وإنما سينقذها المال الذي تبنى به المدارس والمعاهد الحديثة وتعبد الطرق وتجفف المستنقعات وتفتح المصانع. فهذه مجلة النفائس العصرية تنشر مقالة في عام ١٩٢٠ جاء فيها:

«.... فلسطين، مهد الأديان، لا ينقذها عيسى ولا موسى ولا محمد. ولا يرد عنها ما تخشاه وتحذره مقالة تجد، أو كتاب ينشر، أوجمعية تتألف.. إلا الإله الجديد الذي صنع منه بنو إسرائيل إلهاً وعبدوه في برية سيناء!

«أجل إن المال هو الركن الأول الذي عليه المعوّل في دفع الخطر الذي يهددنا به الصهيونيون... فهم لم يزحفوا علينا بالأساطيل والجيوش ولكنهم زاحفون بالملايين الجرارة من الدولارات، يبتاعون بها المنازل والحقول والغياض والرياض

(٣٧) السكاكيني، خليل: المجموعة الكاملة، ج ١ المطبعة العصرية، القدس ١٩٦٢ ص ٣٦٥.
(٣٨) الجندي، أدهم: اعلام الأدب والفن، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

وينفقونها في بناء المعاهد والمدارس وإنشاء الطرق وتجفيف المستنقعات واستثمار الأراضي، ونشر الصناعة والتجارة والقيام بالمشاريع الكبيرة التي تعود بالنفع الجزيل على القائمين بها»[٣٩].

الموقف من الصهيونية

أدرك عرب فلسطين خطورة الهجرة اليهودية إلى بلادهم منذ أن اتخذت شكلاً منظماً في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وبدأ أول صدام بين الفلاحين العرب وسكان المستعمرات الصهيونية في مطلع الثمانينات. غير أننا لم نجد ما يشير إلى موقف المفكرين العرب في فلسطين من الحركة الصهيونية قبل الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ وإنشاء الصحف العربية في فلسطين. ولعل أول من أشار إلى أطماع الصهيونية في فلسطين الرهبان الكاثوليك الذين كانوا يتابعون باهتمام وقلق النشاط الصهيوني. فقد نشر الأب هنري لامنس اليسوعي مقالة في مجلة المشرق عام ١٨٩٩ بعنوان «اليهود في فلسطين ومستعمراتهم» تحدث فيها عما ذكرته صحف الآستانة عن انتشار اليهود في فلسطين، وحثها السلطات العثمانية على مواجهة النشاط الصهيوني. واستعرض الكاتب بعد ذلك المستعمرات اليهودية وتاريخ نشأتها والجمعيات والأفراد الذين يدعمونها مالياً. وحذر في ختام مقالته من الأطماع اليهودية في شرقي الأردن وقال:

«هذا ولم يزل اليهود يطمحون ببصرهم نحو عبر الأردن. ولما اجتزنا منذ ثلاث سنين في تلك الأقطار، أخبرنا مختار مكيس (أم قيس) أن للبارون دي روتشيلد عُمّالاً في تلك النواحي يطوفونها في كل جهاتها ليمتلكوا لسيدهم أراضي يجعل فيها اليهود ليفلحوا ويستغلوا غلاتها»[٤٠].

وكانت أولى الصحف العربية في فلسطين التي نبهت إلى الخطر الصهيوني

(٣٩) النفائس العصرية، السنة ٧، ج ١٤ (١٩٢٠) ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٤٠) لامنس، هنري: اليهود في فلسطين ومستعمراتهم، المشرق، م ٢، السنة الثانية (١٨٩٩) ص ١٠٨٨ ـ ١٠٩٤.

صحيفة «الكرمل» منذ صدورها عام ١٩٠٨، وتلتها جريدة «فلسطين». ودعت «الكرمل» إلى إنشاء «جمعية وطنية فلسطينية» تضم أعيان نابلس والقدس ويافا وحيفا وغزة لشراء أراضي الدولة (الأراضي المدورة) قبل أن يستولي عليها الصهاينة[٤١]. ومنذئذ أصبحت هذه القضية شغل الصحافة الوطنية الشاغل قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى. وعبر إسعاف النشاشيبي» عن قلق عرب فلسطين إزاء الخطر الصهيوني بقصيدة نشرت في مجلة «النفائس العصرية» في تشرين الأول عام ١٩١٠ نقتطف منها ما يلي:

يا فتاة الحي جودي بالدماء / بدل الدمع إذا رمت البكاء
فلقد ولت فلسطين ولم / يبق يا أخت العلى غير دماء
نكبت أقدامها سبل الهدى / فشرتها للعدى شر شراء
سوف تشكين وتبكين دماً / يوم لا يجدي ولا يغني البكاء
إن الاستعمار قد جاز المدى / دون أن يعدوه عن سير عداء
إنها أوطانكم فاستيقظوا / لا تبيعوها لقوم دخلاء
فاعلموا يا قوم ان لم تعلموا / ان عقباكم هلاك وفناء
اذكروا ان غرّكم مالُهم / عزة الأنفس دوماً والأباء[٤٢]

وكان للصحافة الوطنية دور مهم في حث السلطات العثمانية على وضع العراقيل في طريق الهجرة اليهودية، وفي اتخاذ بعض التدابير الإدارية في هذا الاتجاه حتى أن الحركة الصهيونية اضطرت إلى إصدار صحيفة باللغة العربية هي «صوت العثمانية» التي أصدرها الدكتور شمعون مويال في يافا في مطلع عام ١٩١٤ من أجل الرد على الصحف العربية الوطنية وتهدئة خواطر العرب[٤٣]. وبعد صدور وعد بلفور واحتلال الانكليز للبلاد ازداد الوعي للخطر الصهيوني واشتدت المقاومة الوطنية. وشعر وديع البستاني بالإهانة حينما بلغه أن مفتي القدس الشيخ كامل الحسيني ومطران البروتستانت قد شاركا في وضع حجر الأساس للجامعة العبرية في

(٤١) Porath, Y. The Emergence of the Palestine *National* Movement, P. 8

(٤٢) النفائس العصرية، ج ١٢، م ٢ (تشرين الأول ١٩١٠) ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧.

(٤٣) يهوشع، يعقوب: الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

المدينة المقدسة. فسأل المفتي عن أسباب ذلك. وجاء الجواب من شقيقه الحاج أمين الحسيني. فنظم الشاعر البستاني السؤال والجواب شعراً في قصيدته «الفتوى»:

السؤال:

أفتني بالله بالكعبة بالحجر   الأسود بالركن الأغر
إن علت في عزها شامخة   فوق رأس الطور تلهو بالعبر
وغدت جامعة عبرية   ونهى الحاخام فيها وأمر
أيقول الشيخ والقس اتئد   إن للمطران والمفتي حجر

الجواب:

يا أخا العرب اتئد حكماً ولا   تعجلن باللوم إنْ أمرٌ بَدَرْ
إننا نحن بني الشرق لنا   في هراء القول عشق مستمر
ليسَ في الأقوال خير يرتجى   أرني الفعل وإلاّ فازدجر
إنما الأعمال مسبار الفتى   إن يكن خيراً أتى أوْ يَكُ شر
فدع القول أخا العرب وخذ   معولاً وابن معي مجد عمر
أو فحارب جيش جهل هائل   بظبا العلم وما تحوي البدر[٤٤]

وحذر خليل السكاكيني الأمة العربية من خطر الصهيونية ودعاها إلى الاتحاد من أجل دفعه. فقد كانت الدعوة إلى الوحدة العربية الرد الطبيعي على التآمر الدولي على فلسطين. يقول السكاكيني في مقالة نشرها قبيل مجيء لجنة كنج ـ كرين:

«أكبر خطر على الأمة العربية أولاً الصهيونية. إذا لم نتحد في مقاومة الصهيونية ذهبت فلسطين من أيدينا، وعرضنا غيرنا للخطر. وإذا خسرت أمة بلادها خسرت كل شيء. وإذا أردنا أن يكون لنا مستقبل مجيد فيجب أن نحتفظ ببلادنا، بكل قطعة منها. وما دام لنا بلاد فمستقبلنا مضمون. الخطر الثاني التجزئة: مهما بلغنا من الانحطاط، ومهما اختلفنا في الأخلاق والأذواق والعادات

(٤٤) البستاني، وديع: **ديوان الفلسطينيات**، بيروت ١٩٤٦، ص ٩٣.

فإن تلافي ذلك ميسور إذا اتحدنا. ولكن إذا تجزأت بلادنا وأصبحت كل قطعة منها في يد دولة فإننا لا نلبث أن نصبح أمماً مختلفة لا تزيدنا الأيام إلا اختلافاً. لا نستطيع أن يكون لنا وجود قوي إلا إذا ألفنا وحدة كبيرة. بلادنا واسعة، حسنة الموقع، كثيرة الشطوط، وافرة الخيرات، عظيمة الأهمية، وعددنا كثير، وفينا قابلية أن نتعلم ونترقى. إذا بثثنا التعليم وبثثنا روحاً عالية في النفوس كنا أمةً عظيمةً حَرِيَّةً أن يُخطب ودها أو يخشى جانبها»[٤٥].

ويعتبر السكاكيني الخطر الصهيوني خطراً على حضارتنا وثقافتنا وتراثنا وتهديداً لحريتنا ووحدتنا وأمننا، وهذا يدل عل فهم عميق للحركة الصهيونية ومبادئها ووعي كامل لمخططاتها. كتب في جريدة «السياسة» القاهرية في ١٣ حزيران ١٩٢٣ يقول:

«فهو الخطر الذي يهدد شرقيتنا وتقاليدنا وأخلاقنا وآدابنا وسائر خصائصنا ومقومات حياتنا. هو الخطر الذي يهدد حريتنا بالاستعباد، واستقلالنا بالضياع ووحدتنا بالتجزئة، واجتماعنا بالتفرقة، وكثرتنا بالقلة، واستغناءنا بما لدينا على قلته بالفاقة، وراحتنا بالتعب، وأمننا بالخوف، وكرامتنا بالامتهان، ولغتنا بالرطانة، ووجودنا بالانقراض»[٤٦].

ولا يفوتني أن أذكر هنا موقف بطريركية اللاتين في القدس من الصهيونية. وكانت مجلة المشرق الكاثوليكية الصادرة في بيروت تعبر عن موقف هذه البطريركية في فلسطين. فقد كتب الأب لويس شيخو اليسوعي مقالة بعنوان «الصهيونية ماضيها وحاضرها ومستقبلها» عام ١٩٢٠ ندد بالسياسة البريطانية الموالية للصهيونية. وجاء فيها:

ـحى برهاناً على ذلك إقامة السير هربرت صموئيل مندوباً أعلى على فلسطين وهو إسرائيلي يدعوه اليهود علانية بأمير إسرائيل. وهو أول حاكم يهودي على فلسطين منذ بركوكب، زعيم ثورة اليهود في القرن الثاني للمسيح».

(٤٥) السكاكيني، خليل: **كذا أنا يا دنيا**، ص ١٧٩.
(٤٦) السكاكيني، خليل: **الأعمال الكاملة**، ج ١، ص ٣٥٠.

ويؤكد الأب شيخو عزم الصهاينة على إقامة دولة يهودية في فلسطين فيقول: «لا نكير أن الصهيونيين يحاولون إنشاء موطن لليهود في فلسطين، وليس موطناً فقط بل دولة قائمة بذاتها مستقلة بتدبير نفسها». ويفند بعد ذلك مزاعم الصهيونية في الحق التاريخي لليهود في فلسطين بالاعتماد على الحجج التاريخية[٤٧].

وتناول الدكتور فرنتس كسافييه F. Xavier المقيم في فلسطين في مقالته «الصهيونية وغاياتها» التي نشرت في المشرق في عدد شباط عام ١٩٢٥ غايات الحركة الصهيونية ونشاطاتها، وكشف عن نواياها من خلال تصريحات زعمائها. ويختتم مقالته بالتحذير من خطر الصهيونية:

«فخلاصة الكلام أن الصهيونية خطر مستديم. وليس من وسيلة لإخماد الحركة العربية ما دام الصهيونيون يسعون إلى إنشاء وطن قومي في فلسطين. وهذا مما يلوح كل سنة في التظاهرات والاحتجاجات التي يقيمها الأهلون برصانة وثبات في ثاني يوم من شهر تشرين الثاني الذي فيه أعلن بلفور قراره المشئوم. ولا أمل لليهود وأن يعيشوا يوماً بأمان تام في موطنهم هذا... وانه لضلال مبين سيء العقبى تنشيط الصهيونيين في مساعيهم وتسهيل المهاجرة الزائدة لليهود نحو فلسطين»[٤٨].

الموقف من الانتداب البريطاني

دخلت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي مدينة القدس في كانون الأول من عام ١٩١٧. وخضعت البلاد منذئذ للإدارة العسكرية المباشرة التي استمرت حتى شهر تموز من عام ١٩٢٠. ووجد عرب فلسطين أنفسهم في واقع جديد اختلفت آراؤهم ومواقفهم منه. فبعضهم قال: إن البلاد ستصبح مستعمرة

(٤٧) شيخو، لويس: الصهيونية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، المشرق، السنة ١٨، العدد ١٠ (ت، ١٩٢٠) ص ٧٦٨ - ٧٧٨.

(٤٨) كسافييه، فرنتس: الصهيونية وغاياتها، المشرق، السنة ٢٣ (شباط ١٩٢٥) ص ١١٧ - ١٣٤.

إنكليزية، لأن الإنكليز هم الفاتحون. وبعضهم الآخر قال: بل ستلتحق بمصر، وفريق ثالث قال: ستصبح فلسطين حرة مستقلة. وأبدى فريق رابع، ومعظمهم من المسلمين التقليديين أسفهم على زوال الحكم العثماني، لاعتقادهم أن ما حدث ضربة للإسلام وتعزيز للنصرانية. ورحب فريق خامس ومعظمه من المسيحيين بالإنكليز توهما منه بأن الوجود الإنكليزي نصر للمسيحية[٤٩]. وتأثر الذين رحبوا بالإنكليز بالنشاط الإعلامي للثورة العربية الكبرى، باعتبار أن الإنكليز حلفاء العرب في ثورتهم، وهم الذين وعدوهم بالحرية والاستقلال الناجز بعد انتهاء الحرب. وقد عبر الشيخ محمد القلقيلي رئيس تحرير جريدة «الكوكب» عن رأي هذا الفريق الأخير في مقالته التي نشرها بعنوان «نحن وبريطانيا العظمى» في جريدته في ١٦ كانون الثاني ١٩١٧ وجاء فيها:

«يقول العرب في أمثالهم: إن الطيور على أشكالها تقع. ويقولون في آثارهم المأثورة: الأرواح جنود مجندة فما اتفق منها ائتلف وما تناكر منها اختلف. ويقولون في أشعارهم التي سارت سير الأمثال:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه — فكل قرين بالمقارن يقتدي

«فنحن العرب حالفنا، ونحن ننهض من عثرتنا، بريطانيا العظمى لأنها على شاكلتنا ونحن على شاكلتها في المبادىء الاجتماعية والأخلاق السياسية والسنن العمرانية. اتفقت روحنا مع روحها فاتفقنا وائتلفنا وتحالفنا. امتزجت مصلحتنا بمصلحتها فارتبطنا واتحدنا... فأي محظور ديني على العرب ان اعتمدوا في نهضتهم على مساعدة دولة عظيمة متمدنة مثل دولة بريطانيا العظمى؟ وأي بأس عليهم إن حالفوها وحالفتهم على قتال دولة همجية متوحشة أكبر همها القضاء على العرب والعربية ومحو الدين الإسلامي من عالم الوجود»[٥٠]. بهذه العبارات البسيطة التي

(٤٩) السكاكيني، خليل: كذا أنا يا دنيا، ص ٩٠.

(٥٠) الكوكب، عدد ٢٥ (١٦ كانون الثاني ١٩١٧).

تخلو من المنطق يبرر الشيخ القلقيلي تحالف العرب مع بريطانيا. وامتدح الشيخ علي الريماوي بريطانيا بقصيدة نشرت في ملحق جريدة «فلسطين» الرسمية التي كان يصدرها الجيش البريطاني في فلسطين بمناسبة مرور السنة الأولى على احتلال القدس. وكان موضوع المقارنة دوماً الحرية التي تمتع بها العرب في ظل الاحتلال الجديد والكبت والاضطهاد الذي عاشوه في ظل الحكم التركي. يقول الشيخ الريماوي:

وهذا نهار فيه حُلّتْ قُيُودنا   وقد نشط الإقدام وانطلق الفكرُ
بريطانيا العظمى وأنت شهيرة   وعندك طبعاً يجمل الحمد والشكرُ
عهدناك للمظلوم أعظم ناصر   فمن أجل هذا جاءك الفوز والنصرُ
عهدناك للإسلام أكرم دولة   عهدناك والعمران دينُك والبرُّ[٥١]

ونشرت «الكوكب» لاسكندر الخوري البتجالي قصيدة طويلة مماثلة يهجو فيها الأتراك ويرحب بالإنكليز بعنوان «رويداً أيها المدفع» نقتطف منها هذه الأبيات:

بني التايمز قد فزتم   وبالانقاذ قد جئتم
بلاد القدس شرفتم   فأهلاً أينما بتم
وسهلاً فيكم أجمع[٥٢]

غير أن ردة الفعل العربية في فلسطين على وعد بلفور كانت ضعيفة، ولذلك أسباب عدة يوردها خليل السكاكيني وهي: ان العرب كانوا من الضعف والإعياء لا يستطيعون معهما أن يهتموا بشيء. وأنهم قدروا أن الوعد قد صدر لضرورات حربية اقتضتها أوضاع الحرب العالمية الأولى، فإذا زالت تلك الضرورات سقط الوعد من تلقاء نفسه، وأنهم كانوا يعرفون بوعود بريطانيا للعرب والتي سبقت وعد بلفور، كما توهموا أن الأمة البريطانية أعلى من أن ترضى بمثل هذه الخيانة لقضية العرب، ولذا فلا بد أن تنكر على حكومتها هذه السياسة الخرقاء. واعتقد العرب

(٥١) يهوشع، يعقوب: الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني، ص ٧٧.
(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

بقدرتهم على إبطال وعد بلفور متى تنفسوا الصعداء ووقفوا على أقدامهم بعد انتهاء الحرب. كما ذهب بهم الظن إلى أن اليهود أعجز من أن ينالوا فلسطين ما دامت الأمة العربية حية واعية. كما تصوروا أن الوعد أقرب إلى الخيال والحلم منه إلى الحقيقة، وأن اليهود متى ثابوا إلى رشدهم وأدركوا المصاعب والمتاعب التي ستواجههم في فلسطين وفي غيرها من أقطار الدنيا تراجعوا وتخلوا عنه. وقدر العرب أيضاً أن فلسطين لن تتسع لليهود، وأن الوطن القومي لا يشترى بالمال ولا ينال بالدسائس والدعاية والمؤامرات السياسية»[٥٣].

وما أن شعر العرب بالنشاط اليهودي المنظم في فترة الاحتلال العسكري البريطاني وممالأة الإنكليز لليهود حتى أسرعوا إلى إنشاء الجمعيات الإسلامية - المسيحية في كافة مدن فلسطين الكبرى، بهدف مقاومة فكرة الوطن القومي اليهودي. فكانت هذه الجمعيات حجر الأساس للحركة الوطنية الفلسطينية التي أخذت شكلها المنظم بانعقاد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول في القدس في نهاية عام ١٩١٩. وقد اتخذ هذا المؤتمر عدة قرارات اعتبرت بمثابة ميثاق قومي لعرب فلسطين وأهمها: رفض وعد بلفور ومقاومة الهجرة اليهودية، ورفض الانتداب البريطاني على البلاد، والمطالبة بوحدة فلسطين مع سورية باعتبارها جزءاً طبيعياً منها، وتسمية فلسطين باسم «سورية الجنوبية»[٥٤]. وتقرر في هذا المؤتمر عقد المؤتمر الثاني بعد عام. غير أن سلطات الاحتلال حالت دون عقده، فالتأم المؤتمر الثالث في حيفا في ١٣ كانون الأول عام ١٩٢٠، بعد سقوط دمشق في أيدي القوات الفرنسية وزوال الحكم العربي في سورية. لذلك اتجه المؤتمرون إلى فلسطين وانطلقوا من واقعهم الجديد. وحاولوا تقديم مطالب محددة وواضحة إلى سلطات الانتداب. فقد انتهى الحكم العسكري وحلت محله الإدارة المدنية في تموز ١٩٢٠، ووصل إلى البلاد أول مندوب سام بريطاني هو هربرت صموئيل Herbert Samuel. وأصبح تقسيم بلاد الشام أمراً واقعاً، وعلى الحركة الوطنية العربية في كل قطر أن تتعامل مع هذا الواقع الجديد. وأحس عرب فلسطين بخطورة وضعهم، لأن فرض الانتداب

(٥٣) السكاكيني، خليل: ماذا فهم العرب من وعد بلفور، السياسة، القاهرة، عدد ١ حزيران ١٩٢٣.
(٥٤) قاسمية، خيرية: عوني عبدالهادي، أوراق خاصة، ١٩٧٤، ص ٥٧.

البريطاني على فلسطين يعني الالتزام بتنفيذ وعد بلفور. ولهذا أسفر المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث عن مطالب محددة من حكومة الانتداب، تتلخص بتشكيل حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخب من سكان البلاد المقيمين فيها حتى بداية الحرب العالمية الأولى. وهذا يعني رفض الاعتراف بالمهاجرين اليهود الذين دخلوا البلاد خلال السنوات الست الماضية، كمواطنين فلسطينيين. كما شجب المؤتمر الإدارة المدنية البريطانية لاتخاذها صلاحية سن القوانين والأنظمة بدون مجلس تشريعي منتخب، وقبل صدور قرار عصبة الأمم النهائي حول مستقبل البلاد، ولاعترافها بالحركة الصهيونية كهيئة رسمية، وتأليفها مجلساً استشارياً معيناً ينوب مناب المجلس التشريعي[٥٥].

أما المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع فقد التأم عام ١٩٢١ وقرر إرسال وفد من اللجنة التنفيذية للمؤتمر برئاسة السيد موسى كاظم الحسيني وعضوية شبلي الجمل وتوفيق حماد ومعين الماضي وإبراهيم شماس، إلى لندن لاقناع الساسة البريطانيين بالتخلي عن وعد بلفور. وأقام الوفد عاماً كاملاً في العاصمة البريطانية عاد بعده بخفي حنين. إذ صدر صك الانتداب البريطاني على فلسطين وأقره مجلس عصبة الأمم في ٢٤ تموز ١٩٢٢ وتضمن تنفيذ ما جاء في وعد بلفور[٥٦].

وبعد عودة الوفد العربي الفلسطيني من لندن بقليل عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع في مدينة نابلس في ٢٠ آب ١٩٢٢. وكان قد صدر الكتاب الأبيض البريطاني عن وزارة المستعمرات، والذي تضمن دستوراً لفلسطين ومجلساً تشريعياً يتفق والمخطط الصهيوني - البريطاني الوارد في صك الانتداب ولذلك كانت أولى مقررات المؤتمر رفض الدستور ومقاطعة الانتخابات المنوي إجراؤها لتشكيل المجلس التشريعي، ورفض الانتداب البريطاني، ومقاطعة اليهود[٥٧].

لقد برر خليل السكاكيني هذا الموقف الرافض من جانب العرب في مقالة

(٥٥) قاسمية، خيرية: عوني عبد الهادي، ص ٥٧ - ٥٨.

(٥٦) المصدر نفسه، ص ٥٨ - ٥٩. عبود، أسعد: تاريخ الناصرة، القاهرة ١٩٢٣، ص ١٢١.

(٥٧) قاسمية، خيرية: عوني عبد الهادي، ص٥٩.

نشرتها جريدة السياسة القاهرية في عددها الصادر في ٣١ كانون الأول ١٩٢٣، جاء فيها:

«لو قبلت الأمة الانتداب لكان معنى ذلك أنها جعلت الانتداب غير المشروع مشروعاً. لو قبلت الأمة وعد بلفور لكان معنى ذلك أنها قبلت برضاها أن تتنازل عن حقوقها السياسية في بلادها. لو قبلت الأمة الدستور الذي وضعه بنتويش (Bentwich) رئيس العدلية، وهو من كبار زعماء الصهيونيين، ولم يؤخذ رأيها فيه لكان معنى ذلك أن الأمة أعطت خصمها حق وضع دستورها الذي لا يجوز أن يشاركها في وضعه أحد. لو قبلت الأمة المجلس التشريعي فالمجلس الاستشاري وأكثر أعضائها من الإنكليز واليهود، وللمندوب السامي فيها - وهو من زعماء الصهيونية - سلطان واسع، فإذا شاء قبل قراراتها وإذا شاء رفض، لكان معنى ذلك أن الأمة قبلت برضاها أن يكون أمرها في يد غيرها بل في يد خصومها الطامعين في بلادها. لو قبلت الأمة أن تكون لها وكالة عربية، كما أن لليهود وكالة يهودية، لكان معنى ذلك أنها قبلت برضاها أن تكون على مستوى واحد مع اليهود الغرباء، فضلاً عن أن اسم الوكالة العربية يشعر العرب غرباء دخلاء في بلادهم»[٥٨].

وتبنت مجموعة من السياسيين مقررات المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس وانشأت «الحزب الوطني العربي الفلسطيني» عام ١٩٢٣. فكان أول الأحزاب السياسية في البلاد في عهد الانتداب، اللهم إذا استثنينا الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي نشأ في بدايته على أيدي اليهود. أما أهداف الحزب الوطني العربي الفلسطيني فهي الحفاظ على عروبة فلسطين، وعدم الاعتراف بوعد بلفور وبالدستور الذي سنته الإدارة المدنية البريطانية، وبالمجلسين التشريعي والاستشاري وبالوكالة العربية وبأي نفوذ غير وطني في البلاد. وبالمقابل قدم مطالب شعب فلسطين والتي تتلخص في إنشاء حكومة وطنية ديمقراطية حرة، وسن دستور مستمد من رغبات الأهلين وروح الشعب، وتأليف مجلس نيابي ينتخبه الشعب على نحو ما في البلاد المتقدمة[٥٩]. والحقيقة أن هذه المطالب بقيت المحور الأساسي الذي دارت حوله

(٥٨) السكاكيني، خليل: المجموعة الكاملة ج ١، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٥٩) الحزب الوطني العربي الفلسطيني: دستوره ونظامه الداخلي، القدس ١٩٢٣.

أفكار الحركة الوطنية الفلسطينية وبرامجها طوال عهد الانتداب.

وخلاصة القول أن التيارات السياسية العامة في فلسطين لم تختلف عن تلك التي سادت المنطقة العربية في هذه الفترة. فقد نشأ الوعي السياسي بين المثقفين من أبناء الإقطاعيين والتجار ورجال الدين والموظفين، الحريصين على مركزهم الإجتماعي والراغبين في مشاركة الأتراك في السلطة. ولذلك لا عجب إذا رأينا ضعف المضمون الإجتماعي لهذه التيارات السياسية. كانت الطبقة المثقفة العربية في الدولة العثمانية، وقد تشبعت بالروح الليبرالية، تقاوم بشدة الحكم الفردي المطلق الذي يمارسه السلطان عبدالحميد. فإذا ما إنهار حكم عبدالحميد، وجاء الدستور، أملت في أن يكون لها نصيب في الديمقراطية الجديدة. غير أن الإتحاديين أغلقوا في وجهها الأبواب، وحالوا دون مشاركتها في الإدارة والحكم، إيماناً منهم بأن سياسة التتريك هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على كيان الدولة العثمانية، وتحويلها إلى دولة قومية على غرار الدول الأوروبية الحديثة. وكان الصدام حتمياً بين هذين التيارين: التيار القومي التركي والتيار القومي العربي. ولا ندهش إذا رأينا المثقفين العرب يحاولون، من خلال نضالهم القومي، التأكيد على ضرورة حصولهم على نصيب في الإدارة والحكم يتناسب وعدد السكان العرب في الدولة العثمانية. ومقررات المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس في حزيران ١٩١٣، واتفاقية طلعت ـ الخليل التي تلته شاهد على ذلك.

وحاول المثقفون العرب نشر الوعي السياسي بين الجماهير العربية. فأقبلوا على الصحف التي أصبحت منابر يعلنون منها مطالب العرب وظلاماتهم، ووسيلة فعالة في اليقظة السياسية. واستفادوا من التذمر الشعبي العام الناشىء من الظلم والإستبداد وشيوع الرشوة والمحسوبية وهيأوا المناخ المناسب لاندلاع الثورة العربية.

ولم يختلف وضع المثقفين العرب في عهد الإنتداب عما كان عليه في العهد العثماني. وفي فلسطين واجهوا مشكلتين معقدتين: الإنتداب البريطاني والحركة الصهيونية. وكان عليهم أن يحاربوا على هاتين الجبهتين باعتبارهما جبهة واحدة. فرفضوا الإنتداب البريطاني، كما رفضوا الاستيطان اليهودي، وردوا على ذلك

بالمطالبة بوحدة فلسطين مع بقية الأقطار السورية.

التيارات الاجتماعية

كان المجتمع العربي في فلسطين والأردن، في عصر النهضة، صورة مصغرة عن المجتمع العربي الكبير. فقد انقسم في العهد العثماني إلى فئتين: المسلمين وأهل الذمة، وانقسم المسلمون إلى سنة وشيعة ودروز، بينما انقسم أهل الذمة إلى نصارى ويهود. وانقسم النصارى أو المسيحيون إلى روم أرثوذكس وروم كاثوليك ولاتين وسريان وأرمن وأقباط وإنجيليين. أما اليهود فكانوا فئات ثلاثاً: سفارديم وأشكنازيم وسامرة.

وإذا أخذنا وسيلة العيش معياراً لتصنيف الفئات الإجتماعية لوجدنا أن هذا المجتمع مؤلف من مزارعين وتجار وحرفيين وبدو. كان المزارعون يؤلفون الأغلبية الكبرى من السكان، وينقسمون إلى فئات ثلاث: إقطاعيين يملكون الأراضي الواسعة ولا يشتغلون بها؛ وفلاحين ملاكين يحرثون الأرض ويزرعونها، غير أن ملكيتهم للأرض صغيرة ومحدودة المساحة؛ وعمال زراعيين.

كان الإقطاعيون قادة المجتمع. منهم أعيان المدن (الأفندية) وكبار الملاكين في القرى وشيوخ القبائل. وهم فئة محدودة العدد واسعة النفوذ. كانت تقوم بدور الوسيط بين الرعية والحكام. وتمتعت في كثير من الحالات بحق الضرب والجلد والسجن في القرى التابعة لها.

أما الملاكون الصغار من الفلاحين والعمال الزراعيين فقد كانوا يعملون في الحقول، وكثيراً ما كان العمال الزراعيون يعيشون على أرض الإقطاعي ولا يفارقونها أبداً، ويتصرف بهم الإقطاعي كما لو كانوا أجزاء من الأرض التي يعملون فيها. وبقي الملاكون الصغار والعمال الزراعيون على حالهم طوال العهد العثماني، دون تغيير، يعيشون حياة قاسية في بيوت من الطين والقش، يشاركون فيها مواشيهم، وتفتك بهم الأوبئة والمجاعات مستسلمين للأقدار، راضين بمصيرهم وبما هم عليه من الجور والجهل والذل والمهانة. يرهبهم البدوي فينهب ما تقع عليه عينه من ممتلكاتهم،

ويفرض عليهم الخاوة. ويفد إليهم جابي الضرائب فلا يبقي لديهم ما يكفي مؤونتهم.

أما التجار فكانوا يقيمون في المدن، ويتمتعون بثروة كبيرة نسبياً. ومع انفتاح أبواب فلسطين على أوروبا نمت هذه الفئة وأصبحت تلعب دوراً مهماً في الحياة الإجتماعية والثقافية. فإليها ينتمي علماء الدين، الذين نالوا منزلة رفيعة في الدولة والمجتمع. ومنها ظهر المثقفون الجدد الذين تخرجوا في المعاهد الأجنبية أو أكملوا دراساتهم العليا في جامعات الغرب.

أما الحرفيون فقد أقام معظمهم في المدن، وكان همهم تلبية حاجات المجتمع المحلي: مجتمع القرية والمدينة على حد سواء. ولما كانت الصناعة الحديثة لم تدخل بعد إلى البلاد فقد انحصرت هذه الفئة من المجتمع في طوائف (نقابات) حرفية يتحكم فيها شيوخ كل طائفة. والواقع أن الإمتيازات الأجنبية حالت دون تقدم أية حرفة أو صناعة، وبخاصة بعد أن غزت المنتجات الصناعية الأوروبية الأسواق المحلية في عصر الثورة الصناعية.

وفي بوادي فلسطين والأردن سيطرت القبائل المتنقلة ترعى الماشية ويغزو بعضها بعضاً وتفرض الخاوة على القرى وحيثما عجز الفلاح عن حماية نفسه. وكانت هذه الفئة من المجتمع تنقسم بدورها إلى عدة فئات من حيث وسيلة العيش: رعاة الأبل، ورعاة الأغنام والماعز، ورعاة البقر. والواقع أن القيم الإجتماعية في حياة القبيلة البدوية انعكست على الحياة الإجتماعية في المدن والقرى وبقيت سائدة فيها.

كان هذا المجتمع يفتقر إلى التجانس والتماسك. وبدأت أطره بالانهيار في مطلع القرن العشرين. وتراجعت القيم الإجتماعية القديمة لتحل محلها قيم جديدة مستوردة من الغرب. ونشأ صراع شديد بين الراغبين في التفرنج وتقليد الغرب وبين المحافظين أنصار التقليد للقيم القديمة. كما ظهرت فئة واعية تنادي بمبادىء جديدة وتحاول إعادة بناء المجتمع على أسس جديدة مغايرة تماماً للبنية القديمة.

أما أهم المشكلات الإجتماعية التي تناولها مفكرو هذه الفترة فهي:

١ ـ مشكلة التخلف

نظرت الفئة المثقفة في فلسطين والأردن إلى المجتمع المحلي بمنظار واسع تناول المجتمع العربي بأسره. فهذا بندلي الجوزي يرجع ضعف العرب إلى ميلهم إلى التطرف من «تضحية النفس إلى الأنانية الزائدة، ومن الحب العذري إلى التهتك، ومن الصداقة النادرة إلى الحقد الذي لا نهاية له، ومن التأله (المثالية) إلى الشعب بالماديات، ومن الديمقراطية الحقة إلى عبادة الشخصيات البارزة، ومن الإعتداد بالنفس وشدة الإعتماد عليها إلى سرعة اليأس أو السقوط في القنوط عند أول صعوبة يجدونها في طريقهم»(٦٠). ولكنه لا يحاول أن يذهب إلى أبعد من ذلك.

ويرجع خليل السكاكيني تخلف العرب إلى الخلاف في ما بينهم والتعصب الذميم دون أن يحلل أسباب هذا التعصب ويدرس جذوره وإنما يكتفي ببيان خطورته وعواقبه الذميمة. يقول في هذا الصدد:

«إختلفوا في الدين فاختلفت لغاتهم، فكانت للمسلم لغة وللنصراني لغة أخرى... بل اختلفوا في المعايش: فكانت الزراعة في المسلمين، والحدادة في الكاثوليكيين، والنجارة في الأرثوذكسيين، والصرافة في غيرهم... بل اختلفوا في اللباس، فكنت تعرف دين الواحد من ثوبه أو حذائه وغطاء رأسه، بل اختلفوا في الطعام والشراب... وفي الأسماء.. واعتزل بعضهم بعضاً، فسكن كل فريق ناحية، فكانت هناك محلة للمسلمين وأخرى للنصارى كأنه لم يكن بد أن يكون لكل فريق أشراطه وحيزه. اقتضى الدين ذلك أم لم يقتضه أجازه العقل أم لم يجزه، استحسنه الذوق أم لم يستحسنه، وافق المصلحة أم لم يوافقها»(٦١).

وينتهي السكاكيني إلى رفض هذه البنية الإجتماعية داعياً إلى بناء المجتمع على أسس أخلاقية سليمة ومثل إجتماعية جديدة بحيث تزول منه اللصوصية، ويختفي سوء إستعمال الوظيفة، ويخف الإدعاء والتظاهر بالوجاهة والغنى والعلم

---

(٦٠) الجوزي، بندلي: تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، ج ١، ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٦١) السكاكيني، خليل: المجموعة الكاملة، ص ٦٢.

والأدب(٦٢). ويزول منه الظلم والإبتزاز والاحتكار(٦٣).

ويرى عبدالله القلقيلي في تقليد المجتمعات الغربية خطراً كبيراً على شخصية الأمة، فيحذر من مغبة هذا التقليد الأعمى ويفضل أن يكون تقليدنا للغرب انتقائياً. قال من خطبة ألقاها في يافا عام ١٩٢٥ ما يلي:

«أما تقليدنا للغربيين تقليداً أعمى والجري خلفهم على غير هدى، إعتقاداً منا الكمال فيهم، وظناً منا أنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بما هم عليه من العادات والمذاهب وما هم فيه من الأزياء والأحوال فذلك صائر بنا إلى الردى وسوء العقبى. انه لجدير بنا ونحن نرى أنفسنا ذوي عقل وبصر أن لا نقلد الغرب في كل ما انتحلوه بلا ترو ولا تبصر، ومن غير ما نظر فيما نحن مقلدوهم فيه أهو حسن أو قبيح وضار أو نافع وصواب أو خطأ وملائم لبيئتنا أو غير ملائم ومطابق لتقاليدنا وآدابنا أو غير مطابق فإن ذلك سبيل من لا عقل له ولا بصر. . . فلندع تقليدهم في مثل هذه الخلال، ولننتق من أخلاقهم وعاداتهم أحسنها وأطيبها، ولنتخير من مواردهم أصفاها وأعذبها فإن ذلك أقوم سبيلاً وأحمد عاقبة ومآلا»(٦٤).

ولم يخرج المثقفون في فلسطين والأردن عن إطار هذه الدعوة العامة إلى التخلي عما في المجتمع العربي من عادات وتقاليد لم تعد تناسب روح العصر. غير أن نظرتهم إلى التخلف الإجتماعي بقيت سطحية تفتقر إلى التحليل العلمي وإرجاع الظواهر إلى أسبابها الحقيقية، كما بقيت دعوتهم هذه تعتمد النصح والإرشاد دون وضع تصور واضح لمعالم المجتمع الذي يريدون.

وكان موضوع المرأة يثير إهتمامهم. ويعتبر خليل السكاكيني رائد الدعوة إلى تحرير المرأة في فلسطين. ولا شك أنه تأثر بآراء قاسم أمين وسلامه موسى وغيرهما في مصر وبلاد الشام من دعاة تحرير المرأة. ولا تخرج حججه في هذا الصدد عن الحجج التي ساقها أولئك. فهو يقول:

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٦٣) المصدر نفسه، ص٥٦.

(٦٤) القلقيلي، عبدالله: التقليد، المقتطف، المجلد ٦٦ (مارس ١٩٢٥) ص ٣٠٢ - ٣٠٤.

«لا يزال الرجل في الشرق هو المسؤول عن شرف امرأته واخته وابنته ولذلك يدعي أن له الحق في أن يكون الوصي عليهن في حركاتهن وسكناتهن. ولا يعاملهن إلا بالعنف والضغط. ولو استطاع لحجب عنهن النسيم غيرة عليهن وإيذاناً بعدم ثقته بهن. ولا عجب إذا انحطت المرأة في الشرق. بل ان معاملة الرجل لها على تلك الصورة لأدل على انحطاطه.

«يجب أن يكون للمرأة شرف شخصي، ويجب أن تكون هي المسؤولة عنه. وإذا كانت كذلك فلها الحق المطلق أن تكون حرة، لا أن تغني نفسها في زوجها أو أبيها أو أخيها. لا تستطيع المرأة أن تكون شريفة إلا إذا كان لها شرف شخصي، ولا تحافظ على شرفها إلا إذا كانت هي المسؤولة عنه. ولا ترتقي في أفكارها وآدابها وأخلاقها إلا إذا كانت حرة. وهذا من حقوقها الطبيعية التي لا يجوز لأحد أن يضن بها عليها أو يسلبها إياها»(٦٥).

٢ - التربية

لما كانت التربية من الوسائل الأساسية لإعادة بناء المجتمع وتطويره فقد شدت إليها اهتمام العديد من المفكرين في فلسطين والأردن. وأجمع هؤلاء على أن التربية السائدة سيئة ولا بد من إعادة النظر في القيم التي تعتمدها والأسس التي تقوم عليها والمبادىء التي تتبناها والأساليب والوسائل التي تستعملها. فهذا خليل السكاكيني ينتقد النظام التعليمي السائد في العهد العثماني والذي كان موزعاً بين الحكومة والإرساليات الأجنبية. فقد كانت الحكومة العثمانية عاجزة عن إنشاء المدارس الحديثة الكافية في البلاد كما كانت الإرساليات الأجنبية لا تعرف حاجات البلاد، وجل اهتمامها بالتربية الدينية. بينما لا تولي اللغة القومية أية عناية ولا تنمي الروح الوطنية بين الشبان. ويدعو السكاكيني إلى تربية حديثة تقوم على مبادىء علمية وإنسانية، وذات روح قومية عربية تستهدف تنمية المشاعر الوطنية بين أبناء الوطن.

وهو يرى تعذر تحقيق هذه الأهداف إذا لم تصبح اللغة العربية لغة التدريس.

(٦٥) السكاكيني، خليل: كذا أنا يا دنيا، ص ١٤٠ - ١٤١.

«فكل درس مهما كان موضوعه، لا يمكن أن يجرد عن أن يكون درساً في اللغة، وكل أستاذ مهما كان موضوعه، لا يمكن إلا أن يكون أستاذاً للغة». ولا بد أن تكون لغة الكتب المدرسية في كل موضوع لغة صحيحة لا تشوبها ركاكة أو عجمة. ولا بد أن يكون الأستاذ بإزاء اقتداره مستوفياً الشروط التربوية[66].

وسعى السكاكيني إلى تبسيط تعليم اللغة العربية، وسار على هذا النهج الذي اختطه من قبله عدد من الأدباء وفقهاء اللغة أمثال أحمد فارس الشدياق وإبراهيم اليازجي وجرجي زيدان وروحي الخالدي وجبر ضومط وانستاس الكرملي. وكان له باع طويل في تبسيط تعليم اللغة العربية وألف عدداً من الكتب المدرسية بقيت أنموذجاً يحتذى حتى اليوم. وألقى محاضرات عدة في دلائل البيان في اللغة العربية، وفي الأفعال في اللغة العربية، في الجامعة المصرية عام ١٩٢٠، شرح من خلالها وجهة نظره في هذا المجال[67].

واعتمد السكاكيني في كتابه «الجديد في تدريس مبادىء القراءة» وهو في أربعة أجزاء للمرحلة الإبتدائية الأولى، الأسلوب التحليلي التركيبي الذي يبدأ بالكلمة تكتب على السبورة فيقرأها المعلم مرتين أو ثلاث مرات ويكررها التلاميذ إلى أن يستظهروها ثم يحللها المدرس إلى حروفها، فيعرفهم على كل حرف باسمه أو بصوته. وبعد هذا التحليل يركب التلاميذ من الحروف التي عرفوها كلمات جديدة ثم يركبون جملاً وقصصاً. أي أنه يبدأ بالكلمة فالجملة فالقصة. وهذه تجربة جديدة في تعلم اللغة العربية لم يسبقه إليها أحد. فكانت تجربة رائدة بقيت تدرس في فلسطين والأردن لفترة طويلة[68].

كانت طريقة السكاكيني ثورة في تعلم اللغة العربية. فقد كانت الوسيلة الوحيدة لتبسيط قواعد اللغة العربية وتأليف الأشعار وتسهيل حفظها كما فعل الشيخ سعيد الكرمي الذي عاصر السكاكيني. إذ ألف بعض الأشعار على طراز ألفية ابن

(٦٦) السكاكيني، خليل: حاشية ص ٣٢ ـ ٣٣

(٦٧) نشرت هذه المحاضرات في مجلة المقتطف، المجلد ٥٨، فبراير ومارس وإبريل ومايو ١٩٢١.

(٦٨) السكاكيني، خليل، الأصول. . .

مالك من أجل هذه الغاية. ومن ذلك أرجوزته في «المرفوع»:

وتسعة أنواعه المرفوع — ففاعل كنجح المطيع
ونائب الفاعل ذاك الثاني — كُيرحم التائب من عصيان
والمبتدا الثالث ثم الخبر — رابعها كالعلم نور مزهر
واسم لكان وشبيهها كما — تقول كان الله عون العلما
وخبر لباب إن السادس — كأن جاهل العلوم بائس
وما للا لنفي جنس من خبر — سابعها كلاجهول معتبر
واسم لما ولا اللتين شبها — بليس فيما قاله أولو النهى
والعد بالمضارع الذي خلا — من ناصب وجازم قد كملا[69]

وكان لخليل طوطح[70] الذي عاصر خليل السكاكيني دور بارز في الدعوة إلى التربية الحديثة. فقد أعجب طوطح بالتربية الأمريكية، والتي تهدف، حسب قوله، إلى إعداد رجال أحرار ذوي عقول مبدعة مستقلة يمكن الإعتماد عليها في كل مكان وزمان. وقارن بين طرق التدريس الامريكية وتلك التي كانت شائعة في معاهد الشرق العربي. ولاحظ أن المعلمين الامريكيين يركزون اهتمامهم على تدريب التلاميذ على التفكير السليم واعتماد العقل بينما يعمد المعلمون العرب إلى تدريب تلامذتهم على استظهار الآيات والقواعد والأقوال. وبينما يتصرف التلاميذ في أمريكا في الصف بروح ديمقراطية، فلا تكبر ولا تعصب ولا إرهاب، وتساهم النشاطات الرياضية في تنمية هذه الروح الإستقلالية الديمقراطية في نفوس الطلبة، يعتاد التلاميذ العرب على الصمت والإرهاب الذي يمارسه المعلم.

ويتحدث طوطح عن المنح الجامعية والمساعدات التي تقدم للباحثين وعن منازل الطلبة في أمريكا بإعجاب شديد. وينتهي من ذلك كله إلى دعوة العرب إلى

(٦٩) الكرمي، عبد الكريم: سعيد الكرمي، ص ٢٧٥.

(٧٠) تخرج في برمانا ثم سافر الى الولايات المتحدة عام ١٩٠٦ حيث التحق بجامعة كلارك وأكمل تعليمه في التربية في جامعة كولمبيا في نيويورك وحصل على الدكتوراه في التربية وموضوع أطروحته «التربية عند العرب». فكانت من أولى الدراسات الجادة في هذا الموضوع. نشرت في القدس (المطبعة التجارية) عام ١٩٣٣.

أن يأخذوا بالمدنية الامريكية، لأنهم أحوج إليها من المدنية الأوروبية. ويبرر ذلك بقوله: «روح امريكا أفضل لنا لأنها ديمقراطية عملية ترفع شأن كل واحد من غير نظر إلى نسبه وجنسه وماله. كل هناك يعتمد على كده. وهذه الروح تميت الكسل وتحيي النشاط والعمل. وما أحلى النشاط السوري لو نفخت فيه الروح الامريكية الحقيقية. ليت بنينا وبناتنا يذهبون إلى اميركا لكسب العلم لا لكسب المال. وليت متهذبي شبابنا وشاباتنا يرجعون إلينا ليعينونا على الفتك بجيوش الجهل والخمول» (٧١).

(٧١) طوطح، خليل: التعليم في امريكا، **المقتطف**، المجلد ٤٣، يوليو ١٩١٣ ص ١٢ - ١٧.

مصادر البحث

١ - المصادر العربية

الأسد، ناصرالدين - **الإتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن**، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٧.

- محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦١.

- محاضرات عن خليل بيدس، رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٦٣.

- محمد روحي الخالدي، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين، معهد البحوث والدراسات العليا، القاهرة، ١٩٧٠.

الأهواني، أحمد فؤاد - محمد إسعاف النشاشيبي مدرسة أدبية، **مجلة الرسالة**، عدد ٧٦٢ القاهرة (١٩٤٨).

الإيراني، ميرزا فضل الله - الباب والبابية، مقالة في «**الهلال**»، ج ٥ (١٩٠٥/٣/١) ص ٣٥١ - ٣٥٨.

برنامج الحزب الوطني العربي الفلسطيني ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣، مطبعة مرآة الشرق.

البستاني، وديع ـ **ديوان الفلسطينيات**، دار الطباعة والنشر الشرقية، بيروت، ١٩٤٦.

بهائي، ساذج ـ البابية والبهائية، مقالة في **الهلال**، ج ٩ السنة ٣٠ (١/٦/١٩٢٢) ص ٨٣٦ ـ ٨٤٠.

ـ بهاء الله والبهائية، مقالة في **الهلال**، ج ١٠ (١/٧/١٩٢٢) ص ٩٢٢ ـ ٩٢٧.

بيدس، خليل ـ **مسارح الأذهان**، مجموعة أدبية فنية روائية في حقيقة الحياة، نشر إلياس أنطون الياس، القاهرة، ١٩٢٤.

البيطار، عبدالرزاق ـ **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، ٣ أجزاء، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، تحقيق محمد بهجة البيطار، دمشق، ١٩٦١ ـ ١٩٦٣.

التميمي، محمد رفيق ومحمد بهجب ـ **ولاية بيروت، القسم الجنوبي**، بيروت ١٣٣٥ هـ.

الجديلي، محمد عبدالرحمن ـ لوعة صديق على صديقه إسعاف، مجلة **الرسالة**، عدد ٧٦٢ القاهرة (١٩٤٨).

الجندي، أدهم ـ **أعلام الأدب والفن**، ج ١، مطبعة مجلة صوت سورية، دمشق ١٩٥٤.

ـ **شهداء الحرب العالمية الكبرى**، مطبعة العروبة، دمشق ١٩٦٠.

حسن، محمد عبدالغني ـ أعلام من الشرق والغرب. إسعاف النشاشيبي، **مجلة الرسالة** عدد ٣٦٥ القاهرة ١٩٤٨.

الحسين، الأمير عبدالله بن ـ **الأمالي السياسية**، مطبعة خليل نصر، عمان ١٩٣٩.

ـ **مذكرات الملك عبدالله**، المطبعة الهاشمية، الطبعة الرابعة، عمان ١٩٦٥.

ـ **الأعمال الكاملة اللامستجدة للنشر**، بيروت ١٩٧٥.

الحصري، ساطع ـ حولية الثقافة العربية، السنة الأولى، الجزء الأول، الإدارة الثقافية/جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٤٩.

الحكيم، يوسف ـ **سورية والعهد الفيصلي**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦.

حماده، سعيد ـ **النظام الإقتصادي في فلسطين**، المطبعة الاميركانية، بيروت ١٩٣٩.

حمدان، داود ـ إسعاف النشاشيبي، **مجلة الرسالة**، القاهرة عدد ٧٦٤ (١٩٤٨).

الخالدي، روحي ـ الإنقلاب العثماني وتركيا الفتاة، مقالات في **الهلال** ج٣، السنة ٢١٧ (١ فبراير ـ ١ مايو ١٩٠٨).

ـ **أسباب الإنقلاب العثماني**، مطبعة المنار، القاهرة ١٣٢٦ هـ.

ـ **المقدمة في المسألة الشرقية منذ نشأتها إلى الربع الثاني من القرن الثامن عشر**، مطبعة دار الأيتام الإسلامية بالقدس، ١٩١٢.

ـ **تاريخ علم الأدب عند الأفرنج والعرب وفيكتور هوكو**، مطبعة الهلال، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩١٢.

ـ **الكيمياء عند العرب**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣.

خوري، يوسف ـ **الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٦.

داغر، أسعد ـ المدارس الروسية في سورية، مقالة في **المقتطف**، المجلد ٢٦ اكتوبر ١٩٠١، ص ٩٠١ ـ ٩٠٤.

داغر، يوسف أسعد: **مصادر الدراسة الأدبية**، الجزء الثاني، القسم الأول

١٨٠٠ ـ ١٩٥٥، منشورات جمعية أهل القلم بيروت ١٩٥٥ .

الدباغ، إبراهيم ـ **شهد وعلقم**، جمع وترتيب مصطفى درويش الدباغ .

الدبس، يوسف ـ **تاريخ سورية**، الجزء الرابع، المجلد الثامن، المطبعة العمومية، بيروت، ١٩٠٥ .

دروزة، محمد عزة ـ **الوحدة العربية**، المكتب التجاري للنشر، بيروت ١٩٥٧ .

ـ **حول الحركة العربية الحديثة**، الجزء الأول، المطبعة العصرية، صيدا ١٩٥٠ .

ـ **نشأة الحركة العربية الحديثة**، منشورات المطبعة العصرية، صيدا ١٩٧١ .

الزبور الإلهي لداود النبي والملك، طبعة ثالثة، مطبعة القبر المقدس البطريركية، القدس ١٨٦٦ .

الزركلي، خيرالدين ـ **عامان في عمان**، المطبعة العربية، القاهرة، ١٩٢٥ .

ـ **ما رأيت وما سمعت**، القاهرة، ١٩٢٢ .

ـ **الأعلام**، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٦٩ (١١ جزءاً).

زلوم، حموده ـ **خليل السكاكيني**، المطبعة الفنية التجارية، عمان، ١٩٧٢ .

الزيات، أحمد حسن ـ إسعاف النشاشيبي، **مجلة الرسالة**، عدد ٧٦١ القاهرة (١٩٤٨).

زياده، نقولا ـ **دراسات في الثورة العربية الكبرى**، الشركة الأردنية للتوزيع والنشر، عمان.

زيدان، جرجي ـ فلسطين: أحوالها العلمية، مقالة في **الهلال** ٢ ج ٨ السنة ٢٢ (مايو ١٩١٤) ص ٦٠٣ ـ ٦٠٦ .

تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٤، دار الهلال، القاهرة. ب. ت.   ب.

سعيد أمين، **الثورة العربية الكبرى**، ٣ مجلدات، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة.

السكاكيني، خليل ـ **الإحتذاء بحذاء الغير**، القدس، ١٨٩٦ .

ـ **النهضة الأرثوذكسية في فلسطين**، القدس، ١٩١٣ .

ـ **فلسطين بعد الحرب الكبرى**، القدس، ١٩٢٠ .

ـ **مطالعات في اللغة والأدب**، القدس، ١٩٢٥ .

ـ **سري**، القدس، ١٩٣٤ .

ـ **حاشية على تقرير لجنة النظر في تيسير قواعد اللغة العربية**، القدس، ١٩٣٨ .

ـ **لذكراك**، القدس، ١٩٤٠ .

ـ **وعليه قس**، القدس، ١٩٤٣ .

ـ **ما تيسر**، جزءان، القدس، ١٩٤٣، ١٩٤٦ .

ـ **الجديد في تدريس مبادىء القراءة** (أربعة أجزاء).

ـ **كذا أنا يا دنيا**، يوميات خليل السكاكيني، أعدتها للنشر هاله السكاكيني، المطبعة التجارية، القدس، ١٩٥٥ .

ـ **الأصول في تعليم اللغة العربية**، مطبعة الإعتماد، القاهرة، ١٩٥٢ .

ـ **المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكيني**، الجزء الأول،

ـ **الأدبيات**، المطبعة العصرية، القدس، ١٩٦٢ .

السيد، أحمد لطفي ـ إسعاف النشاشيبي، **مجلة الرسالة**، عدد ٧٦٣ القاهرة ١٩٤٨ .

الشافي، عبد الأحد ـ **لمحة تاريخية في أخوية القبر المقدس اليونانية**، بيروت ١٩٨٣، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٠٩ .

الشطي، محمد جميل ـ **أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر** ١٢٠١ ـ ١٣٥٠ هـ، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٧٢ .

شقير، نعوم ـ مدرسة في عكا، **المقتطف**، السنة ١٣، (١٨٨٨)، ص ٦٩٣.

الشهابي، مصطفى ـ **القومية العربية**، معهد الدراسات العربية العليا، طبعة ثانية، القاهرة ١٩٦١.

شيخو، لويس ـ تاريخ فن الطباعة في المشرق، مجلة **المشرق**، السنة ٥ العدد ١٩٠٢/١/١٥، ص ٦٩ ـ ٧٤.

ـ الصهيونية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، **المشرق**، العدد ١٠ اكتوبر ١٩٢٠ ص ٧٦٨ ـ ٧٧٨.

ـ **الآداب العربية في القرن التاسع عشر**، الجزءان الأول والثاني الطبعة الثانية، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٢٦.

طرزي، فيليب دي ـ **تاريخ الصحافة العربية**، المطبعة الأدبية، بيروت ١٩١٣.

طوطح، خليل ـ **التربية عند العرب**، المطبعة التجارية، القدس، ١٩٣٣.

ـ التعليم في امريكا، مقالة في **المقتطف**، المجلد ٤٣، يوليو ١٩١٣ ص ١٢ ـ ١٧.

ظبيان، تيسير ـ **الملك عبدالله كما عرفته**، المطبعة الوطنية، عمان، ١٩٦٧.

العارف، عارف ـ **تاريخ غزة**، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، القدس، ١٩٤٣.

عبّود، القس أسعد ـ **تاريخ الناصرة**، دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٣.

عزام، عبدالوهاب ـ مصاب العرب والعربية، مجلة **الرسالة**، عدد ٧٦١ القاهرة ١٩٤٨.

العقاد، أحمد خليل ـ **الصحافة العربية في فلسطين**، الطبعة الثانية، دار العروبة دمشق، ١٩٦٧.

العودات، يعقوب ـ **من أعلام الفكر والأدب في فلسطين**، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ١٩٧٦.

غرايبة، عبدالكريم ـ **سورية في القرن التاسع عشر (١٨٤٠ ـ ١٨٧٦)** معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٦٢.

غصوب، يوسف ـ مع الكونت دي فولني في لبنان وسورية، مجلة **المشرق**، السنة ٤١، عدد ت/ك ١ ١٩٤٧.

فيصل، شكري ـ رجل استأثر به الموت، مجلة **الرسالة**، عدد ٧٦١، القاهرة ١٩٤٨.

قاسمية، خيرية ـ **عوني عبدالهادي: أوراق خاصة**، مركز الابحاث (منظمة التحرير الفلسطينية)، بيروت ١٩٧٤.

قزاقيا، خليل إبراهيم ـ **تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية**، مطبعة المقتطف القاهرة ١٩٢٤.

القلقيلي، عبدالله ـ التقليد، مقالة في **المقتطف**، المجلد ٦٦ (مارس ١٩٢٥) ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤.

كرد علي، محمد ـ **خطط الشام**، ستة أجزاء، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١.

ـ **المذكرات**، أربعة أجزاء، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٤٨.

ـ سكة حديد الحجاز، **المقتطف**، مجلد ١٩ (نوفمبر ١٩٠٤) ص ٩٧٠ ـ ٩٨٠.

الكرمي، عبدالكريم ـ **الشيخ سعيد الكرمي، سيرته العلمية والسياسية، منتخبات من آثاره**، دمشق، ١٩٧٣.

ـ **أحمد شاكر الكرمي، مختارات من آثاره الأدبية والنقدية والقصصية**، مكتبة أطلس، دمشق ١٩٦٤.

كسافيه، فرنتس ـ الصهيونية وغاياتها، **المشرق**، السنة ٢٣، العدد ٢، شباط ١٩٢٥ ص ١١٧ ـ ١٣٤.

كتاب مختصر تاريخ التوراة لأجل الشبان، مقتطف من مؤلف المعلم شميد، دير الرهبان الفرنسيسكان، سنة ١٨٥٦ .

كيالي، عبدالوهاب ـ **تاريخ فلسطين الحديث**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٣ .

لامنس، هنري ـ اليهود في فلسطين ومستعمراتهم، **المشرق**، م ٢ (١٨٩٩) ص ١٠٨٨ ـ ١٠٩٤ .

لاون الثالث عشر (البابا) ـ **رسالة البابا لاون الثالث عشر** المؤرخة في ١٥ أيار ١٨٩١ ، مطبعة الأرض المقدسة للآباء الفرنسيسيين، القدس ١٨٩٣ .

مبارك، زكي ـ هذا أديب، مجلة **الرسالة**، عدد ٨، القاهرة ١٩٤٠ .

المحافظه، علي ـ **تاريخ الأردن المعاصر عهد الإمارة** ، مطبعة القوات المسلحة الأردنية، عمان ١٩٧٣ .

ـ **الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٥ .

مرشد المسيحي لإفادة الطوائف الشرقية الكاثوليكية، مطبعة الرهبان الفرنسسكانيين القدس، ١٨٥٣ .

معلوف، لويس ـ تاريخ حوادث الشام ولبنان، **المشرق**، السنة ١٥، العدد تموز ١٩١٢ .

المقدسي، أنيس الخوري ـ **الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث**، طبعة ثانية، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٦٠ .

المقدسي، جرجس الخوري ـ التعليم قديماً وحديثاً في سورية، **المقتطف**، المجلد ٣١، سبتمبر ١٩٠٦ .

مكاريوس، شاهين ـ المعارف في سورية، **المقتطف**، السنة ٧ (١٨٨٣) ص ٤٧٠ ـ ٤٧٢ .

ملول، نسيم ـ **كتاب أسرار اليهود**، القسم الأول، القاهرة ١٩١١ .

موسى، منير مشبك ـ **الفكر العربي في العصر الحديث، سورية من القرن التاسع عشر حتى العام ١٩١٨**، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٣ .

موسى، سليمان ـ **تأسيس الأمارة الأردنية**، المطبعة الأردنية، عمان ١٩٧١ .

الناعوري، عيسى ـ خليل السكاكيني الرجل الأديب المربي، **مجلة الأديب**، بيروت أيار ١٩٥٤ .

النشاشيبي، إسعاف ـ **كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه**، مطبعة دير الروم الأرثوذكسي، القدس ١٣٤٠ (طبعة ثانية).

ـ **مجموعة النشاشيبي**، الكتاب الأول، الطبعة الأولى، المطبعة السلفية القاهرة، ١٣٤١ هـ .

ـ **قلب عربي وعقل أوروبي**، خطبة ألقاها في الجامعة الامريكية في بيروت في ١٧ مايس ١٩٢٤ ، المكتبة السلفية، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٣٤٢ هـ .

ـ كلمة في اللغة العربية، خطبة ألقاها في دار جمعية الرابطة الشرقية في القاهرة في اليوم الأول من ذي القعدة سنة ١٣٤٣ هـ ، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٥ .

ـ **البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد شوقي**، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٣٢ م/١٣٥١ هـ .

ـ **البستان**، نموذج من الأدب العربي، كتاب الإستظهار للمدارس الأولية والابتدائية وهو سبعة أقسام مدرجة موافقة قوى الطلاب، الطبعة الثالثة، مطبعة المعارف، القاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ .

النشاشيبي، ناصرالدين ـ إن جسمي بعد خالي لحل، مجلة الرسالة، مجلد ١٧، القاهرة ١٩٤٩.

النمر، إحسان ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٨.

نيوتن، فرنسيس أملي ـ خمسون عاماً في فلسطين، ترجمة وديع البستاني، الطبعة الثانية، عمان ١٩٦٧.

هيئة الدراسات العربية في الجامعة الامريكية ـ ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي وغيره، مجلة الأبحاث الجزءان الثاني والثالث، حزيران وأيلول ١٩٥٩.

وثائق المقاومة الفلسطينية العربية (١٩١٨ ـ ١٩٣٩)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨.

ياسين، عبدالحميد والناعوري، عيسى والغول، فايز ـ ذكرى السكاكيني، عمان، ١٩٥٧.

ياغي، عبدالرحمن ـ حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٨.

يعقوب، يهوشع ـ تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٨، مطبعة المعارف، القدس، ١٩٧٤.

٢ ـ المصادر الأجنبية

— BAKER, Edward V. B.- *Syria and Egypt under the Last Five Sultans of Turkey*, 2Vols., Arno Press, New York, 1973.

— BURKHARDT, John Lewis - *Travels in Syria and the Holy Land*, john Murray, London, 1822.

— CHEVALIER, Dominique - *La Société du Mont Liban à L'époque de la Révolution Industrielle en Europe*, Paul Geuthner, Paris, 1971.

— COHEN , AMON- *Palestine in the 18 th century, Patterns of Government and Administration*, The Magnes Press, Jerusalem, 1973.

— DAWN, C. E.- *From Ottomanism to Arabism, Essay on the Origins of Arab Nationalism*, University of Illinois Press, Urbana, 1973.

DOUIN , Georges - *La Premiére Guerre de Syrie, La Conquête de La Syrie (1831 - 1833) T. I*, Société Royale de Géographie d'Egypte, Le Caire, 1931.

— *FARAH, Caesar* - Protestantism and British Diplomacy in Syria, *International journal of Middle East Studies*, University of Mennesota, 7 (1976), pp. 321 - 344.

— HOPWOOD, Derek - *The Russian Presence in Syria and Palestine*, 1843 - 1914, Clarendon Press, Oxford, 1969.

— IRABI , A — *Sozialgeschichte Palastinas*, Lenos Presse, Basel, 1978.

— MEERZA, Reeza Koole - *Journal of a Residence in England and a Journey from and to Syria*, 2 vols, Grcgg International, Richmond, Surrey, 1971.

— MINERBI, Sergio - *L'Italie et la Palestine 1914- 1920* Presses Universitaires de France, Paris, 1970.

— NEHER -BERNHEIM , R. - *La Déclaration Balfour* 1917, Juillard, Paris, 1969.

— NEVAKIVI, J. - *Britain, France and the Arab Middle East*, 1914 - 1920, Athlone Press, London, 1969.

— OPPPENHEIM, Max Freiherr von - Die Beduinen, Band II, Otto Harrassowitz, Leipzig, 1943.

— POIDEVIN, Raymond - *Les Relations Economiques et Financières entre la France et L'Allemagne de* 1898 *à 1914*, Librairie Armand Colin, Paris, 1969.

— PORATH, Y. - The *Emergence of the Palestine National Movement 1918 - 1929*, Frank Cass, London, 1974.

— SHAW , Thomas - *Travels or Geographical Phisical and Miscellaneous Observations Relating to Several Parts of Barbary and the Levant*, reprinted in 1972 by Gregg International, Publishers, England.

— THEVENOT. Monsieur de - The *Travels of Thevenot in the Levant*, Gregg International, Meisenheim/Glan, West Germany, 1971.

— THOBIE, Jacqnes - *Intérêts et Impérialisme Francais dans l'Empire Ottoman 1895 - 1914*, Imprimerie nationale Paris, 1977.

— TIBAWI , A. L. - *Arab Education in Mandatory Palestine,* Luzac and Co. - *Lon don, 1956.*

— *British Interests in Palestine,* , Oxford University Press, London, 1961.

— *American Interests in Syria 1800 - 1901,* A Study of Educational , Literary and Religious Work, Clarendon Press, Oxford, 1966.

— URQUHART, Dawid- *The Lebanon (Mount Souria) A History and a Diary* in two volumes, Gregg International Publishers, England, 1972.

VOLNEY - Voyage en Egypte et en Syrie, Mouton and Co. Paris, 1959.

مختارات

السياسة

من قلم عباس أفندي الخماش من إشراف وعلماء نابلس

مجلة «الجنان» ج١٨، أيلول ١٨٧٠

من المعلوم أن مدار انتظام العالم إنما يكون بالسياسة الحسنة أعني وضع الشي في محله فإن هذا هو الأساس الذي تُبنى عليه قواعد العدل والأمان وتنتج قضاياهُ بما يومل من كل ما هو ذو شأن فترى في أرضِه الذئاب مع الغنم ترعى والعصاة على قدم الطاعة تسعى ويكفينا من ذلك ما شاهدناه الآن من جملة قبائل العربان بني صخر والسردية والفحيلية والعيسى والسرحان فإنهم لقلة ما عندهم بهذا العام من النبات قد انتقلوا بمضاربهم وإبلهم ومواشيهم إلى جهة بلاد حارثه وغوربيسان وعجلون داخل متصرفية لواء البلقاء وسلكوا في ذلك مسلك عموم الرعايا بدون تعدي لا على شخص ولا على زرع ولا على صرح ولا على ضرع بل جميعهم داخلون تحت طاعة أوامر الحكومة السنية المحلية منتظمون في سلك بقية الرعية لم يسمع أن القبيلة الفلانية أغارت ولا أنشبت للحرب وأثارت ولا أن التاجر الفلاني المار عليهم نهب منه سلبهُ وأخذت فضته وذهبهُ فأين هذا مما كانت تنطوي عليه سرائرهم الخبيثة في الزمن الماضي ويظهرون من قبيح الفساد في جميع الأراضي كم شنوا الغارات ليالي وأيام وكم قطعوا الطرق سنين وأعوام وكم أوقعوا في البلاد من كل مفسدةٍ قطعت صلة الأرحام من قتلوهُ فدمُهُ هدر لا دية لهُ ومن أسروهُ فلا سراح لهُ إلا بالفدية المجملة فمن نظر إليهم الآن ورأى ما هم عليه من عدم التعدي والسلوك كبقية الرعايا جزم بأن هذا من توفيق المولى سبحانهُ وتعالى الذي

هيا ويسر لنا ذاتاً كذات دولة والينا الأفخم الذي بذل مجهودَه في توطيد أسباب الراحة والرفاهية وصرف وقتهُ في الإقدامات الخيرية والإصلاحات الكافية الوافية والنظر في أمور العباد بعين غير ساهية فنال مقصودَه من إزالة أسباب التعديات والعصيان وقمع أرباب الظلم والطغيان فترى الجميع رافلين في حلل الراحة والأمنية عارفين حق ما هم فيهِ من المعدلة الوفية يبتهلون إلى المولى سبحانَهُ وتعالى بتأييد تأيد سر سرير السدة الخاقانية التي منت عليهم بهذا الوالي المعظم الذي أنام الأنام في أمنية من تأخر منهم أو تقدم شاكرين إقداماته الوفية وهممهُ العلية التي من جملتها إحسانُه بسعادة متصرفهم محمد سعيد باشا الوحيد في تحصيل أسباب الراحة وكمال التوطيد.

الإنصاف

عباس الخماش

لا يخفى أن قضية العدل تركبها يكون بالولوج في سبل الصداقة والحقانية وإزالة ما استكن عليه من بعض الرعايا سوء سريرة الطوية فمن التصق بالسلوك في هذه الشريعة وقطعهُ من سوء الطوية الزريعة وغرس غراس العدل في تخوم أرض الإنصاف وأسس إقداماته على قواعد الإسعاف والاعتساف أثمرت قضاياهُ بنتائج الأمان وخص بالثناء والحمد والفخر والمجد وأشير إليه بالبنان ومن حاد عن هذا السبيل وقع في سوء الإرباكات والقال والقيل وبناء على ذلك وجب علينا مقابلة للنعمة أن نشكر مساعي متصرفنا المفخم شمدين زاده سعاد تلو أفندم محمد سعيد باشا على ما ولانا به من عميم الطافه وتوجنا به من جدير إنصافهِ خفقت لدينا الوية معدلتِه الباهرة وسطعت لدينا أنوار حقانيتِهِ الظاهرة وعلى الخصوص في مادة الأعشار الذي ذكر ملتزميهِ في الماضي قد طار في جميع الأقطار فإنهُ بهذه السنة نظراً لقلة المحصولات والناتج كان يخطر بالبال وقوع الأهالي في ارتباكات الخسران والوبال ولا يومل تخلصهم من أنياب افتراس الملتزمين ولا من ورطات تنذير المخمنين غير أنه عن إقدامات الموما إليهِ صار إجراء له التعشيرات الشرعية على محورها المطلوب بأتم مقصود وأعظم مرغوب لم يحتج فيهِ التخمين والتقويم ولم يمل فيه عن الطريق المستوي المستقيم ثبت ذلك لدينا بما كنا نشاهده في الماضي من دوام التشكي والمنازعات بين الملتزمين وأصحاب المزروعات وبعناية والينا الأفخم ومتصرفنا الأكرم

قد حزنا بهذه السنة على كمال الراحة ولم نرَ من جاء يتظلم تعشير الفلاحة ولا عجب من ذلك فإن هذه الإقدامات الخيرية ناشبة من مصدرها ومع ذلك فهي من وظائف من قلد النظر في أمور العباد والرعايا وهل يقوم بواجب ذلك إلا من أخلص سريرتُه وحسنت منه الطوايا نعم فعجب من أهالي قرية بلعا من أعمال نابلس فإنهم مع انفرادهم في هذه السنة بالشكوى في مادة الأعشار نظراً لقلة محصولاتهم قد أجابت الحكومة سؤلهم وأجبرت الملتزم على أن يفوض لهم أعشار قريتهم بتسعة وأربعين ألف غرش فعند ذلك ما قبلوا أن يلتزموا قريتهم على الاشتراك بينهم بهذا المقدار بل طلب كلٌّ منهم أن يختص به ليحوز على ما هو معلوم عندهُ من الربح.

«الشرف المؤيد لآل محمد»

ما كتبه الشيخ ابن إسماعيل النبهاني عن حياته

ولدتُ في قرية اجزم المذكورة آنفاً سنة خمس وستين تقريباً (١٢٦٥ هـ). وقرأت القرآن على سيدي ووالدي الشيخ صالح الحافظ المتقن لكتاب الله الشيخ اسماعيل النبهاني. وهو الآن في عشر الثمانين كامل الحواس قوي البنية جيد الصحة، مستغرق أكثر أوقاته في طاعة الله تعالى. كان ورده في كل يوم وليله ثلث القرآن. ثم صار يختم في كل أسبوع ثلاث ختمات، والحمد لله على ذلك. «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» (سورة يونس آية ٥٨). ثم أرسلني حفظه الله وجزاه عني أحسن الجزاء إلى مصر لطلب العلم، فدخلت الجامع الأزهر يوم السبت غرة محرم الحرام افتتاح سنة ثلاث وثمانين بعد المائتين والألف. وأقمت فيه إلى رجب سنة تسع وثمانين. وفي هذه المدة أخذت ما قدره الله لي من العلوم الشرعية ووسائلها، عن أساتذة الشيوخ المحققين، وجهابذة العلماء الراسخين، من لو انفرد كل واحد منهم في إقليم، لكان قائد أهله إلى جنة النعيم، وكفاهم عن كل ما عداه في جميع العلوم، وما يحتاجون إليه من منطوق ومفهوم، أحدهم بل أوحدهم، الأستاذ العلامة المحقق، والملاذ الفهامة المدقق، شيخ المشايخ وأستاذ الأساتذة سيدي الشيخ إبراهيم السقا الشافعي المتوفى سنة ألف ومائتين وثمان وتسعين عن نحو التسعين سنة. وقد قضى هذا العمر المبارك الطويل في قراءة الدروس، حتى صار أكثر علماء العصر تلاميذه إما بالذات أو بالواسطة. لازمت

دروسه رحمة الله ثلاث سنوات. وقرأت عليه شرحي التحرير والمنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري بحاشيتيهما للشرقاوي والبجيرمي. وقد أجازني رحمه الله بإجازة فائقة وهي هذه بحروفها:

«بسم الله الرحمن الرحيم لك الحمد على مرسل آلائك ومرفوعها، ولك الشكر على مسلسل نعمائك وموضوعها، بحسن الانشاء وصحيح الخبر، يا من تجيز من استجازك وافر الهبات، وتجير من استجارك واعر العقبات، فيغدو موقوفاً على مطالعة الأثر، ما بين مؤتلف الفضل ومتفقه، ومختلف العدل ومفترقه، جيد الفكر سليم الفطر، يجتنى بمنتج قياسه شريف الفوائد، ويجتبى بمبهج اقتباسه شريف الفوائد، ويحلى نفيس النفوس بعقود العقائد الغرر، فإن صادفه مديد الإمداد، وصادقه مزيد الأنجاد، وصفا مشربه الهني ولا كدر. ووجد دور الجواهر ويا نعم الوجادة، بادر عند ذلك بالاستفادة والإفادة، ولا أشر ولا بطر، فبذل المعروف وبدل المنكر، إذ ليس عنده إلا صحاح الجوهر، معتنى وما اقتنى غيرها عندما عثر، لا يزور ولا يدلس، ويطهر ولا يدنس، ولا يعاني الشرر، فيا من منَّ على هذا المنقطع الغريب، ومنحه منحة المتصل القريب، امنحني السلامة في داره ونجني من سقر، ومنك موصول صلات صلواتك ومقطوعها. وسلسل سلسبيل تسليماتك ومجموعها، على سندنا وسيدنا محمد سيد نوع البشر، وعلى آله وأصحابه، وحملة شريعته وأحبابه، ومن اقتفى أثرهم وعلى جهاد نفسه صبر.

«أما بعد، فلما كان الإسناد مزية عالية، وخصوصية لهذه الأمة عالية، دون الأمم الخالية، اعتنى بطلبه الأئمة النبلاء أصحاب النظر، إذ الدعيّ غير المنسوب، والقصي غير المحسوب، وسليم البصيرة غير أعشى الفكر. ولما كان منهم الأمام الفاضل، والهمام الكامل، والجهبذ الابر، اللوذعي الأريب والألمعي الأديب، ولدنا الشيخ يوسف بن الشيخ اسماعيل النبهاني أيده الله بالمعارف ونصر، طلب مني إجازة ليتصل بسند سادتي سنده، ولا ينفصل عن مددهم مدده، وينتظم في سلك قد فاق غيره وبهر، فأجبته وإن لم أكن لذلك أهلاً، رجاء أن يفشو العلم وأنال من الله فضلاً، وأنجو في القيامة مما للكاتمين من الضرر. فقلت: أجزت ولدي المذكور بما تجوز لي روايته، أو تصح عني درايته، من كل حديث وأثر، ومن فروع وأصول، ومنقول

ومعقول، وفنون اللطائف والعبر. كما أخذته عن الأفاضل السادة، الأكابر القادة، مسددي العزائم في استخراج الدرر، منهم استاذنا العلامة ولي الله المقرب، وملاذنا الفهامة الكبير ثعيلب، بوأه الله أسنى مقر، عن شيخه الشهاب أحمد الملوي ذي التآليف المفيدة، وعن شيخه أحمد الجوهري الخالدي صاحب التصانيف الفريدة، عن شيخهما عبدالله بن سالم صاحب الثبت الذي اشتهر. ومنهم شيخنا محمد بن محمود الجزائري عن شيخه علي بن عبد القادر بن الأمين عن شيخه أحمد الجوهري المذكور الموصوف بالعرفان والتمكين، عن شيخه عبدالله بن سالم الذي ذكره غبر، ومنهم الشيخ محمد صالح البخاري، عن شيخه رفيع الدين القند هاري، عن الشريف الإدريسي عن عبدالله بن سالم راوي أحاديث الأبر، ومنهم سيدي محمد الأمير، عن والده الشيخ الكبير، عن أشياخه الذين حوى ذكرهم ثبته الشهير، ومنهم غير هؤلاء رحم الله الجميع ولي وللمجاز ولهم أكرم وغفر. وهؤلاء وغيرهم يروون عن جم غفير، وجمع كثير، كالشيخ الحفني والشيخ علي الصعيدي وغيرهما فمسانيدهم مسانيدي، فما أكرمها من نسبة وأبر، وقد سمع مني المجاز كتباً عديدة، معتبرة مفيدة، كالتحرير والمنهج وفقه الله لمحاسن ما به أمر، آمين، بجاه طه الأمين، في ١٨ رجب سنة ألف ومائتين وتسع وثمانين هجرية.

«الفقير إليه سبحانه إبراهيم السقا الشافعي بالأزهر عفي عنه».

ومن أشياخي المذكورين سيدي الشيخ المعمر العلامة السيد محمد الدمنهوري الشافعي المتوفى سنة ألف ومائتين وست وثمانين عن نحو التسعين سنة وسيدي العلامة الشيخ إبراهيم الزرو الخليلي الشافعي المتوفى سنة ألف ومائتين وسبع وثمانين عن نحو السبعين، وسيدي العلامة الشيخ أحمد الأجهوري الضرير الشافعي المتوفى سنة ألف ومائتين وثلاث وتسعين عن نحو الستين، وسيدي العلامة الشيخ حسن العدوي المالكي المتوفى سنة ١٢٩٨ عن نحو الثمانين، وسيدي العلامة الشيخ السيد عبد الهادي نجا الابياري المتوفى سنة ١٣٠٥ وقد أناف عن السبعين، رحمهم الله أجمعين، وجمعني بهم في مستقر رحمته بجاه سيد المرسلين. ومنهم وحيد مصر وفريد هذا العصر سيدي العلامة الشيخ شمس الدين محمد الإنبابي الشافعي شيخ الجامع الأزهر الآن، لازمت دروسه سنتين في شرحي الغاية لابن قاسم والخطيب وفي غيرهما. وسيدي العلامة الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي، وسيدي العلامة الشيخ عبد

القادر الرافعي الحنفي الطرابلسي شيخ رواق الشوام، وسيدي العلامة الشيخ يوسف البرقاوي الحنبلي شيخ رواق الحنابلة حفظهم الله، وأطال أعمارهم وأدام النفع بعلومهم. ولي شيوخ غيرهم، منهم من هو موجود الآن، ومنهم من قد دخل في خبر كان، وكلهم علماء أعلام، جزاهم الله عني خيراً وجمعني بهم في دار الكرامة والسلام.

حول تأليف لجنة برئاسة والي سورية محمد راشد باشا للنظر في المنازعات بين الطوائف المسيحية في فلسطين

رسالة القدس

لمجلة الجنان في عددها الصادر في أيلول ١٨٧٠

وردت الرسالة الآتية من مكاتبنا في القدس
وهي الرقم ١٨ أيلول سنة ١٨٧٠

في البريد الماضي قدمنا خلافه إنما بعض الأعذار أعاقتنا عن أن نفي وعدنا بالإيضاح عن فرط الامتنان الذي استودعه قلوب قاطبة الأهالي والسكان حضرة دولتلو والي الولاية محمد راشد باشا المعظم عند عودة تشريفه إلى القدس بعد طوفانه كافة ملحقات اللواء افتقاداً لأحوال عامة الأهالي ثم تزايد التشكرات اللاجة بها السن العامة تركني الآن عاجزاً عن إمكان تفصيل ذلك فأفيد بالاختصار أنني كيفما كنت أجول كنت أرى الجميع في جمعياتهم ليس لهم حديث سوى الشكر لحضرة المشار إليهِ والثناء الجميل عليه سيما أولئك الذين قد نالوا من لدن مراحمهِ الأصغاء لتشكياتهم وإسعاف مسئولاتهم فإنني سمعت بعضهم يتحدثون أنه مع كون تصديعاتهم لذاتهِ العلية كانت فائقة الحدّ فكان حلم معدلتهِ يفوق عليها وقد شاهدت ذاتاً يدعى أحمد أفندي جاران خارجاً من بطريكخانة الروم التي كان دولتُه مشرفاً بها وهو يدعي لعنايتهِ بدوام البقاء ومزيد الارتقاء معلنا تشكراتهِ على روس الإشهاد وذلك في ساعة عزيمة عنايتهِ على السفر من القدس ناهيك عن الغير الذين قد فازوا بحل مشكلاتهم ذات الأهمية التي سنشرح بعضها فيما سيأتي وبما أنه نظراً لاشتغال دولتهِ بفض أصل المسائل التي حملتهُ على احتمال مشقة الحضور إلى

القدس ليكون في قوميسيون تحقيقها المخصوص المؤلف من دولتِهِ وسعادة منيف أفندي الذي شرف من الآستانة مخصوصاً وحضرة جنرال دولة فرنسا الفخيمة ثم توجه دولته وحضرات المشارُ إليهم إلى لدّ لأجل الكشف على الكنيسة الكائن النزاع بحثها من جملة القضايا المحال حلها لهذا القوميسيون وبقي جملة من أصحاب المهام لم يساعدهم الوقت على نوال مساعدة عنايته على أعطاء فصل نهائي لموادهم فكذلك بعض هؤلاء قد تبعوا آثار دولته في الطريق وهم يلهجون بالسن الشكر والمحمدة لنعمة الإلتفات الذي شاهدوه من لدنِهِ العالي ولا ريب أنهم سينالون أمالهم كما أن الباقين لم يقطعوا الآمال من انعطاف أفكار مراحمه لجهة انصافهم ولو بعد وصول ذاتِهِ الشريفة إلى مركز ولايتِهِ الجليلة لأن علمهُ السامي قد أحاط بكافة الأحوال التي لا ريب أنه سيتفضل بإجراء إيجابها فيما بعد كما تفضل بالوعد في ذلك على عرضحال تقدم لأعتابه السامية بمسئلة سنذكرها في موضع قابليتها وبالنتيجة فالجميع بالإجمال أضحوا مداومين على وظيفة الدعائي بدوام عمر وأيام ذاته السنية مدى الأجيال نظراً لما شاهدوه من ألطافه العميمة في سائر الأحوال.

أما أعمال القوميسيون فنشرح معلوماتنا المكتسبة بحقها بوجه التفصيل فلا يخفى أن المواد المحال حلها لهذا القوميسيون المشار عنه هي **خمس قضايا أولها مادة الماء المنازع عليها بين مجلس البلدية والراهبات الصهيونية الفرنساوية، ثانيها مادة كنيسة لدّ المنازع عليها بين الروم واللاتين. ثالثها مادة تكنيس مهد الميلاد المنازع عليها بين اللاتين والأرمن رابعها مادة مانعة الأرمن للاتين من إجراء عادتهم إقامة الصلوة مرةً كل سنة في كنيسة مار يعقوب الكائنة في دير الأرمن في القدس. خامسها مادة مغارة الحليب في بيت لحم المنازع عليها بين الثلاث ملل أعني اللاتين والروم والأرمن.** إنما عند تشريف دولتلو والي ولاية سورية الأفخم إلى القدس تقدم الاشتكاء لأعتابه أيضاً من ملة الروم عن منازعة بينها وبين اللاتين بمسألة تقدم أختام الأعضاء الموظفين في مجالس الحكومة من الملتين لادعائهم أعني الروم أن لهم حق التقدم ثم عُرِض لدولتِهِ من الأرمن بأن اللاتين مختلسون قطعة أرض من مقبرتهم الكائنة في جبل صهيون خارج القدس وهكذا أيضاً أحال دولتُهُ هاتين المادتين إلى القوميسيون المذكور وصارت جملة القضايا المحالة إلى القوميسيون سبعة

مواد عدا ما زاده الأرمن في ادعائهم أن لا حق للاتين بإقامة الصلوة مرة في السنة في كنيسة مار يعقوب لأنهم ادعوا أيضاً أن لا حق للمرقومين بعادتهم إقامة الصلوة في دير صهيون المختص بالأرمن خارج القدس كل سنة مرة نظير عادتهم المبحوث عنها بحق كنيسة مار يعقوب إنما النزاع الذي كان واقع بين الملل الثلاث في مسألة الإشتراك بستار مهد الميلاد في بيت لحم هذا تقدم صار حسمُهُ في الباب العالي وقر القرار بأن يكون وضع ذاك الستار من طرف ولي نعمتنا الدولة العلية أبد الله تحت خلافتها إلى منتهى الادهار ولأجل المواد السابق بيانها كان يلتئم القوميسيون يومياً بدون أن يعلم أحد بإجراآتِهِ حتى ولا ذات المتنازعين أيضاً لأنه كانت تؤخذ المعلومات اللازمة من كل طرف من حيث لا يعلم الطرف الآخر بها ولا يدري ذاك الطرف بما نتج للقوميسيون منها أو بني عليها ولم يعتلن من قراره سوى الحكم الذي أجري بحق مسئلة الماء المنازع بها بين مجلس البلدية والراهبات الصهيونية أعني إعادة طلمبة الراهبات إلى حيث كانت وسد باب البئر المفتوح من طرف المجلس بجانب ديرهم وتعزيل قناة الماء إكمالاً لمشروع المجلس المذكور بناءً تستقي الأهالي منها انتشالاً من باب البئر التي حفرت في جوار القشلة السلطانية ونتيجة هذا الحكم والقرار هي إبقاء الأصل على أصله أعني أن الراهبات كسبوا الدعوى فقط إكمال تعزيل القناة الكائنة في القبو الواقع سفلي دير الراهبات المذكورات هو لأجل جريان الماء الذي يفيض عنهم بها لانتفاع الأهالي باستقائهم منه وقد صار الشروع بإعادة حقوق الراهبات إليهم أعني وضع الطلمبة في موضعها الأصلي وعمار الدرج الموصل من القبو إلى الدير وفتح بابه كما كان وبناء حيطان في المحلات التي أفرغت من التراب لتسند بناء الدير بنوع أن تكون المصاريف لاتمام جميع اللازم من صندوق المجلس البلدي وقيمة تلك المصاريف ثمانية وعشرون ألف غرش وكسور وقيل انه توجهت الملامة على رئيس المجلس لأن سعادة المتصرف أجاب بأنهُ كان يأمر بأجر العمل، بموجب المضابط والقرارات المجلسية التي تتقدم له وأما النزاع الذي حدث بين قونسلوس دولة فرنسا والمأمورين فما زال لم يعلم أحد كيف تم القرار بحقِهِ وانفهم أيضاً أن اللاتين كانوا عرضوا للباب العالي بحق المنازعة الكائنة بينهم وبين الروم بمسئلة الأختام التي كان الروم قد اشتكوا بها لدولتلو الوالي الأفخم وصدر

الأمر من ذاك المقام الأعلى أنه وإن يكن النظام المقرر بحق التشريفات من مقتضاه أن الرؤساء الروحيين لملة الروم لهم حق التقدم على رؤساء باقي الطوائف الذين ليس لهم رتبة إلا أنه من حيث أن القدس هي في حال مستثنى وقد تبين أن تقدم الرؤساء الروحانيين اللاتين في القدس على رؤساء الروم هي قديم فيجري العمل حسب القديم فقط حيث أن بطريك الروم في القدس هو أقدم من بطريك اللاتين تصير الرعاية بهذا الموضوع أيضاً لحقوق القدمية وأن قرار القوميسيون كان موافقاً لفحوى الأمر السامي وعلاوة على هذا اقتضت عدالة دولتلو الوالي المعظم قطع مقدمات النزاع بتعيين حق التقدم بالأختام لكافة أعضاء المجالس من سائر الملل بحق قدمية كل واحد منهم عن الآخر بحسب وجوده بالوظيفة إنما اللاتين لعدم مفهوميتهم صراحة منطوق الأمر العالي لم يزالوا متشبثين بأن الأعضاء الموظفين من ملتهم في المجالس بصورة الانتخاب حسب أصول التشكيلات لهم حق التقدم كالرؤساء الروحيين الذين هم أعضاء طبيعيون حيث أن تقدمهم على أعضاء باقي الملل المسيحية هو قديم أيضاً ولكن حقيقة مضمون الأمر المشار إليه لم يمكنا أن نتوصل إلى الوقوف عليها غير أن عدالة الحكم الصادر لا يُشَك بكونها من المسلمات فهذا ما قد أمكن مفهوميته يقيناً عن نتيجة القوميسيون إنما فهمنا بعض مباحث بحق القضايا الآخر من المسائل المحال تحقيقها لذاك القوميسيون التي لم يفهم كيفية قراره بشأنها وحيث وجدنا أنها وان تكن هي مسموعات خارجية لا تتعلق بأعمال القوميسيون المذكور إلا أنه يجب تحريرها لكونها جوهرية فلذلك أحببنا تسطيرها على الوجه الآتي:

تأكدنا برواية كثيرين أن العموم يشهدون بأن كنيسة لود هي حق من حقوق الروم وأن تعرض اللاتين لهم بها هو محض مقاومة ناتجة عن مضادة الروم لهم بحق مغارة الحليب ومما يؤيد ذلك تعدي اللاتين للبحث في مضمون الفرمان العالي الذي استحصلهُ الروم برخصة تعمير هذه الكنيسة انه يحتوي على ثلاثة شروط أولاً إذا كانت الكنيسة بعيدة عن الجوامع ثانياً إذا لم تكن في محلة الإسلام ثالثاً إذا لم يكن موجود من يدعي بها وذكرهم بأن هذه الشروط الثلاثة بأجمعها متجمعة معاً ومانعة للروم من التعمير حيث أن الكنيسة المذكورة واقعة في محلة الإسلام وملاصقة

للجامع بل هي أيضاً قطعةً منه حسبما يدعي بذلك متولو وقف الجامع المذكور ومن ثم فهم مدعون بها أنها لهم من عهد الصليبيين ويستدل على ذلك من الكتابة المحررة على بعض أحجارها باللغة الإنكليزية حيث أن الإنكليز في ذاك الوقت كانوا كاثوليكيين والحال أن ذلك كله بالخلاف وهي واقعة في محلة الروم وجانب كنيستهم الصغيرة فقط ومحلة الإسلام محاذية لمحلة الروم واتصال المحلات ببعضها أمر معلوم وهذه الكنيسة شهير بكنيسة الخضر عليه السلام الذي لا يعيد له اللاتينيون وإنما الروم يحتفلون عيدهُ سنويّاً في الكنيسة المذكورة ويأتي للزيارة في ذاك اليوم كافة الروم القاطنين يافا والرملة وغيرهما من المدن والقرى القريبة من لود وبعكس الرواية يقال أن أرض الجامع مأخوذ من أرض الكنيسة وشهرة ترتيبها وتكوينها حسب أصول الطقس الشرقي تدل على أنها للروم وإن كان يوجد فيها حجر أو أكثر مكتوباً باللغة الانكليزية لا يكون ذلك دليلاً كافياً على أنها للكاثوليكين لأنه يوجد فيها أحجار كثيرة أيضاً مكتوبة باللغة اليونانية.

كما أن تعرض اللاتين للأرمن في تكنيس مهد الميلاد في بيت لحم هو أيضاً من ذاك القبيل مضاد للحق لأن المهد مشترك بين الملل الثلاث وله ثلاثة أبواب أحدها من جهة كنيسة الروم والآخر من كنيسة الأرمن والثالث من جهة كنيسة اللاتين والباب الذي للاتين نافذ من مغارة الأطفال المخصوصة بهم حيث يمرون من كنيستهم إلى المغارة ومنها إلى مهد الميلاد. نعم إن لهم باباً آخر مفتوحاً على كنيسة الأرمن لمرورهم منها إلى المهد استقراباً إلا أن الباب الذي في كنيسة الأرمن هو من حقوق الأرمن الطبيعية حيث منه يتوصلون إلى المهد.

أما تعرض الأرمن لمنع اللاتين من إجراء عادتهم القديمة بإقامة الصلوة مرة في السنة في كنيسة مار يعقوب ودير صهيون فليسوا محقين به لأن هذه العادة هي مستمرة منذ أجيال لا تدرك ومباحث الطرفين في هذا الخصوص قد حررنا تفصيلاتها قبلاً إنما الآن قد تأكدنا بأن دير صهيون هذا كان في قديم الزمان ملكاً للاتين منذ قبل الملك الظاهر وبيدهم فرمانات من عمر الخطاب رضي الله عنه ومع تداول السنين والأيام وضع الأرمن يدهم عليه وبقي للاتين حق الصلوة فيه والآن قد

وجدوا جملة سندات شرعية وفرمانات عليه تؤيد لهم حق الملكية فضلاً عن العوائد القديمة وهكذا دعوى الأرمن الحادثة بحق المقبرة لا حق لهم بها وقد سبق في قديم العصر انه وقع منهم التعرض لها ومنعوا عنها بموجب حجج شرعية وفرمانات قاطعة ملوكية .

أما الحق للاتين في دعواهم بحق مغارة الحليب فهو واضح البيان لأنه مشهور لدى الخاص والعام انحصارها بهم من قديم الأيام بدون أن يشاركهم بها أحد فقط حق الزيارة للجمع هذا أمرٌ غير منكور ومعارضة الروم والأرمن لهم وادعاؤهم الاشتراك معهم هذا أمرٌ حادثٌ وليس بيد الملتين المذكورتين سوى حجة شرعية تاريخها منذ نحو عشرين سنة ولا تشعر بحق امتلاك أو تصرف بل فقط تفيد أنه في ذاك الوقت صار تعمير المغارة المذكورة من طرف الملل الثلاث أعني اللاتين والروم والأرمن والحال أنه من قبل ذاك التاريخ وبعده حتى يومنا هذا لم ينوجد الروم والأرمن قط أصلاً في دعوى الاشتراك ولا شاركوا اللاتين في تصرفهم وقتاً من الأوقات حتى ولم يوجد إشارة البتة تدل على صحة ادعائهم هذا ومع ذلك قد فهم أن اللاتين ذكروا في القوميسيون بأن الحجة التي يتشبث بها الروم والأرمن هي مختلسة وأقاموا الحجة على ذلك وأوردوا جملة أدلة كافية تؤيد ادعاءهم وشهادات ممهورة من بعض ذوات أحياء وأموات وقيل أنهُ مقدماً عند وقوع المنازعة بحق المغارة المذكورة في زمن متصرفية عزت باشا تحرر رسالة مطولة من طرف كاتب تيراسانطة بوقتها المدعو ريتسيجيو بوسيلي تتضمن تفاصيل تلك الأدلة والبراهين والبيان عن وجود جملة سندات وفرمانات مختلفة تثبت حق التصرف المستديمة بالمغارة المذكورة للاتين منذ أربعماية وتسعين سنة إلى الآن .

فهذه المباحث بأجمعها لا بد أن تكون حضرة دولتلو والي الولاية الأعظم أحاطت بها علماً ولذلك أدرجناها حسبما سمعنا وفهمنا وذلك لكون المفهوم أن القوميسيون فهم هذه الروايات ولأجل ذلك أوقف حكمها مرهوناً لرأي الباب العالي ولم تكن غايتنا بسردها وتفصيلها إلا إيفاءً لوظيفتنا بالأخبار عن كلما نفهمُهُ ونسمعُهُ من الحوادث والأخبار وطال بقاكم .

الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة

بقلم روحي الخالدي

من مقال نشر في مجلة «الهلال» عدد ١ ديسمبر ١٩٠٨

الحرب بين المابين وتركيا الفتاة

ثم توارد على باريس كثير من شبان العثمانيين وكهولهم حتى الشيوخ ذوي العمائم والفرا ونشروا الجرائد والرسائل والوريقات الكثيرة وأدبوا مأدبة وعقدوا اجتماعات سياسية . فانصرفت همم رجال المابين والسفارات لتعطيل هذه النشريات واسترضاء أصحابها بالمال والرتب والنياشين والمناصب حتى قيل لبعضهم (أطلب تُعط) كما كان ينقل عن الخلفاء في حكايات ألف ليلة وليلة وكان العطاء حاتمياً بل أكثر كان سلطانياً شاهانياً وصار المتطلبون للمأموريات أو المعزولون يقصدون باريس للرجوع لوظائفهم ودخل حزب تركيا الفتاة الصبيان الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة والتونسيون حتى الأجانب من الطليان واليونان وأصبحت سفارة باريس مرجعاً للجميع كأنها أعظم دائرة من دوائر الباب العالي . وأقدم الجرائد المعطلة جريدة المرصد العربية التي تعين صاحبها عضواً في شورى الدولة وأوجب حسد عزت باشا العابد حتى صرف قوة عقله وذكائه للوصول إلى ما وصل إليه . وظهر عدة جرائد ورسائل ومحررين بالتركية والعربية والكردية والفرنساوية والألبانية وغيرها منهم أصحاب صدق وقناعة ومنهم ذوو طمع وشعوذة ورجال الدولة يتقربون باسترضائهم وجلّهم كما كانوا في الأزمان السابقة يتقربون بجلب أهل المظنة من المشايخ وأصحاب الكرامات كجلب المرحومين الشيخ أبي السعود من القدس

للسلطان محمود خان والشيخ السن من صيدا والشيخ العمري من طرابلس الشام وكذا المشائخ الذين كانوا في المابين وخاتمتهم أستاذنا العلامة الشيخ حسين الجسر مؤلف الرسالة الحميدية. فلو اطلعت على تراجم هؤلاء الشيوخ ومقدار معارفهم وكيفية جلبهم والاسترشاد منهم لعرفت ارتقاء الفكر التدريجي الذي حدث من عهد السلطان محمود ولرأيت الانقلاب الحاضر يفوح من الرسالة الحميدية التي جمعت خلاصة العلوم العصرية.

فنشريات تركيا الفتاة بأوروبا لم يقصد بها إلا إيصال الشكاية من سوء الإدارة لمسامع الحضرة السلطانية وتفهيم الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة برلين بوجود حزبهم السياسي وطلبهم إعادة القانون الأساسي فكادت أوربا تقتنع بوجودهم كما ظهر من انتصار الجرائد الباريسية لصاحب جريدة (مشورت) يوم محاكمته في باريس والحكم عليه بفرنك واحد مع تطبيق قانون بيرانجه القاضي بالسماح عنهُ.

فبينما كان المابين يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في إجراءمطالب تركيا الفتاة وإعادة أحكام القانون الأساسي وإذا بالمسألة الكريدية ولَّدت الحرب بين الدولة العلية واليونان (من نيسان ـ مايو سنة ١٨٩٧) وتم النصر فيها للعساكر العثمانية فأخذته العزة ودام على سياسته الاستبدادية وانكسرت همة الأكثرين من حزب تركيا الفتاة فخضعوا لأحكام الاستبداد جبراً وقهراً وان لم يرضوا بها وذاقوا عذاباً شديداً بسبب غلاء أوربا وكثرة نفقاتها وعدم وجود صنعة أو تجارة بأيديهم كما يوجد بأيدي الأرمن والبلغار سوى تعليم اللسان التركي والعربي والخدمة للأطباء في المستشفيات بأجرة قليلة والسهر في الليل على المرضى. والأغنياء من أهل البلاد وكبار الموظفين لم يعينوهم بشيءٍ إلا بعض الأمراء المصريين الذين نهجوا منهج مصطفى فاضل باشا مؤسس حزب تركيا الفتاة فأمدوا البعض منهم بالمال وأعانوهم. بخلاف الجمعيات الانقلابية الأرمنية والمقدونية فإن أصحابهم وأغنياء أمتهم أعانوهم بالمال. وقد علمت مما تقدم أن ميزانية الجمعية الأرمنية بلغت مليون فرنك فأين هذا الجمعية الاتحاد والترقي؟ فإن العثمانيين من أتراك وغيرهم لم يعتادوا على هذه الغيرة الوطنية والحماسة القومية ولم يفقهوا معنى الاجتماع والتعاون.

ظهور المابين وتفشي الفساد والاختلال

فالحرب اليونانية أظهرت فتوة الأمة العثمانية وحميتها وسلامتها من عوارض الهرم أو المرض الذي يصفها به أعداؤها وأظهرت متانة الضباط العثمانيين ومعارفهم ومحافظتهم على قواعد الانتظام ومقدرتهم على ضبط أفراد العساكر ومنعهم من النهب أو ما فيه العار وسوء الأدب من الأفعال الهمجية مع شجاعة زائدة وصبر وقناعة وعدم ابتلاء بالمسكرات ابتلاء عسكر الروس أو غيرهم من عساكر أوربا. فبعد انتصار العساكر العثمانية في هذه الحرب زاد غرور المابين واستبداده. وانتقل مركز إدارة الحكومة من الباب العالي إلى سراي يلديز وأصبح مجلس الوكلاء لا حكم له والنظار ما هم إلا منفذون لما يتقرر في السراي. على أن التوجه والإقبال والتقريب والسؤال كان ينتقل من الباشكاتب إلى الكاتب الثاني إلى الكاتب الشفرة إلى الشيخ إلى العابد إلى الملاحجة إلى غتي أغا إلى لطفي أغا إلى فهيم باشا أعظم الجبابرة المتفرعنين الذين ألقوا الرعب في قلوب المسلمين والمسيحيين وغيرهم مما يدل على استبداد متقلب وهَّام حيرانٍ حتى اذهب ثقة الجميع وكاد الانقلاب يحدث في نفس السراي. وأكثَر رجالَ السراي أميون ويندر في كتاب المابين من يعرف الفرنساوية فضلاً عن غيرها من لغات أوربا. ولا خبرة لهم بالسياسة ولا المسائل الحاضرة. ولذا كثرت الغلطات السياسية وسوء الإدارة واختلاس الأموال الأميرية وظلم الرعية بما لم يسبق له مثيل.

وصار لهم في الارتكاب وسوء الاستعمال ظرفٌ ورقة وتورية بديعة فلما شكل قضاء بئر السبع في تيه بني إسرائيل وعين لهُ قائمقام من الآستانة قال له دولة الناظر حسبما أفاد: «بالطه كيرمامشٍ أورمانه كوندربورم» أي أني أرسلك لغابة لم تدخلها بلطة الحطاب. فذهب وحطَّب في الناس حتى عزل وأخذ تحت المحاكمة ثم عين لمحل آخر. وهذا مثال من ألف بل آلاف أمثلة على الارتكاب الذي أفسد أخلاق الأمة وأخرها عن لحوق الأمم المتمدنة ويروي عنه الناس نوادر عجيبة وأساطير غريبة تحتاج إلى الجمع في كتاب والإفراغ في قالب قصصي أو روائي. وبعد أن كان تعيين المأمورين يجري بإنهاء الباب العالي والنظارات صار التعيين وتوجيه الرتب

رأساً من المابين. وتهافت الناس على استحصال الرتب مع لقب بك الذي لا وجود له في الحقيقة ونفس الأمر بين الألقاب الرسمية كوجود لقب باشا مثلاً وإنما اشتهر فريق باسم بك وفريق باسم أفندي فعند توجيه الرتبة ينظر إذا كان الاسم مقروناً بلقب بك صدرت الإرادة السنية بموجبه ونشرت في التوجيهات الرسمية. فصار بائعو الرتب يتعمدون وضع لقب في الإنهاء لتصدر على موجبه الإرادة السنية وتنشر في القسم الرسمي من الجرائد ،فتناقلتها الجرائد العربية وتقول وجهت الرتبة الفلانية مع لقب بك لتوهم القارىء أن لقب بك توجيه جديد كلقب قونت أو مركيس عند الإفرنج. وامتلأت دوائر الآستانة بالمأمورين بلا تمييز في أهليتهم واستحقاقهم ولياقتهم بالعمل الذي هم فيه. ولم يكن الغرض من التعيين التحري على مأمور قادر على إيفاء الوظيفة وإنما إيجاد وظيفة وعمل للمقربين والملتمس لهم أو للذين يخشى بأسهم. **فزاد عدد الأعضاء في شورى الدولة على المئتين ونظامهم أن يكونوا ٣٧ عضواً. وكذا مجلس المعارف وانجمن التفتيش والمعاينة** الضاغط على حرية نشر الكتب وإدخالها ومحي من كتب اللغة كلمات كثيرة مثل: **حريت وطن، اختلال، انقلاب، جمعيت، رشاد**... كما غيرت أسماء المأمورين من عبد وسلطاني ونحو ذلك إلى أسماء أخرى وبعضها حرفت وكتبت سَلْتَاني. وامتلأت نظارة المعارف بالمأمورين الموظفين حتى قال ناظرها الأخير لما عرضوا عليه الميزانية لولا وجود معاشات المعلمين لأمكنني وضع الموازنة. فكانت معاشات المعلمين تضايقهم ويريدون حصر المعاشات بالموظفين من الرؤساء والأعضاء والكتاب والمفتشين. وزاد عدد أعضاء الجمعية الرسومية على ثمانين عضواً وكذا مجلس المالية والأوقاف والعسكرية والبحرية وغير ذلك من أنواع المجالس ودوائر الحكومة المركزية والمعية الشاهانية حتى ضاقت المجالس والأقلام بالمأمورين وصار أكثرهم لا يجد له كرسياً للجلوس عليه. وكانوا يأخذون رواتبهم وهم نائمون في بيوتهم. وصحَّف المنتقدون مجلس «شوراي دولت» فقالوا «اشرايّ دولت» و«مجلس معارف» «مجلس مقارف» أو مغارف. وهلم جرًّا.

واختلت الموازنة المالية وصار المتداخل من معاشات المأمورين والعساكر ومخصصاتهم يقرب كل سنة من النصف أو يزيد وكثر الظلم في جباية الأموال

الأميرية وطرح الأعشار وتحصيل رسوم الأغنام وتسابق المأمورون إلى زيادة حاصلات القضوات والألوية وعدوا ذلك فضيلة وسبباً مشروعاً للمكافأة والترقي والمكلفون من الزراع والفلاحين يئنون تحت أثقال هذه التكاليف والمظالم ولا ناصر لهم ولا مفكر في شؤونهم وقلما يمر على القرية شهر بدون أن يأتيها المعشرون والمحصلون للأموال الأميرية ولحصة المعارف وبنك الزراعة وإدارة الرسوم الستة أي الديون العمومية والإعانات المختلفة والمسلمون في ذلك أشد مغدورية من المسيحيين الذين يجتمعون باديرتهم وبرؤسائهم الروحانيين. وسمعت كثيراً من الفلاحين باعوا أراضيهم وزوجوا بناتهم بالجبر ليأخذوا صداقهن ويسددوا ما قيد عليهم ذمة من الأموال الأميرية فصار الفلاح يتجنب زراعة الأرض إلا بقدر حاجته الضرورية. ومن القواعد التي قررها الفيلسوف الشهير مونتسكيو مؤلف روح القوانين: «إن الأراضي تقل غلتها بالنسبة لحرية سكانها لا بالنسبة لخصبها» فإذا كان الفلاح حراً عمر الأرض الموات وجعلها مخصبة بعمله وحراثته. وإذا فقد الحرية أصبحت أرضه المخصبة مواتاً بسبب الظلم والاستبداد. فما نشاهدُهُ اليوم بأوروبا من العمران إنما هو نتيجة الحرية. فحيثما توجهت فيها لا ترى إلا مروجاً نضرة وأشجاراً وكروماً مخضرة وأنهاراً جارية كأنها بستان عظيم ليس فيه قطعة أرض خراب.

وصار رجال المابين يحرضون الولاة والمتصرفين على سرعة تحصيل الأموال وإرسالها للآستانة والناس لا يدرون أين تنفق وكيف تصرف لعدم نشر الموازنة المالية (بودجه). بخلاف إدارة الديون العمومية التي تحت مراقبة الأجانب فإنها في غاية الانتظام والترقي تزيد وارداتها كل سنة فتدفع رواتب مأموريها ومرتبات الديون بأوقاتها المعينة حتى تيسر للدولة إعادة اعتبارها المالي وأصبح أصحاب الديون في أوروبا يأمنون على أموالهم ولو حدثت قلاقل في المملكة العثمانية فإن قيمة أسهم الديون لا تتنزل إلا قليلاً فإذا أردت المقايسة بين إدارة الديون العمومية وبين نظارة المالية فانظر إلى قرية من قرى الألمان أو اليهود المستعمرين في سوريا وفلسطين وما فيها من الانتظام والعمران والترقي وإلى قرى الأهالي المجاورة لها وما فيها من الفقر المدقع والخراب يتضح لك الفرق بين الإدارتين.

واختلت إدارة العساكر البرية والبحرية وأصبحت لا تمرن على التعليم الناري

وإصابة الهدف ولا تساق سوق الجيش خوفاً من الهيجان وحدوث الانقلاب. مع أن دول أوروبا ولا سيما ألمانيا وروسيا والنمسا وفرنسا تجري كل سنة مناورات حربية يحضرها الامبراطور بنفسه مع أولاده وعائلته وجميع ضباط السفارات الأجنبية فيستطلعون أحوال الجند ويشوقونهم. وصار الأسطول العثماني الذي انفق على شرائه الملايين كالمقعَد الذي يروم النهوض ولا يقدر عليه لطول مكثه وصدأت آلاته بسبب عدم الإستعمال والجري في البحار واختلست أموال كثيرة من التجهيزات العسكرية ولا سيما في تجهيز الأسطول وشراء البواخر والمدرعات، وصار الترقي في المراتب لا يبنى على القدم والأهلية والاستحقاق بل على الإلتماس والانتساب والرشوة فيرتقي الضابط المراتب الكثيرة في أوجز مدة ولا يجد وقتاً لإدراك ماهية الجندية ولا احترام من فوقه في الرتبة. وكان الضباط يبيعون معاشاتهم المتداخلة للسماسرة بأثمان بخسة حتى بيعت المائة غرش بأربعة غروش وبيع طقم اللباس العسكري الذي تكلفت الدولة على إعماله مئات غروش بعشرين غرشاً. أي أن المستحق للمعاش واللباس يمضي سند الوصل على القاعدة والأصول كأنه استلمه من مخزن الألبسة أو قبضه من صندوق الخزنة ويسلمه للسمسار فيعطيه في مقابلة السند ما يتوافقان عليه ثم يتفق السمسار مع المحاسبة جي ومن فوقه ويربحون الفرق ويقيدون ذلك في الدفاتر (إيراد ومصرف) كأنها جرت على القاعدة والأصول. ولذا كانت الضباط في حالة يرثى لها. وكنت ترى ضباط البحرية البالغ عددهم نحو ستة آلاف ضابط في قهوات الاستانة فارغين من العمل ودائرين من حارة لأخرى. واشتبهت الادارة المستبدة في أمراء العسكرية الذين حضروا في أوروبا وخدموا الأمة والوطن وصارت لهم ملكة ومعرفة تامة بأحوال الزمان فابعدتهم عن الاستانة وأشغلتهم بالوظائف الثانوية بداعي ميلهم للأفكار الحرة وإعادة القانون الأساسي وبلغ عدد الراجعين منهم للاستانة بعد حدوث الإنقلاب ٦٠ نفراً من الباشوات وأمراء العسكرية و٥٠٠ ضابط ومنهم رجب باشا وفؤاد باشا الشهير وناظم باشا وهو صهر علي باشا. **وأصبحت قيادة العساكر وإدارة المكاتب العسكرية بأيدي أناس لا أهلية لهم ولا يهتمون إلّا بالتجسس على أصحاب الأفكار المفرطة وإبعادهم عن مركز الإدارة ويعدون ذلك خدمة لمنافع السلطنة والمحافظة على**

الخلافة الإسلامية فصارت إدارة التجسس والخفية من أعظم دوائر الدولة لها مراكز وشعب كثيرة ومعاشات وافرة غير الإحسانات والإنعامات. فكان الخفية ينظمون التقارير والجرنالات في كل حادثة ومسألة صغيرة أو كبيرة ويختلقون المسائل ويفترونها ويصورونها في قوالب مستحيلة لا تدخل العقل ويأباها أولو النظر الصحيح والوجدان السليم وما ذلك إلا لإظهار خدمهم وإثبات تيقظهم ومغالبتهم لنيل المكافأة. والمابين لا يكل من تحقيق مضمون هذه التقارير والجرنالات عسى أن يجد في مائة منها كاذبة واحدة صادقة فإذا قالوا: «فلان له قصد سيء لحضرة الخليفة» أو «له مخابرة مع حزب تركيا الفتاة» أو «عنده أوراق مضرة» كانت كل واحدة من هذه الألفاظ كافيةً لدخول منزله وتفتيش أوراقه وهتك حرمته ثم نفيه وحبسه أو عزله وإبعاده. فكانت شبههم هذه تدور على حدوث المؤامرة ضد الذات الملوكية والمس لحقوق الخلافة الإسلامية. على أنهم لم يتخذوا في الحقيقة ونفس الأمر سياسة إسلامية وهي المعبر عنها عند الإفرنج بقولهم «بان اسلاميزم» كما توجد سياسية سلافية «بان سلافيزم» وسياسة جرمانية «بان جرمانيزم» ولا تجد في دوائر الدولة كلها قلم مخصوص للمصالح الإسلامية كما يوجد في باريس وبرلين وبطرسبرج أقلام ودوائر مخصوصة بدرس المسائل الإسلامية درساً تاريخياً سياسيّاً علمياً للوقوف على أفكار المسلمين وهيئتهم الإجتماعية وعلى أحوال العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها ليكون الوزراء والمأمورون على بصيرة ويقين من حقائق هذه المسائل الحيوية الإجتماعية. **فقصدهم من السياسة الإسلامية إنما هو أكل الحياة والتظاهر بالكرامات والتكبر على الناس والتشبه ببني العباس في الجلوس على الكراسي.**

ولم تباشر الحكومة أمراً جديّاً لعمران البلاد واستخراج ثروتها الطبيعية ولا لارتقاء الأهالي في معارج التمدن والرفاه وتعليمهم أصول الزراعة والتجارة وعقد الشركات والتعاون على ما فيه نفع البلاد وقد عاكست جميع المشروعات الوطنية من فتح المدارس الخصوصية أو تعليم الاولاد ولا سيما المسلمين في المدارس والبلاد الأجنبية وتأسيس الجمعيات واطفأت حمية أرباب الهمم بداعي أنها باعثة على الثورة والانقلاب. فكم نظر الولاة والمتصرفون شزراً إلى مدرسة وطنية أسسها الفرد أو إلى مدرسة سلطانية أسستها الجماعة أو إلى شركة صناعية أو مالية عقدها الأهالي فلا

تلبث حتى تتعطل ويمّحي أثرها. وكم منعوا الآباء من إرسال أولادهم للمدارس الأجنبية أو لمدارس أوروبا وكم اضطهدوهم من أجل ذلك.

وما أجرته الحكومة من مدّ بعض الخطوط الحديدية وإصلاح المرافىء التجارية وتطهير المستنقعات إنما كان بطلب الشركات الأوروبية توسط بعض المتنفذين للإستحصال على امتيازاتها والإستفادة مما يعود عليهم بسببها من المنافع الشخصية. فمنح الإمتياز كان من قبيل الإنعام والإحسان لا يكاد يتم لصاحبه ويأخذ به الفرمان السلطاني حتى يبيعه لشركة أجنبية ويربح منه الملايين فيوزع نصفها على الذين اعانوه في استحصال الامتياز ويبقى النصف الآخر ربحاً صافياً له في مقابلة أتعابه بالذهاب من المابين إلى نظارة النافعة والصدارة وملاحظة الخدم والكتاب والتقرب بهم إلى كبير القلم أو الدائرة وكل زيارة تحتاج إلى إكرام و(**شوفة خاطر**). روى لي أحدهم عن بعض النظار أنه أوقف ختم مضبطة امتياز في مد سكة حديد كبيرة على أخذ أربعين ألف ليرة عثمانية ولم يقبل أخذ تحويل على البنك أو قوائم نقدية خوفاً من ظهور الارتكاب واشترط أن تكون ذهباً عيناً قال الراوي فجاؤوا بالمال وصفوه على مائدة كبيرة مرخمة عواميد عواميد في كل عمود خمسون ذهباً فكانت ثمانمائة عمود مصفوفة صفوفاً متوازية ملزوزة وللأصفر الرنان فوق الرخام منظر عجيب. فلما تم العد والحساب قال دولة الناظر وكان ملقى على فراش الموت (تمامي؟) فقيل له نعم يا سيدي تمام فأخرج الختم من كيسه المعلق في عنقه وختم المضبطة ثم توفي بعد ثلاثة أيام فكانت آخر ملذاته من نعيم الدنيا. ولذا كان فريق من الكبراء والمأمورين يتمتع بالقناطير المقنطرة من الذهب ويقبض معاشاته سلفاً وويل للمحاسبجيين إن لم يدفعوها. وفريق يتضور جوعاً وهو ينتظر إلى معاشاته المتراكمة المتداخلة من سبعة وثمانية أشهر في السنة والتي يعول عليها في الإنفاق على نفسه وعياله النفقة الضرورية وأشدهم مغدورية ضباط العساكر الذين لا تصرف معاشاتهم وتعييناتهم على قلتها وليس تحت أيديهم أموال ينهبونها أو رعية يرتشون منها ولقد صدق فيكتور هوكو بقوله:

«إن الجوع يثقب في قلب الإنسان ثقباً ويملأه حقداً» وهو من أعظم الأسباب لهذا الإنقلاب.

فبسبب تشويش الإدارة وتذبذبها لم يعد للحكومة قاعدة مضطردة ولا أصول مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية وإنما كان لها قواعد مختلفة وسياسات شتى بعضها يناقض البعض فكانت تمحو في الغد ما أثبتته في الأمس وربما غيرت سياستها مرتين في اليوم بحسب الأشخاص والوقائع. ولذا سقط اعتبارها عند الدول الأجنبية حتى تجرأوا على تهديدها في المسائل الطفيفة العادية كمسألة توبني دلوراندو التي أوجبت خروج الأسطول الفرنساوي وإشغاله جزيرة مدللي. فصرخ إذ ذاك مارسل سامبا زعيم الاشتراكيين في مجلس النواب الفرنساوي قائلاً: ما هذه السياسة الخرقاء لم تحركوا ساكناً في المذابح الأرمنية ولم تتداخلوا حيث معاهدة برلين توجب عليكم المداخلة في طلب الإصلاح وإجراء العدالة الإنسانية والآن تتكبدون النفقات بإحراق فحم الأمة وإرسال الأسطول لحماية نفرين من المرابين أقرضوا أموالهم بعشرين وثلاثين في المائة حتى أصبح ما يطلب لهم تحت السحب؟ وسقط اعتبارها أيضاً في نظر رعاياها وصار أكثر الموجودين منهم في الديار الأجنبية يانفون من دخولهم في التابعية العثمانية وبعضهم أبدلها بالتابعية الأجنبية ويبتعدون بقدر الإمكان عن سفارات الدولة وقنصلياتها.

فأرباب الحمية والغيرة الوطنية من العثمانيين كانوا ينظرون إلى هذه الأحوال بعيون الأسف والاستياء ويعتقدون أن مصدرها الوحيد هو الاستبداد ولا تخلص منه إلا بتعليم الأمة وتنوير ذهنها والرجوع في الأحكام الى الدستور المنسوب لمدحت باشا وإن لم يكن كله من بنات أفكاره. فكان الاستبداد ضاغطاً على جميع أفراد الأمة إذ لم يقتصر بضغطه على ضعفائها وأحرارها وحزب تركيا الفتاة فقط بل شمل جميع أفراد خاندان آل عثمان وجميع المقربين من رجال الدولة والذين أفنوا أعمارهم في تأييد دور الاستبداد وجمع الأموال وكافة الوزراء والمأمورين وجميع الأهالي لا سيما في الآستانة حيث بطلت الأفراح والجمعيات المشروعة لعقد النكاح أو للختان. وبطلت السهرات وجمعيات الأحياء. كل ذلك خوفاً من الانقلاب وصار لا يؤذن لأحد بالذهاب لأوروبا ولو كان مريضاً كما لا يؤذن للضباط بالتوجه للآستانة أو بالمرور بها وصار كبار المأمورين لا بد لهم من إذن مخصوص وإرادة سنية لحركاتهم الشخصية وأفعالهم البيتية حتى زواج بناتهم وأولادهم.

دخلت يوماً على السيد جمال الدين الأفغاني وهو في قصر لطيف على بابه الخدم وتأتيه سفرة من (المطبخ العامر) فقال وما فائدتي بهذا القصر والخدم والسفرة وأنا إذا اشتهيت أكلة بفتك أو نشر فكر في جريدة أو التنزه في ناحية من المدينة لا أستطيع. أيهنأ عيش الإنسان بغير الحرية؟ ولذا فرَّ إلى باريس الداماد محمود جلال الدين باشا وابناه البرنس صباح الدين بك والبرنس لطف الله بك وفر إلى مصر السر خفية أحمد جلال الدين باشا وكثير غيرهما.

نهضة جميعة الاتحاد والترقي وانتشارها

وأما شعبة أوروبا من جمعية الإتحاد والترقي العثمانية فبعد أن حدث الإختلاف على الرئاسة وانقسمت إلى أحزاب وفارقها الكثيرون من أعضائها ثبت صاحب جريدة مشورت على نشرياته وإصدار جريدته في أوقاتها وبجانبه الدكتور نظمي بك السلانيكي الأصل وغيره من ذوي الغيرة الوطنية لكن لقبل أربع سنوات من حدوث الانقلاب كانت جمعية الاتحاد والترقي العثمانية ضعيفة عاجزة في حكم العدم ولذا لم يعبأ بها أرباب السياسة ولم يعتبروا وجود حزب لتركيا الفتاة وإنما هناك بعض المتشردين ينشرون أوراقاً قليلة الجدوى لتخويف المابين وأخذ المأموريات والإحسانات ويعتبرون أحمد رضا بك معانداً مصرّاً على طلبه لتخليد اسمه بين الفلاسفة الحقيقيين مفضلاً ذلك على حطام هذه الدنيا الفانية.

فلما تداخلت الدول الأوروبية منذ أربع سنوات في المسألة المكدونية أي في ولايات سلانيك وقوصوه ومناستر وطلبوا إصلاحها فزال منها بعض الظلم وتحسنت إدارتها خوفاً من أوروبا ومداخلتها وسمحوا لأهالي تلك الولايات بقليل من الحرية فنفَّسوا بها عن صدورهم ونظروا لشؤونهم. وكانت البلغار والروم تشكل الجمعيات السرية السياسية المعروفة باسم (قوميته) والداخل فيها (قوميته جي) بإضافة أداة النسبة التركية على كلمة قوميته الإفرنجية للمحافظة على قوميتهم وحقوقهم وحريتهم وكانوا يبذلون أرواحهم وأموالهم في سبيلها ويظهرون من الحماس والغيرة الوطنية ما لا يقدر ولا يوصف. وكانت الحكومة المحلية تهابهم وتلاطفهم وتستجلب رضاهم فعز ذلك على المسلمين من الترك والأرناؤط سكان تلك الولايات واعتبروا باخوانهم

في الممالك البلقانية المستقلة إستقلالاً كلياً وجزئياً كرومانيا والصرب والجبل الأسود واليونان والبلغار والبوسنه والهرسك فاستيقظوا من نومهم وأفاقوا من غفلتهم وقالوا إلى متى نبقى في هذا الظلم والاعتساف والجور والاستبداد والذل والتحقير؟

ولا يقيم على ضيم يراد بهِ   إلا الاذلان غير الحي والوتد

ما لنا لا نفعل كالروم والبلغار والرومان والصرب في محبة الوطن والدفاع عنه؟ ولما سألوا مشائخهم عن ذلك أجابوهم بأن الإسلام يساعد ويحض على ذلك ووجدوا أمامهم تعليمات جمعية الاتحاد والترقي فدخلوا فيها باختيار وشوق حمية عارفين ما ينتجه فعلهم من الفوائد المادية والمعنوية فتشكل لهذه الجمعية مركز في سلانيك وشعبات عديدة في جميع جهات الولايات الثلاث المقدونية وبلغ عدد أعضاء الجمعية في سلانيك وحدها سبعة آلاف نفر والجواسيس لا يدرون من ذلك شيئاً وكان جمهور الأهالي في الولايات الثلاث المذكورة يعتقدون بأنه سيصيب بلادهم ما أصاب كريد والروملي الشرقية والبوسنه وطرسك. . . . إلخ ويريدون في الباطن نجاح الجمعية وإن لم يقدروا على التظاهر بذلك ثم ان البرنس **صباح الدين** أكب على تحصيل العلم ولا سيما بعد وفاة والده واستنار فكره ومال للحرية والتجدد وأسس حزباً سياسياً يعرف بحزب (**المشروطية وعدم المركزية مع التشبث الشخصي**) ولهذا الحزب جريدة (**ترقي**) بالتركية تأسست سنة **١٩٠٦** ومحررها كاتب الجمعية أحمد فضلي بك. فعدم المركزية (**ديسانتراليزاسيون**) يقسم إلى قسمين عدم مركزية سياسية مثل مستعمرة كندا الأميركية مع انكلترا. وعدم مركزية إدارية وهو عبارة عن توسيع مأذونية الولايات وتزييد حريتها وانتخاب المجالس العمومية فيها كما أشير إليه في القانون الأساسي مادة ١٠٨ وجرى تطبيقه سابقاً **فتشكل لولايات الشام مع فلسطين مجلس عمومي اجتمع مرة واحدة في بيروت في أيام ولاية راشد باشا الذي صار بعد ذلك ناظراً للخارجية وقتل في وقعة جركس حسن بك.** فمراد البرنس صباح الدين بك بعدم المركزية هو عدم المركزية الإدارية كما صرح به لا عدم المركزية السياسية الذي هو عبارة عن مختارية الإدارة مثل حكومة كندا.

ومرادهم بالتشبث الشخصي أن لا تكون الأهالي عالة على حكومتهم بل

يسلكوا سبل التجارة والصناعة والزراعة في امر معاشهم حتى لا يحتاجوا للتساءل من حكومتهم والانكباب على طلب المأموريات للتعيش منها لأن في الحكومات المستبدة ينتظر الأولاد دائماً الاعانة من عائلاتهم والعائلات من مجالسهم والمجالس من حكومتهم. بخلاف الأمم الأنكلوساقسونية فإن أولادهم يعتمدون في تحصيل الثروة على أنفسهم ويختارون الصنعة اللائقة بهم. فهذه خلاصة أفكار هذا الحزب السياسي.

نهاية الفساد والخراب في أحوال الدولة

وفي السنين الأخيرة زاد البلاء وتعسر تدوير دولاب الحكومة مع إجهاد المأمورين أنفسهم في جره فحدث في الأذهان كدر من الأمس وخوف من الغد وإحتراس من كل إنسان وبأس من كل شيء ونفرة زائدة وبغض وحقد كامنان في النفوس. وعلم المقربون أنهم على وشك الإنقراض فضاق عليهم الوقت ولزمهم الاستعجال. فاستهلكوا في ادخار الأموال واقتناء العقار وخبأ العارفون منهم ثروتهم في مصارف أوروبا واميركا وتطلبوا أعلى الرتب والمناصب فنالوها. واستفادوا من الحال الحاضرة بقدر ما امكنهم. ولم يفكر الواحد منهم إلا بنفسه وأولاده ثم بالأقرب فالأقرب من عائلته. واستماتوا في الوصول للسعادة ونفوذ الكلمة بالتقرب واستحوذوا على مناصب الدولة ورتبها ونياشينها وألقابها ووجهت رتبة أمراء العسكرية ورتبة بالا العلمية على المشايخ ذوي التيجان والعمائم ومن وجهة أخرى جرت معافاتهم من الخدمة العسكرية ومعافاة من أنتسب إليهم من السادات الرفاعية في جميع المملكة مما فيه التناقض وكان إذا انصب الإنعام على فرد وعائله انهمل كالغيث المتواصل وسقط كله في زرع ذاك الفرد والعائلة بدون أن يفيض منه شيء إلى المزارع المجاورة ولذا قال أحد الفضلاء:

امير المؤمنين فدتك نفسي   ونفس أبي الضلال لها فداء
التحييه وتقتلنا جميعاً   لعمرك إن ذا لهو البلاء
فلا والله ما هذا بعدل   ولكن أنت تفعل ما تشاء

واحتكروا أوقاف الجوامع وجفتلكاتها بل ضبطوها ضبطاً بلا حكر وباعوا

امتيازات الأمور النافعة للأجانب فانفتح على الدولة بسبب ذلك عدة مسائل مضرة وشرهت نفوسهم للعجب وتطاولت أعناقهم عظمة وكبرياء. ومنهم من يقول يا أرض اشتدي ما عليك إلا طولي وقدي وزاد بهم الحرص والطمع حتى فقدوا جميع الحواس الإنسانية وصار الواحد منهم كأنه وحش مفترس وانقلب يوم سقوطه وإبعاده عن منصب الدولة شيطاناً رجيماً كما ظهر من أفعال فهيم باشا وهو منفي إلى بروسه وأهلكه الأهالي فيها ضرباً بعد إعلان الحرية.

كنا أشرنا إلى هذه الحالات المكدرة المؤسفة وإلى قرب حدوث الإنقلاب في مقالة عنوانها **«حكمة التاريخ» نشرتها جريدة طرابلس الشام في عددها (٥١٧) الصادر في ١٥ تموز سنة ١٩٠٣** بعد أن بدَّل المراقب فيها وحرَّف كما أراد وظنها تخفي وربما خفيت على فطنته ودقت عن فهمه ولكنها ما بلغت الاستانة واطلع عليها الملدوغون إلا وصدر الأمر بتعطيل الجريدة فكاد بركان الاستياء ينفجر له فوهات في عدة جهات لأن بقاء الحال على ما ذكر غير ممكن في القرن العشرين والبلاد العثمانية متوسطة بين أوروبا والشرق الأوسط والأقصى. وزاد اختلاطنا تجديد السكك الحديدية وتوارد بواخر الشركات الأجنبية على ثغورنا ومشاهدتنا صور السينماتوغراف وسماعنا أصوات الفونوغراف وركوبنا الترامواي الكهربائي والأوتوموبيل والدراجات مما زاد اختلاط الأمم وامتزاجها وأصبحت المسافة بين الاستانة وباريس أقل من ستين ساعة بعد أن كانت تقطع في شهور وأعوام.

وتزايدت النشأة الجديدة من الشبان المتعلمين في مدارس الدولة الملكية والعسكرية أو في المدارس الأجنبية التي افتتحها الأوروبيون والأميركيون في الشرق رغم منع الحكومة المسلمين من دخولها والتضييق عليهم وعلى أوليائهم في ذلك أو في المدارس الخصوصية التي أسستها طوائف الروم والأرمن واليهود والبلغار. فتعلمت النشأة الجديدة من الصبيان والبنات اللغات الأجنبية وطالعوا الجرائد والكتب ووقفوا على عورات الدولة وأدركوا محل الخلل وصار يتخرج في كل سنة من هذه المدارس عدد عظيم متشربون فكر الحرية ومتخلقون بالأخلاق الأوروبية والحماسة الوطنية. فكانوا كلهم موضع شبهة أولئك الجهال المستبدين بالأمر فضيقوا عليهم واضطهدوا هذه الشبيبة اضطهادات كثيرة كالنفي والحبس والمراقبة والوضع تحت النظارة وكبس

المنازل وتفتيش الأوراق فكانوا كلهم عرضة لاستبداد المستبدين ويكفيهم أن يقولوا: «عنده أوراق مضرة» حتى ينقضوا على الإنسان ويغتالوه.

فلما حدث الانقلاب في ٢٤ تموز وانفجر في سلانيك وما جاورها من الولايات بركان الإستياء كانت هذه الشبيبة وجميع العثمانيين مساعدين ومعاضدين لحزب تركيا وجمعية الاتحاد والترقي ولم يحصل معارضة ولا مقاومة من أحد لأن الجميع مستاءً حتى المستبدين أنفسهم والمستفيدين من الحالة الماضية والوزراء الذين أودعوا السجن واسترد منهم ما اغتصبوه من الأموال لأن كلاً منهم كان يتطلب أكثر مما ناله. ولو لم يحدث الانقلاب بالصورة التي ظهر فيها لحدث بصورة أخرى بعد تبدل السلطنة ولكان مدهشاً دموياً.

انفجار بركان الحرية وحصول الانقلاب في ٢٤ تموز

أما جمعية الاتحاد والترقي العثمانية في سلانيك فبعد أن تيسر لها إخفاء أمرها مدة فاحت رائحتها بكثرة الداخلين وصعوبة الكتم والإخفاء فأحسَّ بها جواسيس سلانيك وبعثوا بتقاريرهم للمابين وأرسل الخفيَّة من الأستانة فقرَّرت الجمعية إعدام الذين ثبت لديها تجسسهم وخيانتهم للوطن وعينت فدائيين من أعضائها بالقرعة أو بالتراضي.

وكان القائمقام ناظم بك قومندان مركز سلانيك يبذل مجهوده في كشف أسرار الجمعية فذهب إذ ذاك للآستانة لعرض معلوماته ورجع منها نائلاً ألفي غرش ضماً على معاشه فزاد في اجتهاده وتحرياته وطلب ثانية للآستانة وبينما كان على أهبة السفر جرحه أحد الضباط فذهب للآستانة مجروحاً. وحضر لسلانيك صادق باشا وماهر باشا والمير لواء يوسف باشا وبعض الياورية وعدة من المأمورين الملكية ونظموا دفتراً بأسماء كثيرين من المتهمين بعضوية الجمعية وحبسوا ونفوا وألقوا الرعب في قلوب الناس وكاد اليأس يستولي عليهم.

فقام في مناستر صلاح الدين بك قائمقام أركان حرب والبيكباشي نيازي بك الأرناؤوط لتشكيل فرقة من العساكر الوطنية وذهبوا لناحية رسنه وهي في الغرب

الشمالي من مدينة مناستر على مسافة ثلاثين كيلومترا ولحق بها كثيرون من الوطنيين وأنور بك البكباشي صهر ناظم بك قومندان سلانيك وكان طلب للآستانة ووعد بمكافأة كبيرة فاختار نفع وطنه على منفعتِه الذاتية.

ثم قتل في سلانيك أحد الجواسيس وقلقت حكومة الآستانة فاستدعت مفتي الآلاي مصطفى أفندي لتستفهم منه عن هذه الأحوال وضمت على معاشه ٥٠٠ غرش. وبينما كان خارجاً من الأوتيل للسفر إلى الآستانة جرحه أحد الضباط بحضور جمع غفير وهرب الجارح بدون أن يعارضه أحد من الحاضرين ولا أخبروا عن أشكاله وصفاته. فساقت حكومة الآستانة على رسنه الفريق الأول شمسي باشا قومنداناً مترويجه فاختار من يعتمد عليهم من الضباط وطابوراً من العساكر وحضر على القطار إلى سلانيك ومنها إلى مناستر وذهب توّاً لإدارة التلغراف لمخابرة المابين فخرج عليه أحد الضباط وقتله وامتنع من معه من الضباط والعساكر عن الزحف على رسنه ومقاتلة أخوانهم.

ثم قتل على هذا الوجه كثير من الجواسيس الملكيين والعسكريين فقرر مجلس الوكلاء إرسال ٣٠ ألفاً من عساكر الأناضول. ولما وصل منهم لسلانيك الثلاثة الطوابير الأولى امتنعوا عن مقاتلة أخوانهم وانضموا إليهم فأحس المابين أن سوق عسكر الأناضول على الروملي موجب لتزييد قوة الجمعية وأوقف إرسال بقية عساكر الأناضول لسلانيك. ثم اجتمع في فيرزو بك عشرون ألفاً من الأرناؤوط وذهب سبعمائة من رؤسائهم لاسكوب لإعلان القانون الأساسي والحكومة المشروطة.

وفي يوم الخميس ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨ خرج الناس في سلانيك صباحاً ووجدوا إعلانات مختومة بختم الجمعية أي جمعية الاتحاد والترقي العثمانية تدعوهم للاجتماع يوم الجمعة لإعلان القانون الأساسي والحرية فلم يتمهلوا للغد واجتمعوا بذاك النهار في ميدان أوليمبوس على الرصيف في مدينة سلانيك وضج الجمهور قائلاً إما الحرية واما الموت. وأول من خطب من بلكون أوتيل (أوليمبوس بلاس) غالب أفندي بالتركية ثم مانويل قره صو باليهودية (الإسبانية) ثم روسو أفندي بالفرنساوية وسليمان أفندي بالتركية ومحرر جريدة عصر فضلي بك نجيب بالتركية

وفيلوطاش بابا جورج بالرومية والتركية وترجمان محكمة فوق العادة بالبلغارية وفي ختامهم عادل بك رئيس البلدية بالتركية وصرخ الجميع «فليحي الوطن، فلتحي الأمة، فلتحي الجمعية، فليحي العسكر، الحرية أو الموت» وأعدوا في تلك الليلة مأدبة ضربت فيها الموسيقى العسكرية على الأنغام المرسيلية:

Allons enfants de la patrie le jour de gloire est arrivé

وكانت ترجمت إلى التركية: «قالقك أي أهل وطن شان كونلري كلدي».

ففي ليلة الجمعة ورد تلغراف لحلمي باشا المفتش العمومي بصدور الإرادة السنية بإعادة القانون الأساسي فاجتمع الناس في دائرة الحكومة وأعلنت الحرية والقانون الأساسي رسمياً بحضور المفتش العمومي ومشير الفيلق الثاني إبراهيم باشا ومأموري الحكومة البلدية وأعضاء الجمعية وابتدأ موسم الأفراح والسرور.

الخلاصة

فحدث الانقلاب العثماني بلا سفك دماء ولا حصول اضطراب أو قلاقل في المملكة كما حصل عند باقي الأمم من الإنكليز والفرنساويين والأميركان والمجر والروس وغيرهم حتى قال بعض رجال السياسة: «لا تنبت الحرية ما لم تسق بالدم» ولذلك أسباب كثيرة منها:

(١) إن الحكومة ليست حكومة مطلقة كما يظنها الناس ويسميها الإفرنج (ثيوقراتيك) وإنما هي مقيدة بأحكام الشرع الشريف الذي يأمر بالمشورة ويحض عليها كما ذكر في صدر هذه الرسالة. فالإنقلاب لم يضيع حقوق السلطنة والخلافة كما ضيع انقلاب الفرنساويين وغيرهم حقوق ملوكهم المطلقة المقدسة الإلهية حتى انتصر لها فريق من الناس وقاتلوا عليها ولم يزالوا يطالبون بها في هذا القرن العشرين عصر التمدن والعلم والنور.

(٢) عدم وجود امتيازات لصنف من أصناف الأمة العثمانية كما وجد عند الفرنساويين للإشراف وللرهبان امتيازات وحقوق مشروعة على الأراضي بحسب عرفهم وشرعهم القديم. ولذا قاتلوا عليها لما حدث الانقلاب الفرنساوي

وحرمهم من حقهم المشروع بزعمهم واعتقادهم. أما الانقلاب العثماني فلم يضع لأحد حقاً فإن الحقوق التي كانت على الأراضي للدره بكات (دره بك) المعروفين عند الإفرنج باسم (فيوداليته) وهي في المملكة العثمانية حقوق التجار والزعامة ألغيت بعد إلغاء وجاق الانكشارية وزوال غائلتهم في عهد السلطان محمود خان وأعطي لأصحاب هذه الحقوق ضمانة ومعاشات استوفوها مدة حياتهم، ومنهم من لا يزال في قيد الحياة ليومنا هذا يستوفي حقه من الخزينة في كل سنة. ووضع أخيراً قانون الأراضي الموافق لأحكام الشرع وهو من أحسن قوانين الدولة وضعاً وترتيباً كما هو معلوم عند طلبة مدارس الحقوق. فالمسلمون لا فرق في الحقوق بين الشريف منهم والوضيع. وغير المسلمين «لهم مالنا وعليهم ما علينا» أما الامتيازات التي وهبها السلطان محمد الفاتح للروم وأقرهم عليها وكذا الامتيازات الأجنبية التي أنعم بها سلاطين آل عثمان على الأجانب تفضلاً منهم وإحساناً ليس بحرب ولا غلبة فسيجري الانفاق عليها بصورة حبية يرضى بها الجميع.

(٣) إن الأفراد الذين عزلوا من مأمورياتهم وصودر ما استحوذوا عليه من الأموال المنقولة وغير المنقولة بسبب ارتكابهم واستبدادهم يعترفون بعدم حق لهم في إدخار هذه الأموال الكثيرة كما يعترف الأذكياء منهم بمشروعية هذا الانقلاب ولزومه وفائدته وقد صرحوا بذلك وأقروا به فلا يتصور قيامهم للمطالبة بشيء أو لإعادة الإدارة السابقة المستبدة ولا لهم عصبية تساعدهم على ذلك. والأمة بأجمعها عرفت الحق من الباطل والنافع لها من الضار. نعم ان المأمورين الذين خدموا مدة وألغيت مأمورياتهم أو عزلوا منها لهم حق في طلب معاش التقاعد أو المعزولية أو الاستخدام في مأموريات أخرى. إذ لا يليق بشرف الأمة أن تلقي على قارعة الطريق جماً غفيراً قضوا حياتهم في خدمة الإدارة السابقة ولا معاش لهم ولعيالهم غير ما يقبضونه من الرواتب فإن هذا الانقلاب الذي بدأ بالشفقة على الأهالي المظلومين من شأنه أن يستعمل الشفقة والحنان أيضاً في حق الظالمين لتتم سعادة الأمة ولا يلحق بأحد ضر ولا خسران.

فالفضل في حدوث الانقلاب العثماني بغير سفك دم ولا حصول اضطراب

وقلاقل في المملكة إنما هو للشريعة الإسلامية وما في أحكامها من العدالة الإنسانية والمساواة في الحقوق. ولذا كان رد العمل (رياكسيون) في هذا الانقلاب غير محتمل لعدم وجود أسباب معقولة أو مشروعة. بخلاف ما حدث بفرانسا وأمثالها حيث كان للقائمين برد العمل أسباب كثيرة تحملهم على القيام لإعادة الإدارة السابقة.

افتتاحية العدد الأول من جريدة «القدس»

٥ و١٨ أيلول ١٩٠٨

الحمد لله

أول ما نفتتح به جريدتنا هو «الحمد لله» على تداركه الأمة بعنايته ولطفه قبل أن يستعز بها الداء ويعز الدواء ثم نحني الرؤوس احتراماً لتلك الرؤوس الكبيرة التي لم تزل تفكر وتلك العيون التي لم تزل ساهرة وتلك الصدور التي لم تزل تلتهب حماسة وتلك القلوب التي لم تزل تفيض إخلاصاً ومروءة ووفاء وتلك الألسنة التي لم تزل قائلة والأقلام التي لم تزل جائلة والأيدي التي لم تزل عاملة حتى انتفضت الأمة بعد أن نزلت بها غشية الموت وزال القبر والكفن. ثم نهنىء الأمة بحريتها ومساواتها واخائها ونبشرها بعصر ذهبي تبلج صبحه وبدت طلائعه و«الحمد لله».

ثم لما كانت بلدتنا القدس مثل غيرها متعطشة إلى العلوم والمعارف التي نضب معينها منذ أجيال طوال وكانت هذه لا تنشر وتعمم إلا بواسطة المطابع وكانت كل مطابع القدس دينية محضة تشتغل كل واحدة منها لطائفتها مست الحاجة إلى تأسيس مطبعة تزرع بذار الأخاء وتعامل الجميع على السواء غايتها خدمة الوطن لا تختص بفريق دون آخر. ولكن هذا الأمر كان صعباً لما كان يحول دونه من الموانع والعثرات التي كان يقف الاستبداد في سبيل تذليلها وإزالتها. ولما كنت ممن مارسوا

هذه الصناعة دفعتني النفس أن أجرب القيام بهذا الواجب على ثقله وصعوبته ووعورة مسلكه وبعد تناوله فاستحضرت حروفاً إفرنجية من النمط الجديد والشكل الجميل ولم أكن أحتاج إلى تلك الحروف إلا ثلاثة أشهر في السنة على الأكثر أي حين توافد الزائرين إلى القدس أيام الفصح وكنت أطبع في بعض تلك المطابع بالأجرة لأنه لم يكن عندي آلة للطبع ثم رفعت الأرصاد عني واطمأنت الأفكار من نحوي فاستحضرت حروفاً عربية والتزمت أن أطبع في مطابع تجهل اللغة العربية وبعد سنة علمت الحكومة بأمري وأرادت أن توقف عملي إلا أني كنت قد طبعت كتاباً في ذلك الحين لأحد رجال الحكومة من أصحاب الوجاهة والنفوذ وخدمت أكثر دوائر الحكومة في طبع أوراقها ودفاترها مما سهل لي الثبات والاستمرار على عملي ثلاث سنوات أخر ففي مدة الست سنوات هذه كنت أشتغل نهاراً كعامل في إحدى تلك المطابع وليلاً في بيتي ثم حصلت على رخصة رسمية لمطبعتي من الآستانة في ١١ شباط سنة ١٣١٤ وللحال استقلت من المطبعة التي كنت أشتغل فيها ونقلت حروفي وآلة قديمة كنت استعملها لطبع المسودات من بيتي إلى مكاني هذا و«الحمد لله».

ولما أصبحت مستقلاً نوعاً ما في إدارتي أحضرت آلة صغيرة تحرك بالرجل لطبع الأشياء الصغيرة وحروفاً بلغات مختلفة ونقوشاً مع سائر ما يلزمني للشغل وطلبت من أوربا آلة كبيرة للطبع تدار بالغاز وأنا أمني نفسي بالحصول على امتياز جريدة القدس هذه وإليك ما جرى:

منذ ابتداء سنة ١٣١٥ مارتيه (١٨٩٩) استأذنت من الحكومة المحلية في القدس وطلبت نشر جريدة عربية لأخدم بها الدولة و(البلاد) لأن لفظة «وطن» كانت كالصاعقة في مسامع الحكومة الاستبدادية وإذ فقد الاستدعاء الأول قدمت الثاني ثم الثالث والرابع وأخيراً دخلت إلى مجلس الإدارة قبل التئام بقية أعضائه وقلت لأحد ممثلي الأمة: «إذا كانت استدعاءاتنا لا يعمل بها وصوتنا لا تريد الحكومة أن تسمعه فلماذا فضيلتكم تجلسون في هذا المجلس وإذا كنتم تنوبون عن أمة قد حسبت في عداد الأموات فقم بنا لندفن أنفسنا». (وكان هذا العضو ممن يكرهون الاستبداد) فتأثر فضيلته وقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل اصبر هنا يا ولدي

لأرى سبب عاقة أشغالك» وقام ودخل إلى قلم التحريرات ولبث هنيهة ثم رجع وقال لي أكتب استدعاء آخر فأجبته «أأكتبه لخامس مرة؟» وإذا بأفندي آخر قال بحدة «ايشته سادس مرة» وبعد أن كتبت الخامس حول إلى دائرة المعارف وجرت معاملته وأرسلت إلى الآستانة في ١١ تشرين الأول سنة ١٣١٥ نمره ٨٥ وبعد مضي أربعة أشهر سألت نظارة الداخلية متصرفية القدس عني مع أن معاملة أوراقي كانت مستوفية كل الشروط من دوائر المعارف والضابطة والبوليس فأجابتها المتصرفية في ١٢ شباط سنة ١٣١٥ مؤيدة المعاملة. ثم سألت النظارة ذاتها عمن سيكون مراقباً على جريدة القدس فأجابتها المتصرفية أيضاً في ٢٤ حزيران سنة ١٣١٦ نمرة ٣٥ أن لدائرة المعارف في القدس أوامر في مراقبة المطبوعات وقد أخذت على نفسها أمر مراقبة هذه الجريدة.

وانتظرت طويلاً بعد أن أفرغت جيوبي فلم أحصل ممن وكلته في الآستانة بعد سنتين إلا على «أولور أولور. جانم عجلة ايتمه» (أي لا تستعجل سيجري طلبك) وفي ٤ تشرين الثاني سنة ١٣١٨ عرضت على الصدارة العظمى طلبي مرة أخرى لكن أبا العلاء المعري أجابني من قبره «لقد أسمعت لو ناديت حياً» وبعد أن سعى وكيلي ليعرف سبب هذا التأخير فهم أن شخصاً كبيراً جداً وشى بي سراً وقال إني أجنبي النزعة وهكذا ذهبت مصاريفي أدراج الرياح وانقطع كل أمل بالحصول على رخصة الجريدة وصارت مطبعتي عرضة لمراقبة المعارف ومفتشيها لكني بعون الله تعالى وبمؤازرة بعض وجهاء القدس الأفاضل نجوت من الوقوع في مكايد الأشرار. فمنذ تأسيس مطبعتي إلى حين بزوغ شمس الحرية طبعت ٢٨١ كتاباً بلغات مختلفة منها ٨٣ كتاباً عربياً عدا عن دفاتر جميع دوائر الحكومة المحلية فاعلم أيها الوطني العثماني أن مطبعتي كانت أسيرة لطبع جريدة الحكومة الرسمية لمدة سنتين فكانت تضطر أن تهيء ثمانية وجوه كبيرة أربعة عربية وأربعة تركية وتنهيها في أقل من يومين مع جهل مرتبي الحروف اللغة التركية وبقية أيام الأسبوع لم يكن للصناع شغل إلا فك الحروف والجلوس لأن الناس كانت تخاف أن تسلمنا كتبا للطبع مخافة أن يراها مدير التحريرات أو أحد كتبة تحريرات المتصرفية عندنا. فعدد الكتب المطبوعة المذكورة ودفاتر الحكومة وجريدة الحكومة الرسمية وما تيسر من الأشغال

التجارية يعد شيئاً كبيراً في أيام الاستبداد السالفة.

ولما رفع الاستبداد رأيت أن وطني العثماني يطالبني بخدمته وللحال رفعت وأكدت طلبي للصدارة العظمى ونظارة الداخلية تلغرافياً مستنداً على أوراق معاملتي الملقاة في زوايا النسيان منذ ثمانية أعوام وإذا بالرخصة قد وردت فعادت الآمال معها بيض الوجوه و «الحمد لله».

إسعاف النشاشيبي : تمجيد ثورة مكدونيا على السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٩

نشرت في «النفائس العصرية»، تشرين الثاني ١٩٠٩

اخطري اليوم في الربوع اختيالا ... لا تخافي من العدو اغتيالا
لا تخافي من كيده لا تخافي ... إن كيد العدو ولّى وزالا
حسب القوم نائمين وخالا ... كان هذا الحسبان منه ضلالا
قد أراد الذي أراد ولكن ... خيَّب الله والظبا الآمالا
نسي الكامنين في «سلنيك» ... يرقبون الشؤون والأحوالا
نسي الأسد أنوراً ونيازي ... واخا المجد شوكت المفضالا
فأتوه مزمجرين غضاباً ... وأذاقوه شدة ووبالا
تركوا الأهل والديار وساروا ... يقرعون الهضاب والأجبالا
وانتحوا ظالم البلاد ومردي ... الناس بغيا والناكث الختالا
أنزلوه عن عرشه مستكينا ... وأذلوه في الورى اذلالا
هلك الظلم يوم راح وولى ... وأتى العدل باهراً مختالا
تلك عقبى البغاة في كل دهر ... فاحذرن أن تؤول هذا المآلا
أيها الشرق طال نومك فانهض ... للمعالي وصافح الاقبالا
أهجر الجهل والعماية هجراً ... واعد للعلم مرقلاً ارقالا
انح ربع الأخاء نحو مجد ... وانبذنَّ الشؤون والأوحالا
اترك الدين في المعابد يبكي ... واحتفل بالفتاة شرق احتفالا

تخذوه يا شرق للظلم سبلا   وأضلوا وحرفوا الأقوالا
وسعوا بينه وبين فتاة القوم   بغيا آكلوا إيكالا
قصدوا هدم سورها فبنوه   وأتوا كي يقصروه فطالا

وصية الشهيد سليم عبدالهادي قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه

«أكتب هذه الوصية في الساعة الثامنة والنصف من ليلة السبت الواقعة في ١٠ شوال سنة ١٣٣٣ هـ حيث حكم عليّ بالموت في الساعة التاسعة من الليلة المذكورة، أعني أكتب هذه الوصية قبل موتي بنصف ساعة.

أكتب هذه، وأحد رفقائي المحكومين معي (محمد المحمصاني) أخذ ليصلب، وإني مسرور بلقاء الله سبحانه وتعالى.

إنني أقيم عمي حافظ باشا وصياً شرعياً وناظر وصي على ابنتي اليتيمة (طرب) وزوجتي الحزينة (فاطمة خانم) لما لي في حنوه وشفقته على عائلتي خير كفيل على راحتها ولعمي المومأ إليه أن يوصي من يشاء.

ليصرف عمي وولي نعمتي حافظ باشا من مالي الخاص ثلاثين ألف قرش، منها خمسة آلاف إلى الفقراء والمحتاجين، وخمسة وعشرين ألف ليشتري بها قطعة ملك توقف لمال المعارف، وليصرف ريعها على أبناء المستقبل، وأوصيت لأخي الأمين بألف ليرة فرنساوي من مالي، ولشقيقتي أم لطفي بمائتي ليرة، ولزوجتي بباقي ثروتي النقدية، وبكافة المصاغ والمجوهرات التي هي لها، وأطلب إليها المسامحة، وأشهد الله بأنني أموت وأنا راض عنها، فجزاها الله عني خير الجزاء، وجزاء الخير.

اطلب المسامحة من الجميع، واعترف في حالة الموت بالفضل والإحسان

لسعادة عمي حافظ باشا، جزاه الله خيراً وصحبني به تحت لواء المصطفى ﷺ.

وأكتب هذا بقلم حديد، ومن التحقيق بالخط يعلم أنه كتب جيداً، مما يدل على أنني استقبل الموت بصدر رحب، وذلك لأنني خرجت من هذه الدنيا الدنية ناصع الجبين، طاهر الذيل، مؤمناً بالله واليوم الآخر».

وقد كتب على ظهر الوصية «تسلم ليد أخي أمين أفندي عبد الهادي مبعوث لواء نابلس، ولا يسهى عن فكره تسديد (بابا أخوان) ثمن فسطان النوم والبشكيرين».

موت الأدب في فلسطين

من مقال في جريدة المنادي، العدد ١٦، ١٩١٢/٥/٢١ السنة الأولى

لم يعرف الناس بعد الأسرار في فناء الأمم بعد أن تصل إلى غايات المدنية والارتقاء والأسباب التي تنزل بالشعوب عندما تبلغ نهاية الحضارة والعلم، لأن هذا ما يخالف سنة الارتقاء العامة وتنازع البقاء، اللهم إلا أن تكون تلك الأمم تركن لمدنيتها وتشتغل فيها يستزلها إلى مزالق الانحطاط.

وصلت المدنية العربية في هذه البلاد قبل قرون إلى غاية لا مطمع لأحد فيها بعدها. ثم أدال الله منها للانحطاط وكاد الزمان الأعمى من تلك الأمة الضخمة فرماها في جهل أخذت تتدرج فيه حتى رأيناها كما رأينا ولم تعد أسباب انتشار العلم والمدارس تؤثر على الأفراد أو تدفع الجماعات من سكان هذه البلاد وأبناء تلك الأمة إلى التشبه بغيرهم أو تقبل أعمال أمم العصر المتمدنة.

لقد مات الأدب في هذه البلاد ميتة لم تمتها قبل فضيلة وعق أبناء اللغة العربية لغتهم الشريفة عقوقاً دونه الكفر، أو هو الكفر فرغب الناس عن العلوم وولوا وجوههم دون من يعرفونه على مسكة من الفضائل، وأخذوا في السفسطات والنقائص والمماحكات: إن من العار على سكان هذه البلاد أن يكون عدد الأميين منهم أكثر من القراء بمرات، وأن تنشأ المدارس بينهم فلا يرسل إليها إلا العشرات من الألوف أبناء الشعب، وأن تصدر الصحف النافعة فلا تجد من الملايين الذين ينطقون بالعربية مئات يرضون عن تلك الجرائد ويفهمون مزاياها.

ومن العار الذي دونه كل عار أن يبرهن عامة الشعب على جهلهم فيقبلوا على قصص الخرافات والفكاهات وجرائد النكات ومجلات الروايات أكثر مما يميلون إلى مجلات العلم والأدب وجرائد الاجتماع والعمران فيشترون تلك بالدراهم والدنانير ويضنون على هذه بالبارات والدوانق.

ومن العيب الذي لا يجاريه عيب أن لا يزيد عدد قراء مجلة المقتطف العلمية أو الهلال التاريخية أو المقتبس الباحثة في كل بلد من البلاد الفلسطينية على العشرة، على حين أننا نرى قراء الجرائد الهزلية كالحمارة والعصا ومجلات القصص والفكاهات كالنفائس العصرية والنفائس البيروتية يعدون بالمئات والألوف، ولا ندري ماذا يتصوره ذلك الشاب الذي يدفع الريال في السنة لتأتيه أعداد تلك المجلة أو الجريدة ويتلو ما فيها من قصص الحب.

جريدة المنادى تطالب بالتعليم الإجباري في فلسطين

المنادي، العدد ٤٧، السنة الأولى، ١٤/١/١٩١٣

إذا حق لنا أن نلوم الحكومة الدستورية بذنب أذنبته أو خطأ أخطأته فليس أجدر بأن تلام عليه كإهمالها التعليم الإجباري المجاني كما يقضي به القانون الأساسي وإننا لا نبالغ إذا قلنا اننا لا نحترم ذلك القانون العظيم لمادة فيه أجل وأعظم من تلك المادة التي تقول إن التعليم الإبتدائي في البلاد إجباري بلغة البلاد لكل طبقات الشعب.

لا نؤول إهمال الحكومة العمل بتلك المادة بغير أن نقول انها بين أمرين إما أن تكون قد أبطنت أمراً للشعب فلا تريد أن تعلم أبناءه لئلا تهيأهم لمناقشتها واما أن تكون قد رأت أن ما في خزائنها لا يقوم بهذا ونرجح السبب الثاني على الأول لأن ما نراه اليوم من الشواهد يؤيد ذلك وعمل الحكومة الأخير الذي نقلناه إلى قرائنا في العدد الماضي وهو أنها بعثت بأوامرها إلى الولايات بأن تصرف ما يجبى باسم المعارف في سبيل معارف البلاد التي يجبى فيها وقد علمنا أنها خصصت أيضاً بعض المال تنفقه في إصلاح معارف البلاد التي لا تكفي جبايتها لحاجاتها كالحجاز واليمن وغيرها.

إننا نحبذ الحكومة بعملها هذا ولكننا لا تزال نقول إن كل هذا لا يفي بالحاجة إذا كنا لا نختار وجوه الانفاق التي تثمر ثمرات نافعة وتعجل في نشر العلم

الصحيح إذا كنا لا نزيد على تلك المخصصات من مال الوقف الذي أوقفه أهل الاحسان والفضل في هذه البلاد لينفق في سبيل العلم.

في هذه المدينة من دور الوقف والأراضي ما يقوم دخله بإقامة ثلاث كليات من أحسن كليات العصر وكل تلك الأوقاف خصصت لمثلها فلم لا نقوم بشروط الواقفين ونتبع الأمانة في تنفيذها فنقسر بعض العائلات التي تعيش بمالها وتتربى على الكسل على أن تدفع نصف ما تأخذه لننفقه في ترقية الأمة...

ولم لا نطلب من الحكومة أن تعطينا ما تأخذه من المال الذي خلف لنشر العلم والتهذيب ما نصرفه في بناء كلية عصرية نافعة. فلم ذلك؟.

لا نظن السبب غير أننا لم ندرك بعد قيمة العلم وأن الأدب قد مات في هذه البلاد كما قلنا غير مرة وأن النفوس تراخت في طلب الفضائل فرماها الله في شغل من أمرها لم تدرك معه ما تقضي به عليها الحاجة أو يريده العصر وبهذا رأينا العامي يضن بابنه على المدارس ليأتيه ببضع متليكات في اليوم يستعين بها على عيشه ورأينا الوسط يقنع من تعليم ابنه بمعرفة جمل أو فقرات لغة الدواوين التركية تؤهله لوظيفة صغيرة في دوائر الحكومة ورأينا الخاص يربي ولده على الوهم وحب السيطرة والشرف ويؤهل له عيشة هنيئة بالمال الموروث والسحت الذي يسلب من القروي والربّاء.

الشعر العربي في شرقي الأردن

بقلم الخوري بولس سلمان

من مقال نشر في مجلة «المشرق» العدد ٤ نيسان ١٩١٤

ما هو الشاعر العربي؟

إن الشاعر العربي لا يتميز عن غيره بثوبه وردائه بل ربما كان غيره خيراً منهُ. فإن كان شاباً غضَّ الإهاب في ربيع عمره تجلو لهُ الحياة بمحاسنها فيلبس الثوب الحريري الطويل الأردان ويتعمَّم بالكوفية الخزيَّة والعقال القصبي. والعقال هو عادة لُفافة من صوف مبروم يلفُّها العرب حول المنديل. ويشدّ على حقويه مسدَّساً ويضع إلى جانبه الأيسر سيفاً ثميناً. ألا انظر إلى عينيه المتكحلتين وجديلتيْه المضفورتين المسترسلتين على كتفيه وعارضيه المرتفعين فهذا هو الشاعر الشاب تلهوه الزينة والملاهي وإذا كان متقدماً في العمر تجافى عن تلك الأباطيل فتراه لابساً قميصاً طويلاً وعباءة صوف ولَهُ لحية قصيرة تدل على فطنته ورزانته. غير أن الشعراء في عهدنا الحاضر لا يملكون من الدنيا شيئاً فيعيشون متطفّلين على موائد أهل الكرم مكتسين من أرباب الجود والإحسان. فلقد عهدت شاعراً شرارياً يدعى عليّان عليه ثوب بالٍ وعباءة متقطعة ولهُ منديل أكل عليه الدهر وشرب يمشي حافي الأقدام حتى أصبحت رجلاه صلبتَيْن كالحجر يقتات من صيد الغزلان. على أنهُ يقظ الفؤاد متلهِّب الذكاء يدرك بالإيماء قبل اللفظ وإني لا أعرف شاعراً غيره شرارياً وهو يدعى عليّاً فكنتُ لا أسألُه عن قصيدة بدوية أو معنى شعري إلا أجاب: أعرف ما تريد. ويُنشد في الغرض المطلوب القصائد العديدة. وممّا يتضح من أشعارهم أنهم سريعو

التخيُّل صادقو المشاعر يستخدمون التشابيه التي يرونها في البيداءُ كمثل البرق والسحاب والخيول السوابق والسيول الجارفة ولا ينسون شيئاً من الاستعارات التي كان يأتي بها الجاهليُّون في عصرهم.

وبعد أن نظرنا إلى ظواهر الشاعر علينا أن نصف صفاته الحقيقية كما يعرفها العرب أنفسهم. فالعرب يستعملون كلمة الشاعر بمعانٍ كثيرة منها الراوي للشعر الحافظ لجديدهِ وقديمهِ المطرب للسامعين في المسامرات ومجالس الشيوخ والأمراء.. فهؤلاء الشعراء لا يحصى لهم عدد بين أصحاب المضارب. فهناك نجد أناساً كثيرين واسعي الحفظ يستظهرون على صفحات قلوبهم ما يسمعونه مرَّات أو مرَّة واحدة وهم أمِّيون لا يعرفون من القراءة والكتابة حرفاً فيحفظون قصائد كبيرة سمعوها من دهر بعيد لا يخلُّون بكلمة منها بعد الزمن الطويل.

ولكن الشاعر الحقيقي هو المنشىء المجيد المبتكر لأساليب النظم فيقوم الشعر في خدمته ويروض القوافي الصعبة والمعاني الجميلة فيبديه بالكلام الموزون المقفّى. وهؤلاء الشعراء نفر قليل بين الاعراب فلكل عشيرة شاعرها يتبعها في نزلها ورحيلها يمدح الأمراء ويُثني على كرمهم وضيافتهم ويصف الغزوات والأبطال المشهورين. ولا بدَّ للشاعر المجيد أن يتحلّى بصفات ثلاث: فالأولى أن يكون مبتدعاً لأنواع الشعر قديراً على نظم القصائد الوافرة ووصف جميع ما يعرض للبدوي من الأعراض في باديته وبين نياقه وخيله. والثانية أن يكون واضح الصوت جليَّه. والثالثة أن يكون ضارباً على الرَّباب. فمن أصاب تلك الصفات عُدَّ شاعراً ونال من الإكرام قدراً وافراً.

يقضي الكمال على الشاعر أن يكون واسع المخيَّلة كثير الحفظ نقاداً لأحوال العشيرة عارفاً بأذواق الاعراب وطبائعهم وما يحلّ في صدرهم محلّ الرضى والاستحسان وبارعاً في وصف المواقع والحروب. فالشاعر هو الذي يحيي الجماد بحيث يشعر الحضور بتأثير لم يكونوا عهدوه من ذي قبل.

... فهذه الصفة ترتاح إليها الأعراب وبها يميزون الشاعر المجيد من الضعيف القاصر. وكثيراً ما يصف الشعراء الحروب والغزوات. هناك نعاين الفارس على متن الخيول الأصيلة لا يهاب المنايا فنخال أنفسنا في وسط الميدان.

هناك يجول الأبطال في ميدان واسع الأطراف فيعلو الغبار في الفضاء وترتفع الأصوات في السماء وتُسْمَع قعقعة الأسلحة ودويُّ الرصاص وخبب الخيل ثم يُعقبها سكوت الموت في تلك البيداء.. هناك تهوي الرجال على الأرض مضرَّجة بالدماء.. فقد أدرك الشعراء ما يؤثر في قلب المرء فذكروهُ وابدعوا. اطلب مثلاً قصيدة أبي الكباير الشاعر الشراري وفيها يمدح عودة أمير الحويطات تتحقَّق رفيع وصفهم واتساع مخيلتهم وقد ذكرناها في آخر كلامنا.

ولا بد للشاعر من صوت رخيم واضح لأن الشعر عند العرب مُغَنًّى. فإن كان الصوت مرتفعاً سمعهُ الحضور من أطراف البيت. فما هي الأصوات الرخيمة عندهم! هي القوية المرتفعة. فالأصوات التي يحبُّها أهل المدن لا تنال عندهم استحساناً بل ربما استهجنوها وكرهوها لأنهم اعتادوا على أغانيهم وألحانها دون غيرها. لا تسل الاعراب عن أصوات المغنين البارعين فلا تؤثر بهم ولا يجدون بها لذَّة بل ربما سئموا لسماعها فيعدُّون أنغام المرنِّمين المطرية ألحاناً شاذَّة مملَّة. وكذلك أهل المدن الغنَّاء وأرباب الترقي والعمران إذا سمعوا غناء الاعراب لا يدركون له معنى ولا يفهمون منه حرفاً بل يعدُّونه من الألحان الوحشية. ولقد طرقت مسامعنا أغانيهم فوقفنا عندها حيارى لا ندري ما ينطقون به.

ويكون الشاعر مجيداً إذا ضرب على الرباب. فالرباب ويسميها العرب الربابة هي نوع من آلات الطرب تضارع العود الصغير يصنعونها من جلد الوبر. فيأخذون خشبات أربع يقرنونها بأطرافها الأربعة بالمسامير وطول كل واحدة منها ثلاثون سنتمتراً وعرضها عشر سنتيمترات فيجمعونها بحيث تُصبح مربَّعة ثم يلفُّونها بجلد الوبر ويضعون شعر فرس أو حصان يُشَدُّ عليها من أعلاها إلى أسفلها. وللرباب مفاتيح كالعود بها يُشَدُّ الشعر أو يُرخى على حسب أغراض الشاعر ولا بدَّ للرباب من قوس تُربط أطرافُهُ بشعر مشدود. ولا تأتي الرباب بصوت إلاَّ إذا احتك شعر القوس بشعر الرَّباب وقبل الضرب على الأوتار يمرُّونها بالنار كي تحمي وكثيراً ما تُفْرَكُ ببخور حتى تُسْمِع صوتاً مطرباً وإذا لم تأتِ بصوت شجي قالوا: انها جائعة. فالشاعر الماهر يدبّرها كيف يشاء فتأتي تارة بصوت حزين يفتت الأكباد كآبةً كما لو أنشد الشاعر من رثاء نمر العدوان لزوجته «وَضْحاء» فتحن وتئن آنات الأسى

فيعطف الفؤاد وتبكي العين لسماعها، وتارة تهبّ بصوت عاصف كصوت الأبطال في الحروب فيرقص الحاضرون طرباً واستحساناً. وتجري أخرى كمسيل هادىء في مدح الأمراء وأهل الكرم وطوراً تتبع الصوت بلَيّات وعطفات وطوراً يتبعها الصوت ويأخذ من ألحانها ومن ذلك نشأت الألحان عند العرب. فمنها اللحن الرثائي والحربجي أي الحماسي والشمَّري أو الشروقي وهو غناء أهل الشرق في غزواتهم وحروبهم. والهجيني وهو غناء الراعي حينما يورد غنمهُ أو أبلهُ إلى المياه وهو يمثل سير النياق والعرب الأقدمون يسمّونهُ خَبباً. والهلالي وهو شعر بني هلال.

وكم من مرَّة عاد في محفوظنا ذكر الشعراء الذين عاشوا في الأجيال الوسطى عند الفرنسيس وغيرهم المدعوين «Troubadours» فكانوا كشعراء العرب الحاليين يجولون من قصر إلى قصر طالبين الإحسان من أهل الفضل مرنمين الترانيم البديعة والأشعار الرقيقة والحماسية راوين الحكايات والرويات الخيالية. والأمراء في وقتنا الحاضر يعلّقون الرباب في وسط خيمتهم يعدّونها للشعراء في أوقات الأفراح كمولدٍ بهيج أو عرس أو تطهير أو محفل حافل أو أعياد دينيَّة أو مدنيَّة أو في عودتهم من غزوة وهم ظافرون كاسبون.

إكرام الشعراء ومداراتهم

وكان الشعراء في كل آن ومكان مكرَّمين معززين تخشى القبائل والعشائر من لسانهم وهجائهم فلقد مثّلوا كلامهم وطعنهم بسمّ الرقطاء أو بسيف ذي حدَّين ولذلك أقاموا لهم قدراً رفيعاً وأكرموهم جهاراً وخفية ولو كانوا في أقصى درجات الفقر والذلّ. وإذا نبغ بين الإعراب شاعر وفدت الوفود من العشائر البعيدة والربوع القاصية يهنئونهُ بما أنزل على لسانه من بديع المعاني فيعدُّون مجالس السرور ويُحيون الليالي الساهرة ويولمون الولائم إكراماً لهُ وإجلالاً. ويقول العرب إن لكلّ شاعر جنّاً أو شيطاناً يلقّنه الشعر وهو عندهم بمثابة إلاهة الشعر (Muse) عند اليونان. على أن الشاعر يسير من ربْع إلى ربع يمدح الأمراء ويطلب منهم العطايا الجليلة والإنعامات الوافرة. وكأني بهِ ينشد قول الشاعر:

لا تقبلنَّ الشعر ثم تعقّهُ   وتنام والشعراءُ غيرُ نيامِ

واعلم بأنهم إذا لم ينصفوا   حكموا لأنفسهم على الحكّامِ
وجناية الجاني عليهم تنقضي   وعقابهم باقٍ على الأيامِ

غير أن الأمراء يجزلون لهم العطاء خوفاً من هجائهم. ومن عاداتهم أنهم يهدون لهم فرساً كريمة أو سيفاً باتراً أو رمحاً قاطعاً أو بندقية. أو يحملون لهم جوالق الحنطة وأكياس الطحين ويقدمون لهم ولعيالهم الكسوة وربما أنزلوهم في خيمهم وأطعموهم على موائدهم كاهل بيتهم. وإذا نزلت المصائب بشاعر ما يقصد الأمير ويستعطف قلبهُ فيحسن إليهِ بما تجود بهِ نفسه. وإذا حُكِمَ على المجرم بحبس مديد سطَّر من سجنه قصيدة إلى الحاكم أو إلى كبير البلدة كي ينقذه من هذه الورطة. وإذا وقع الشاعر أسيراً على أثر حرب بذلوا جهد طاقتهم لاسترضائه ومداراتهِ فأخذوا عليه العهود الشديدة والإيمان المغلّظة ألاّ يهجوهم وإذا رأوا منهُ خبثاً أو مكراً قطعوا لسانَهُ أو ذبحوه. . .

من قصيدة للشيخ سعيد الكرمي يصف سجنه في دمشق عام ١٩١٥

بين ناموس وبرغوت وبق ... سال مثل السيل في بقعتها
عندما وافيتها ذقت الأشق ... رغم ما يؤثر عن سمعتها
فلو الراحة كانت تشترى ... لشريناها بكل الذهب
فترى الكل يعاني السهرا ... من مساء لاختفاء الشهب
إنما حيَّر فكري عجباً ... كونهم قد جرموا مثلي بري
والذي لفق عني الكذبا ... صلبوه مذ رأوه مفتري

ويلهم لم يخافوا العطبا ... من سهام الليل وقت السحر
فدعا المظلوم أن جد السرى ... ليس ينجى منه جد الهرب
وترى الظالم مهما استكبرا ... يأته الموت بأدنى سبب
ظلموا والله فيما حكموا ... حين القوني بسجن أبدي
كذبوا والله فيما زعموا ... ليس في العالم شيء سرمدي
ويلهم إذ أنهم ما علموا ... أن مولاي غداً معتمدي
وهو لا يبغي لظلم مظهراً ... ويفاجىء أهله بالنوب
وترى الحال سريعاً غيرا ... من عناد لصفاء معجب
وتعجب للذي قد عملوا ... من فعال ذكرها يبكي الجماد
ويلهم كم من بريء قتلوا ... واستباحوا نهب أموال العباد
وعن العدل بقصد عدلوا ... وإذا هم كل يوم بازدياد
جعلوا فعل الدنايا متجرا ... وهو سر الكسب للمكتسب
لا يجلون سوى من سكرا ... وإذا هام ببنت العنب

من قصيدة فؤاد الخطيب في الثورة العربية الكبرى ١٩١٦

حي الشريف وحي البيت والحرما ... وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما
يا صاحب الهمة الشماء أنت لها ... إن كان غيرك يرضى الأَيْنَ والسأما
واسمع قصائد ثارت من مكامنها ... إن شئتها شهبا أو شئتها رُجُما
من شاعر عربي غير ذي عوج ... قد بارك الله منه النَفسُ والكلما
يا آل جنكيز ان تَثْقُلْ مظالمكم ... على الشعوب فقد كانت لهم نعما
أرهقتم الشعب ضرباً في مفاصله ... حتى استفاق وسل السيف منتقما
فالشنق عن حنقٍ منكم وموجدةٍ ... قد أرهف العزمات الشمَ والهمما
هيهات يصفح عنكم أو يصافحكم ... حر ولو عَبَدَ الطاغوت والصنما
يا ابن الكماة وأنت اليوم وارثهم ... قد عاد متصلاً ما كان منفصما
والتف حولك أبطال غطارفة ... شم الأنوف يرون الموت مغتنما
فاصدم بهم حدثان الدهر مخترقاً ... سدًّاً من الترك إن تعرض له انهدما
إيه بنى العرب الأحرار إن لكم ... فجراً أطل على الأكوان مبتسماً
من ذلك البيت، من تلك البطاح، على ... تلك الطريق مشت أجدادكم قدما
لستم بنيهم ولستم من سلالتهم ... إن لم يكن سعيُكم من سعيهم أمما
إلى الشآم إلى أرض العراق إلى ... أقصى الجزيرة سيروا واحملوا العَلَما

ومن الديوان (ص٤١٦ ـ ٤٢٢) قصيدته التي قالها في مكة أثناء الثورة:

لمن المضاربُ في ظلال الوادي ... رَيّا الرحاب تغص بالوراد
الله أكبر تلك أمة يعرب ... نَفَرت من الأغوار والأنجاد
طوت الرحال والأسنة شُرَّعٌ ... والبيض مُتْلَعَةٌ من الأغماد
لبيكِ يا أرض الجزيرة واسمعي ... ما شئت من شدوي ومن انشادي
أنا لا أفرّق بين أهلك إنهم ... أهلي وأنت بلادهم وبلادي
عربٌ تطوع كهلهم وغلامهم ... للموت غير مسخّر بقياد
ومن اشترى استقلاله بدمائه ... لم يَسْتَنِم لأذى ولا استعباد
الملك فيك وفي بنيك وانه ... حق من الأباء للأحفاد

قصيدة للملك عبدالله بن الحسين

بمناسبة معارك الثورة العربية في معان

مالي وما لصياح السلك في بلد ... لا السهل يشبهه كلا ولا الجبل
أبيت سهران أرعى النجم مرتقباً ... ضوء الصباح بأصوات لها زجل
ترى به لمعان البرق مشتعلاً ... كأن حافاته الأستار والكلل
كأنه حين تأتيه الرياح دجى ... عاو رأى غنماً فيها فتى بطل
فارتاع لما رآه حوله وثنى ... ترديد صوت هصور هاجه خبل
بل ذلك الصوت نوح الشام يرسله ... للعرب مما دهاه ملؤه الوجل
يقول ان سراة الشام ظاعنة ... ترجو المنون وهم لم يعرهم دخل
ليست ورب الصفا والبيت راضية ... بملك علج عنيف ملؤه الخجل
يسوقهم بسياط الذل مطمحه ... للغدر ينكر ما جاءت به الرسل
في أول الأمر قد أبدى مخاتلة ... والسر أخبث مما أظهر الوجل
وأنتم يا سراة العرب ما لكم ... إن النفوس لعز الدين تبتذل
فكيف ترضون أن تبقى بلادكم ... بالذل محتلة سكانها خول
يا ساريا فوق بكر مسرعاً عجلاً ... لم يثنه عن مناه اللهو والشغل
أبلغ كريماً نأى عنا لحادثة ... من أجلها مع ذوي التيميس مشتغل
فليخبر القوم أنا لم نحل أبداً ... عما بنينا وهم عنا قد اعتزلوا
أغروا بنا رهط غورو ثمة اضطجعوا ... وذاك منهم نكول كيف يعتدل
ما بالهم قد نسوا منا مثابرة ... لما دعونا فصرنا القوم ننتشل

إذ كـان قيصر ألمـان يناجـزهم ... والتـرك تقتـل منهم ثم تـأتكـل
أعـوذ بـالله مـن رأي وثقـت بـه ... وقـد أراك سـواه الحـادث الجلل
فـإن وجـدت وثـوقاً بـالعهود فكن ... لمـا انتـدبت إلـيـه أنت محتمـل
أولا فـلا تقعـدن يـا شهم بينهم ... واقـدم ترانـا جميعاً كيف نفتعـل

من يوميات خليل السكاكيني

(مقتبسة من كتابه: كذا أنا يا دنيا)

الاتجاهات السياسية في فلسطين في مطلع عام ١٩١٩

السبت في ١٩١٩/١/٢٥.

جاءت وفود فلسطين إلى القدس لعقد مؤتمر فيها. وظيفة هذا المؤتمر البحث في مصير فلسطين وسائر شؤونها. يقول الذين يعرفون أولئك الوفود انهم ينقسمون إلى ثلاثة أفرقة: فريق مخلص وطني حر لا يراعي في وطنيته شيئاً. وفريق وطني ولكنه جبان ضعيف الرأي سهل القياد فإذا سألت هذا الفريق ماذا تطلب فإنه يراعي في ما يطلب اما مصلحة الإنكليز أو مصلحة الفرنساويين أو مصلحة الصهيونيين. ويقال أيضاً إن الحكومة الانكليزية تحاول إقامة العثرات في سبيل عقد هذا المؤتمر لإبطاله لئلا يتألف في فلسطين رأي عام أو هيئة تمثله. وإذا ألف المؤتمر فإنها تحاول أن تحصر بحثه في مقاومة الحركة الصهيونية.

الأحد ١٩١٩/١/٢٦

بعد الظهر غصَّ ديواني على ضيقه بالمجتمعين، وهم رشدي الإمام والحاج أمين الحسيني وفخري الحسيني والشيخ سعيد الخطيب ومحمد يوسف الخطيب وعمر الزعني والدكتور زكي أبو السعود وشكري الناجي وأبو الفضل إسعاف النشاشيبي

ما عدا الذين جاؤوا وذهبوا. فدار البحث على الثقة بالجمعية الإسلامية المسيحية في القدس والجمعية الفلسطينية أو عدمها. فإذا كانتا موضع ثقتنا آزرنا هما وضممنا أصواتنا إلى أصواتها، وإذا لم تكونا موضع ثقتنا عملنا على إبطالها أو تلافي ضررهما على الأقل. **نحن ندعو إلى الجامعة العربية واعتبار فلسطين جزءاً منها واعتماد صاحب السمو الأمير فيصل كممثل للجامعة العربية في مؤتمر الصلح فما هو رأي الجمعية؟**

الرأي الغالب في الجمعية الإسلامية ـ المسيحية أن تطلب الجمعية الفلسطينية من مؤتمر الصلح حق اختيار الحكومة التي نريدها أسوة بسوريا والعراق. وهناك فريق آخر يرى **أن نطلب أن تكون فلسطين للفلسطينيين وكلا الرأيين فاسد لأنها يعنيان فصل فلسطين عن الجامعة العربية. فإذا فصلت فلا بد أن يكون مصيرها اما يهودياً. . . وإذا لم يكن مصيرها يهودياً فلا بد أن تصير إلى حكومة أجنبية بحجة أن فلسطين لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها لتفشي الأمية فيها واستحكام التعصب من النفوس وغير ذلك من الأسباب.**

بناءً على ذلك رأينا أننا لا نستطيع أن نضع ثقتنا في هذه الجمعية. فماذا نعمل؟ هل نستطيع أن نحولها عن رأيها هذا ونستدرجها إلى اعتقاد رأينا أم لا؟ البعض رأى أن نجرب ذلك بأن نأخذ من كل عضو من أعضائها على حدة ونقنعه بفساد رأي الجمعية، وأن نرفع إلى الجمعية بياناً بخطتنا ونشدد في الجري عليها، فإذا لم ننجح عملنا على استقالتها ونزع هذه الصلاحية من يدها.

ثم بحثنا في ما إذا نستطيع أن نثق بالجمعية الفلسطينية ونكل إليها أمر الوطن وتقرير مصيره أم لا، فرأينا أن نجرب أن نوحد كلمة الوفود كلهم على عقيدة الجامعة العربية، وأن فلسطين ليست للفلسطينيين بل هي للجامعة العربية.

وقررنا أن تقيم الأندية الوطنية في القدس حفلات تكريم لهم يقوم فيها الخطباء يدعون إلى الجامعة العربية ويتناولون كل رأي من الآراء العديدة ببيان ضعفه، فإذا نجحنا فذلك ما نتمنى وإلا اتخذنا طرقاً أخرى لدفع الخطر.

رؤيا

مقتطف من كتاب «رؤيا» لعارف العارف
المنشور عام ١٩٤٣ والذي كتب عام ١٩١٨

في يوم الأربعاء لسبع خلون من شهر ديسمبر سنة ثماني عشرة وتسعمائة وألف غادرنا شنغهاي قبل الغروب، فأخذت السفينة «دونيرا» تشق بنا عباب البحر. . . وجن الليل فآوينا إلى مضاجعنا وما كدت أستلقي على فراشي حتى أدركني النوم. فخلت نفسي طائراً في الجو على متن طير أخضر عريض الجناحين وهبته الطبيعة النطق كما وهبته الإنسان. فبادرني بلسان عذب وقال: لا تخف يا صاح. إني أحبك ولذا أريد أن أطير بك في سماء هذا الكون لأريك من غرائب الدنيا وعجائبها ما لم تكن تحلم به من قبل. قل لي أي البقاع أحب إليك؟.

ـ بلادي، بلاد العروبة.

ـ ما ألطف هذا الإسم! وما أجمل هذه البلاد! إنها بلاد علم ومعرفة، بلاد زراعة وصناعة، بلاد كسب وتجارة، بلاد جد ونشاط، بلاد نور وجمال، بلاد رقي وكمال، بلاد حرية وكرامة ووحدة وعزة واستقلال.

كنت أعلم علم اليقين أن بلادي كانت غارقة في بحر الجهل والشقاء. . .

ما عدا الذين جاؤوا وذهبوا. فدار البحث على الثقة بالجمعية الإسلامية المسيحية في القدس والجمعية الفلسطينية أو عدمها. فإذا كانتا موضع ثقتنا آزرنا هما وضممنا أصواتنا إلى أصواتها، وإذا لم تكونا موضع ثقتنا عملنا على إبطالها أو تلافي ضررهما على الأقل. **نحن ندعو إلى الجامعة العربية واعتبار فلسطين جزءاً منها واعتماد صاحب السمو الأمير فيصل كممثل للجامعة العربية في مؤتمر الصلح فما هو رأي الجمعية؟**

الرأي الغالب في الجمعية الإسلامية ـ المسيحية أن تطلب الجمعية الفلسطينية من مؤتمر الصلح حق اختيار الحكومة التي نريدها أسوة بسوريا والعراق. وهناك فريق آخر يرى أن نطلب أن تكون فلسطين للفلسطينيين وكلا الرأيين فاسد لأنهما يعنيان فصل فلسطين عن الجامعة العربية. فإذا فصلت فلا بد أن يكون مصيرها اما يهودياً... وإذا لم يكن مصيرها يهودياً فلا بد أن تصير إلى حكومة أجنبية بحجة أن فلسطين لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها لتفشي الأمية فيها واستحكام التعصب من النفوس وغير ذلك من الأسباب.

بناءً على ذلك رأينا أننا لا نستطيع أن نضع ثقتنا في هذه الجمعية. فماذا نعمل؟ هل نستطيع أن نحولها عن رأيها هذا ونستدرجها إلى اعتقاد رأينا أم لا؟ البعض رأى أن نجرب ذلك بأن نأخذ من كل عضو من أعضائها على حدة ونقنعه بفساد رأي الجمعية، وأن نرفع إلى الجمعية بياناً بخطتنا ونشدد في الجري عليها، فإذا لم ننجح عملنا على استقالتها ونزع هذه الصلاحية من يدها.

ثم بحثنا في ما إذا نستطيع أن نثق بالجمعية الفلسطينية ونكل إليها أمر الوطن وتقرير مصيره أم لا، فرأينا أن نجرب أن نوحد كلمة الوفود كلهم على عقيدة الجامعة العربية، وأن فلسطين ليست للفلسطينيين بل هي للجامعة العربية.

وقررنا أن تقيم الأندية الوطنية في القدس حفلات تكريم لهم يقوم فيها الخطباء يدعون إلى الجامعة العربية ويتناولون كل رأي من الآراء العديدة ببيان ضعفه، فإذا نجحنا فذلك ما نتمنى وإلا اتخذنا طرقاً أخرى لدفع الخطر.

رؤيا

مقتطف من كتاب «رؤيا» لعارف العارف
المنشور عام ١٩٤٣ والذي كتب عام ١٩١٨

في يوم الأربعاء لسبع خلون من شهر ديسمبر سنة ثماني عشرة وتسعمائة وألف غادرنا شنغهاي قبل الغروب، فأخذت السفينة «دونيرا» تشق بنا عباب البحر... وجن الليل فآوينا إلى مضاجعنا وما كدت أستلقي على فراشي حتى أدركني النوم. فخلت نفسي طائراً في الجو على متن طير أخضر عريض الجناحين وهبته الطبيعة النطق كما وهبتها الإنسان.. فبادرني بلسان عذب وقال: لا تخف يا صاح. إني أحبك ولذا أريد أن أطير بك في سماء هذا الكون لأريك من غرائب الدنيا وعجائبها ما لم تكن تحلم به من قبل. قل لي أي البقاع أحب إليك؟.

ـ بلادي، بلاد العروبة.

ـ ما ألطف هذا الإسم! وما أجمل هذه البلاد! إنها بلاد علم ومعرفة، بلاد زراعة وصناعة، بلاد كسب وتجارة، بلاد جد ونشاط، بلاد نور وجمال، بلاد رقي وكمال، بلاد حرية وكرامة ووحدة وعزة واستقلال.

كنت أعلم علم اليقين أن بلادي كانت غارقة في بحر الجهل والشقاء...

من برنامج الحزب الوطني العربي الفلسطيني

الأغراض السياسية

مطبعة «مرآة الشرق» عام ١٩٢٣

١ ـ بقاء فلسطين عربية لأهلها العرب، خالصة من كل حق ونفوذ أجنبي وصهيوني وهي جزء من البلاد العربية.

٢ ـ لغة البلاد الرسمية هي اللغة العربية.

٣ ـ عدم الاعتراف بوعد بلفور وبالدستور الذي سنته الحكومة وبمجالسها التشريعية والاستشارية وبالوكالة العربية وعدم الاعتراف بأي نفوذ غير وطني في البلاد.

٤ ـ يدأب الحزب على المطالبة بإنشاء حكومة وطنية ديمقراطية حرة بكل ما في معنى الحكومة، وسن دستور ينتزع من رغبات الأهلين وروح الشعب.

٥ ـ لا ينفك الحزب عن المطالبة بتأليف مجلس نيابي ينتخبه الشعب على نحو ما في البلاد الراقية، له وحده الحق في تشريع القوانين التي تلائم مصلحة البلاد وفي سائر فروع الحياة.

٦ ـ النضال الدائم عن القضية الفلسطينية وتصوير ظلامة البلاد للعالم المتمدن تصويراً يكفل انعطافه، ويشرفه على حقيقة هذه القضية ومبلغ هذه الظلامة في نظر التاريخ والشرائع والحقوق والتذرع لذلك بكل ما يتأتى من الذرائع المشروعة في البلاد وخارجها خطابة وكتابة وحواراً واحتجاجاً وإيفاد الوفود وبث الدعوة (بروبوغندا) على نمط منظم.

٧ ـ توسيد الوظائف إلى أهلها من الفلسطينيين العرب وأن لا يعدل عنهم إلى غيرهم إلا عند الحاجة الماسة إلى الأخصائيين.

فلسطين

مقالة لخليل السكاكيني نشرت في جريدة السياسة المصرية في ١٩٢٣/٦/١

أما الحكومة التي ادعت أنها دخلت البلاد مخلّصة لا فاتحة فقد جعلت تنظر إلى العرب نظرها إلى اعداء. لا تزال الإدارة تسمى إدارة بلاد العدو المحتلة. مر زمان طويل والبلاد تحت الإدارة العرفية، والبريد وسائر ما يكتب أو يطبع تحت المراقبة الشديدة. مر زمان طويل قبل أن تطلق الحكومة سراح الأسرى العرب... كثيرون من أبناء البلاد الذين نفوا في أثناء الحرب أو كانوا في الخدمة العسكرية خارج فلسطين منعوا من الدخول إليها، وكثيرون نفوا منها بإيعاز من اليهود.. أقامت الحكومة لأول عهد الاحتلال محجراً صحياً بين مصر وفلسطين ولم يكن يدخله إلا العرب. وأما اليهود وسائر الأجانب فكانوا يروحون ويجيئون أحراراً.

فتحت باب المهاجرة على مداه فتدفق على البلاد ـ وهي تكاد تضيق بأهلها ـ سيل من يهود أوروبا من الثوار والمجرمين فكانوا سبباً للثورات والاضطرابات... جعلت اللغة العبرية لغة رسمية، على حين أنها لغة ميتة انقطع عهد الألسنة بها من أمد بعيد جداً. فإذا حاولوا إحياءها اليوم فلا هم ينزلون منها منزلة أهلها لأنها شرقية وقد أصبحوا غربيين، ولا هي تصلح لأن تزاحم اللغات الحية لأنها خالية من الشروط التي تلزم للحياة أهمها الجمال والسهولة والاتساع. فكان خيراً لهم أن يتواطأوا على استعمال لغة أخرى.

كانت إدارة المعارف في أيدي الوطنيين، فلم تلبث الحكومة أن انتزعتها منهم

فجعلت مديرها إنكليزياً واختارت أكثر العمال في الإدارة من الغرباء عن البلاد من غير أصحاب الكفاية والاختصاص وبعضهم ذو سمعة مشنوعة . . . سلحت اليهود وجردت العرب من السلاح . . . جعلت الوظائف العالية في اليهود. فمنهم المندوب السر هربرت صموئيل. وهم ينظرون إليه كملك إسرائيل، ومنهم رئيس العدلية المستر بنتويتش ومنهم رئيس دائرة التجارة والصناعة وغيرها. جعلت تسن لهم القوانين لمصلحتهم، من ذلك قانون الأراضي وقانون الإجارة وقانون منع الجرائم وغير ذلك . . . أعطت امتياز تنوير فلسطين بالكهرباء لروتنبرغ اليهودي ولم تبال باعتراض الوطنيين.

خلاصة هذا الدور الأول الذي مرت به فلسطين أن اليهود فهموا أنهم أصحاب البلاد، وأن العرب ليسوا إلا ضيوفاً لا حقوق سياسية لهم فيها. فإذا اختاروا البقاء في فلسطين ففي زمام اليهود، وليس لهم من الحقوق المدنية والدينية إلا ما لكل أجنبي دخيل في كل بلد.

رأي الشيخ سعيد الكرمي
في موضوع الخلافة الإسلامية

نشر في جريدة «الشرق العربي» الأردنية، عدد ٥٠ المؤرخ في ١٤ نيسان ١٩٢٤

إنني سررت جداً من تقرير سادتي الاعلام، عدم صحة بيعة عبد المجيد العثماني المخلوع قهراً أو المأسور الآن في غير بلاد الإسلام. وأظن ذلك لكون سلفه خلع بلا مسوغ شرعي وإن كانت بيعته ليست على وجهها الشرعي لعدم وجود شروط الأمامة فيه. ولكن بلغ العجب أقصاه مما قرروه من عقد مؤتمر إسلامي للمذاكرة في أمر الخلافة. وأعجب منه تأجيل عقده إلى سنة. أما فكرة عقد مؤتمر التي هي نبت جديد، فلمَ لم توجد إلى الآن؟ وكيف غفلوا عنها إن كانت من الدين حين خلع عبد العزيز ومراد، وبيعة عبد الحميد وخلعه وبيعة رشاد وموته وتولية وحيد وخلعه. أما كان الدين يأمر بها إذ ذاك؟ أو ما كان في الأمم العربية الإسلامية أحد من أهل الحل والعقد يحق أن يؤخذ رأيه في هذه المهمة؟ والآن وجد أو كان أمر الإمامة مناطاً بطلعت وجاويد وجاهد وجمعية الاتحاد؟ أو كانت الأمامة الكبرى إرثاً شرعياً لا حقّ لأحد التعرض له مع كونه كان يعطى للأخ مع وجود الولد، وكل هذا وسعكم السكوت عليه فما الذي نبهكم الآن إليه؟ أحينما رجع الحق المغصوب إلى أهله وأطلقت الألسن من عُقُلها تجاوزت الحد مع علمهم بأن من بويع بالإمامة أقل ما فيه بعد القرشية والاستقلال أنه يفهم كلام الله تعالى، ويعرف سنة رسوله، ويقيم الحدود الشرعية في بلاده، لا كمن لا يحسن أن يقرأ آية من القرآن قراءة صحيحة فضلاً عن فهم معناها فيا للعجب!

ثم كيف جاز لهم أن يؤخروا ذلك إلى سنة ويبقوا الوقت بلا إمام، الأمر الذي أجمعت الأئمة على عدم جوازه، وما حال صلاة الجمعة كل هذه المدة عندما يشترط لها إذن الإمام؟.

هذه أسئلة نطلب الجواب عنها طبق الشريعة الغراء لإزالة ما علق بالأذهان من الشبه بعد معرفة ما قاله الأئمة الأربعة وقرره أتباعهم في هذا الشأن.

وأظن أنه لا يصعب عليكم توجيه هذه الأسئلة إليكم فإن من خصائص هذه الأمة أن لا يوفر صغيرها كبيرها في شيء من أمور الدين، وكم من مرة رجع الفاروق إلى الحق وهو هو، فأرجوكم إماطة الشك بجواب شافٍ لا زلتم مرجعاً لإحقاق الحق والسلام عليكم.

٢٨ شعبان ١٣٤٢، ٣ نيسان ١٩٢٤

قاضي قضاة حكومة الشرق العربي

سعيد الكرمي

نموذج من ترجمة روحي الخالدي
قصيدة فيكتور هوكو «الدعاء للجميع»

مقتبسة من كتاب الخالدي، «فيكتور هوكو وعلم الأدب عند الافرنج والعرب» ٢١٣ - ٢١٨

يا بنتي قومي للصلاة. انظري قد عسعس الليل، ونزل الضباب على الأفق، وطلع النجم من وراء السحاب كأنه دينار. أنصتي لم يبق إلا مركبة تكر في الظلام على بعد. والكل دخل ليستريح. والشجرة التي على الطريق نفضت غبار النهار بريح المساء (وهي الدبور).

زحزح الشفق عن النجوم ستار الليل وفجر كل نجم كالشرارة الحامية. ورقق المغرب حاشيته الحمراء. وفضض الليل في الدجا وجه الماء. وامتزجت أقلام المحراث بالمسالك وبما حولها من الشوك. واختفى الجميع عن العيان. والتبست الطريق على ابن السبيل.

النهار للأذى والتعب والبغض. فلنشرع في الصلاة حيث دخل الليل.

أصفى الليل وما أوقره! الراعي يعود والماشية تجأر، والريح تعزف في نوافذ البرج، والمياه تركد في المستنقعات. والجميع يتألم ويشكو. لأن الطبيعة من شدة تعبها أمست في احتياج للنوم والصلاة والحب.

هذه الساعة هي التي يتكلم فيها الأولاد مع الملائكة. وأما نحن فنهرع فيها لملاهينا الغريبة. فجميع الأولاد الصغار يدعون في ان واحد بدعاء واحد. وهم

راكعون على الأرض وأعينهم شاخصة إلى السماء وأيديهم مضمومة وأرجلهم حافية. ويطلبون لنا الرحمة من الله تعالى.

ثم ينامون. وحينئذ تتناثر أحلامهم الذهبية في حندس الليل بعد أن تتولد من هوشات آخر النهار. فإذا رأت عن بعد أنفاسهم متصاعدة وشفاههم محمَّرة طارت إلى ناموسياتهم كما يطير النحل إلى الأزهار ورفرفت حولها.

فيا عجباً لنوم السرير! ويا عجباً لدعاء الصغار! فهو صوت حنو ورأفة لا عدوان فيه. وما أحلى هذا الدين الذي يقر العين ويضحك السن! هذا مطلع النشيد في ليلة السعود. فينيم الولد عقله الصغير في الدعاء كما يضع الطير رأسه تحت جناحه.

يا بنتي قومي للصلاة. وادعي أولاً وخاصة للتي هزت الليالي الطوال في سريرك. للتي التقطتك من عالم الذر وأنت نفس لطيفة ووضعتك في الدنيا وصارت لك أمًّا شفوقة وقسمت لأجلك نصيبها من هذه الحياة المرة إلى قسمين فشربت الحنظل واستقتك العسل.

ثم ادعي لي. فإني أحوج منها لدعائك لأنها مثلك صالحة، بسيطة، صادقة، قلبها صاف، ووجهها راض. شفقت على كثيرين ولم تحسد أحداً. عاقلة، حليمة، صابرة على غصص الحياة، متحملة للشر بدون أن تعرف فاعله.

طالما قطفت الزهور ويدها الطاهرة لم تمس قشر الشجرة المنهي عنها[1]. ولم تقع بالفخ مع ضحكة سنها. وتنسى دائماً كل سلف ومضى. ولا تعرف الأفكار الخبيثة التي تمر في الذهن كما يمر الظل على الماء.

تجهل ـ واجهلي مثلها دائماً ـ ما في هذا العالم من الشقاء الملوث للنفس، والحظوظ الكاذبة، والأباطيل الفانية، وكل ما عاقبته الندامة وتبكيت الضمير،

(١) قيل أن الأديب الماهر في الانتقاد الأدبي «سنت ريف» كان يغازل زوجة فيكتور هوكو ولذا حصل بينهما تقاطع وعداوة.

والشهوات التي ترغي على القلب كارغوة، وخواطر الخجل والمرارة الباعثة على احمرار الوجه.

أنا أخبر بالحياة ويمكنني أن أقول لك متى كبرت واقتضى تعليمك بأن الجري وراء السلطة والسعادة والتفنن هو جنون ودناءة. وبان كأس[1] الانتخابات تدور علينا وتسقينا الخزي بدلاً عن الفخار. وبأن الإنسان يخسر نفسه في لعب هذا القمار.

كلما عاشت النفس تعطشت. والأمور وإن شفت بدايتها عن نهايتها وظهرت أسبابها في عاقبتها فالإنسان مع ذلك يشيب على الرذيلة وعلى الضلال المنفور منه. من كثرة المشي يتيه الإنسان ويداخل عقله الشك. والكل يترك شيئاً على شوك الطريق التي سلكها فالغنم تترك صوفها والرجل يترك فضيلته.

قومي إذاً وادعي لي وقولي في مقام كل دعاء: «يا الله يا الله يا ربنا أنت أبونا فارحمنا انك أنت الرحيم. فارحمنا انك أنت العظيم». وادعي قولك يذهب إلى حيث ترسله نفسك. ولا تقلقي فلكل شيء طريق. فلا تقلقي على الطريق التي يذهب فيها.

لا شيء في هذه الدنيا إلا وله مجرى. فالنهر يجري متلوياً بين السهول حتى يصب في البحر والنحلة تعرف الزهرة التي فيها العسل. وكل طائر يطير ويقع دائماً على غرضه فالنسر يطير ويرتفع نحو الشمس. والعقاب يهبط على المقبرة والخطاف (السنونو) يطير في الربيع. والدعاء يصعد إلى السماء.

فإذا ارتفع صوتك إلى الله بالدعاء لي أكون كالعبد الذي يجلس في الوادي بعد أن حط حمله على حافة الطريق وأشعر بخفة نفسي لأن دعاءك يأخذ معه وهو صاعد جميع ما يثقل على عاتقي من الآلام والأوزار والخطايا.

قومي ادعي لأبيك. لاصير أهلاً لرؤية طيف ملك يمر في المنام كطير

(١) وهي كأس تجمع فيه الأصوات لانتخاب رئيس المجلس أو غيره.

الحمام. ولتشتعل نفسي مع اشتعال البخور. امحي خطاياي بنفسك الطاهرة ليصير قلبي معصوماً نقياً كأنه صحن الهيكل الذي يغسل في كل مساء.

المضحك المبكي

بقلم نزار أبو السعود

مقتبس من مجلة دار المعلمين، العدد السادس، آذار ١٩٢٢ السنة الثالثة.

سمرت ذات ليلة مع قوم تدرعوا العقل جلباباً وترديوا ثياب المروءة وورثوا الحكمة كابراً عن كابر فلما تساقط الدر من الأفواه والتقط كل منا حاجته وساد السكوت اشرأب من القوم رجل وقال ألا أحدثكم بحديث يطرد عنكم السآمة والملل فقلنا هات ما في جعبتك وأطلعنا على نكاتك فصمت ثم تنحنح وقال كنت أقطن بيتاً بوادي الجوز في القدس فنهضت من فراشي باكراً وبعد أن قضيت فريضة الصبح خرجت أطلب رزقاً قدره الله لي فلما جاوزت بئر المرصرص وتوسطت الطريق رأيت رجلاً جالساً على حافتها يناجي نفسه قائلاً اللهم ارزقني بأعمى القلوب مفتح العينين لا يعرف من الميزان إلا اسمه ومن الرطل إلا رسمه ومن الكلام إلا السلام فقلت يا لك من مناجاة لا يرضى عنها الله ولا بها العبد فما هي الأشباك لعين نصبت لجاهلين وما كدت أتم مقالي حتى رأيت حميراً مقبلة عليها أكياس فحم يسوقها بدويان وإذا بأحدهما يقول للآخر (أصلح العدل يا سالم فقد مال) فلما سمع الرجل المقال ضحك واستبشر وهز كتفيه فرحاً كأنه نال بغيته وتحلى بأمنيته ثم تراجع قليلاً وظهر أمامهما على حين فجأة كأنه أتى تلك الساعة وقال بعد أن تأمل بسالم قليلاً (عواف يا سالم، مرحباً يا سالم أين كنت وكيف حال والدك) كأنه يعرفه من عهد بعيد أو ربي وإياه فبهت البدوي وانقاد له انقيادة عمياء كأنه سحره فقلت سمسار ورب الكعبة ولطالما سمعت عن أعمال السماسرة ما أضحك الحزين وأبكى

الشفوق فلأتبعنهم من حيث أرى ولا أرى فما كان من السمسار إلا أن شغل زميل سالم بقطعة من الحلوى ووضعه في خان ينتظرهما وذهب سالم صحبة السمسار يقود الحمير حتى أتيا مكاناً خصصه السمسار له أفرغا فيه الفحم وذهبا بالحمير إلى الخان ووضعاها عند زميل سالم وقالا له انتظرنا حتى نعود بالثمن فلما أتيا السوق قال لسالم ألا تأكل شيئاً فما كان منه إلا أن أجابه لأن الجوع كان قد أخذ به كل مأخذ فدخلا مطعماً وقال للطاهي هات لسالم مما لذ وطاب فلما وضع الأكل أمامه طار عقله:

وكم من أكلة منعت أخـاهـا بلذة سـاعـة أكـلات دهـر
وكم من طـالـب يسعى لشيء وفيـه هلاكـه لـو كـان يـدري

فلما اشتغل سالم بالمضغ أوهمه السمسار أنه فرغ وقام ليغسل يديه فطرق باب ملص يملص ودخل في خبر كان في المطعم سمسار مع سالم. ولما فرغ البدوي من الأكل وحمد الله أراد الخروج فاعترضه الطاهي وطلب منه الثمن فقال له (ما أنطاك الرجل) فقال له كلا أنه لم يعطني شيئاً وأي رجل تعني فالداخل أكثر من الخارج وبعد المشاجرة انتهى الأمر على أن يرهن البدوي سيفه فرهنه وذهب إلى صديقه باكياً يلطم خديه ويمزق أثوابه حتى وافاه بالخان فقص عليه القصة وختمها بقوله: يا ليت سالماً خرج من المدينة سالماً وسيفه معه والله يا زميل من حين ما قال لي سالم عرفت ما أنا سالم. فطرك بالفحم وغداني بالسيف ما وجهه الا وجه شيطان.

دور اليقظة

بقلم درويش المقدادي

مقتبس من «تاريخ الأمة العربية»، مطبعة بغداد ١٩٣٢، ص ٤٩٢ - ٥٠٣

الجزيرة العربية منذ أيام نابليون حتى الحرب العظمى

ذكرنا في الباب الأخير ما أصاب الأمة العربية من النكبات بعد سقوط دولتهم الكبرى واضمحلال دولاتهم الصغرى ومنذ أوائل القرن التاسع عشر ظهرت بوادر النهضة في الوطن العربي الكبير بدرجات متفاوتة بالنسبة إلى علاقة الأقطار العربية بمراكز المدنية العصرية في الوقت الحاضر. فالأقطار الواقعة على الطرق التجارية تنبهت قبل غيرها فكانت مصر وما يجاورها من البلاد العربية في مقدمة الأقطار العربية الناهضة.

وفي الوقت الذي كان الجهل متغلباً على أهل مصر والشام والعراق وفي عهد المماليك الذين استبدوا وقضوا أيامهم في إرهاق الشعب بالضرائب الثقيلة وفي ذلك الزمن الذي كان يحرم فيه رجال الدين لبس «الفيز» ويقاومون كل حركة إصلاحية، في تلك الأوقات التي كانت السيادة فيها لأمراء الأقطاع وللعوام والمرابين وأصحاب التقليد والجمود من رجال الدين وغيرهم، في هذا الدور في سنة ١٨٩٩ ظهر أمام مرفأ الإسكندرية أسطول نابليون فدوت مدافعه وأنزل جنوده. وقابل جند المماليك في واقعة الأهرام. جنود نابليون بالبستهم الحديثة الخفيفة يحملون البنادق ومن ورائهم المدافع وقد أتوا ليحاربوا في سبيل إعلاء شأن فرنسا وإعزازها ونشر مبادىء

الثورة الإفرنسية وإعلان حقوق الإنسان حسب مزاعمهم ومن جهة أخرى جنود المماليك بسراويلهم الواسعة وسيوفهم اللامعة يحاربون لدوافع شتى. في هذا الموقف لمن تكون الغلبة؟ لقد كانت لأصحاب العلم الحديث المتشربين بالفكرة القومية الجبارة. فاز نابليون على جنود مصر مع أن هؤلاء لا يقلون شجاعة عن الإفرنسيين ولكنهم كانوا لا يزالون يتبعون أساليب القرن الخامس عشر: تقدم غيرهم وبقوا هم حيث كان أجدادهم. كانت حملة نابليون إلى مصر ذات أثر عظيم في نفوس القوم في مصر والشام أفهمتهم أن زمان عنترة العبسي قد ولى وأن السيف لا ينفع أمام المدفع. وأن في الدنيا طرقاً جديدة أصلح من طرقهم. نحن لا نريد أن نمدح نابليون وجنده فلقد كان نابليون نفسه أنانياً تظاهر بالإسلام ولبس العمامة وهو ناقم على جميع الأديان وأمر بإعدام الأسرى الذين سلموا له بعد سقوط يافا في فلسطين فإنه أمر بقتلهم على ساحل البحر ويرجح أن الجنود الإفرنسيين هم الذين حملوا معهم الأمراض الزهرية إلى الشرق. ومن جهة أخرى لهذه الحملة حسنات منها نشر الطباعة والأفكار الحرة والقضاء على سلطة المماليك وتدوين أخبار مصر في ذلك العصر بصورة علمية.

وفي السنة التي ولد فيها نابليون ولد محمد علي باشا الألباني الأصل الذي نجح في تولي مصر وتأسيس دولة منظمة لها جيش تغلب على جيوش الدولة العثمانية وكاد يقضي عليها لولا تدخل الحلفاء. وكان محمد علي باشا يريد إستمالة العنصر العربي حتى يعتمد عليه في محاربة الدولة التركية وكاد ينجح لولا أنه طمع في الإستيلاء على الأناضول وغيره من ولايات الدولة فخاف شره الأوربيون لئلا يؤسس دولة عربية متحدة تقوم مقام الدولة التركية المنحلة والتي كانت ألعوبة بأيديهم. إذن لمحمد علي باشا وغيره من ولاة مصر وخديويها يد في تنبه العرب. فهم الذين أرسلوا البعثات العلمية إلى أوروبا وهم الذين شجعوا|واستعملوا اللغة العربية ومما لا ريب فيه أن محمد علي باشا لم يكن يشعر بما نشعر به من الحس العربي القومي فهو ألباني أراد أن يقلد نابليون فسعى وعمل وفكر لمصلحته بالدرجة الأولى.

وفي زمن محمد علي باشا حدثت ثورة الوهابيين كما ذكرنا قبلاً. وكذلك نقول

هنا أن للوهابيين فضلاً على القضية العربية ولو أنهم كانوا من دعاة الفكرة الإسلامية قاموا ضد الأتراك باعتبار أنهم كفرة خارجون على الدين لذلك وجبت محاربتهم فأدى هذا إلى جمع فريق غير قليل من العرب تحت راية واحدة وتأسيس دولة عربية لسانها عربي. ولا ننسى أن الإسلام دين عربي وأن رجاله عرب ولغة القرآن عربية فمن أعز الإسلام أعز العرب كما أن «من أعز العرب أعز الإسلام».

ونذكر عاملاً دينياً آخر كان له تأثير في حفظ اللغة العربية وآدابها وهو أثر المدارس الدينية في تونس والقاهرة ودمشق وبغداد والنجف وكيف أن علماء الدين عن غير قصد حافظوا لنا على تراث قومي لا يستهان به وهو لغتنا القومية.

وننتقل الآن إلى ذكر المدارس والمعاهد الأجنبية في بلادنا وأثرها مع الإشارة إلى سيئاتها مثل تمهيد الطريق للمستعمرين واحتقار الثقافة القومية والتعلق بالأجانب وعاداتهم الحسنة والسيئة، ومع ذلك لا ينكر أن هذه المعاهد اطلعت بعض الناس على نهضة أوربا وعظمتها في ميادين العلم والصناعة والحرب فإن كثيرين من زعماء العرب تعلموا فيها وهي على درجات من حيث الفائدة والضرر بالنسبة إلى مطامع دولها. ومن معاهد المبشرين: مدارس اليسوعيين والرهبان من الدومينيكان والافرنسيسكان في القدس وبيروت والموصل وبغداد كان لها أثر عظيم في نشر الثقافة الافرنسية بين أبناء الموصل ولبنان وكانت الحكومة الإفرنسية تمدها بالأموال السرية فقد وافق مجلس النواب الإفرنسي على صرف ٨٠٠ ألف فرنك لمساعدة هذه المدارس. ومنها مدارس الأميركان وهي أقل ضرراً من غيرها لأن أميركا ما كانت تطمع في استعمار الشرق الأدنى ومع ذلك فأثرها ظاهر في تنشئة طلاب مشككين ماديين.

ومن عوامل تنبه العرب تأثرهم من الحركات القومية التي ظهرت في البلقان وغيرتهم لما شاهدوه من جمعية الأرمن وتعلقهم بالقومية الأرمنية واللسان الأرمني ونخص بالذكر شبان العرب وزعمائهم الذين عاشوا في استانبول واحتكوا برجال البلغار واليونان. وإننا نجد منهم رجالاً أحياء في بغداد يذكرون اختباراتهم وشدة تأثرهم من تضحية رجال البلغارية. وقع يوماً بيد الأتراك بضعة رجال بلغاريين

فطلبوا منهم أن يذكروا لهم مراكز العصابات فأبوا وأصروا وقتلوا فرحين ولما قتل رئيسهم قال: «إنكم تقتلون جسمي ولن تقتلوا الروح البلغارية». لا ريب أن هذه الحوادث وغيرها أثرت في نفوس العرب ودفعتهم إلى التشبه بالبلغار وأمثالهم من الأقليات الخاضعة للحكم العثماني.

ولا بد من ذكر رجال الأدب وأثرهم فإنهم يمثلون روح عصرهم ونظر الناس إلى الأتراك والفرس مثلاً الذين كانوا يطمعون بالعراق ويريدون إذلال أهله والقضاء على الروح العربية فيه: فاسمع ما قاله أحد شعراء العراق عبد الحميد الشاوي الحميري المتوفى سنة ١٣١٦ هـ فإنه كان في نجد فحن إلى بغداد وتذكر أهلها وما هم عليه فقال:

تذكرت بغداد بعد الهدوء   ونحن بنجد وقيعانها
ففيم الإقامة في بلدة   تناكرنا بعد عرفانها
كأن لم يكن عن حماها الجيو   ش ناكصة نحو إيرانها

وقال أبوه أحمد بن عبد الحميد الشاوي المتوفى سنة ١٣١٧ هـ. يذكر الأتراك.

وأبرد من صهب العثانين غلتي   واشفي واستشفي بسيفي من الترك(١)

كما أن العالم الشهير محمود شكري الآلوسي ألف كتاب «بلوغ الأدب في أحوال العرب» وأبان فضل العرب ومكارم أخلاقهم وسمو طباعهم وأثبت فضلهم وأظهر تعصباً لقومه مما يدلنا على وجود فئة من الناس كانت تتعصب للعروبة فمهدت الطريق للأبناء الذين نظموا الحركة فيما بعد. ومن الأدباء الذين ظهروا في القرن التاسع عشر والعشرين والذين كان لهم تأثير غير مباشر في يقظة الناطقين بالضاد: البستاني واليازجي والأسير وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد باش حمبه ويعقوب صروف وجرجي زيدان.

وكان في مقدمة الدعاة إلى الفكرة العربية عبد الرحمن الكواكبي الحلبي أراد

(١) تاريخ الأدب العربي للأستاذ محمد بهجة الأثري ص ١٤٧.

نقل الخلافة من الترك إلى العرب وأخذ يطوف البلدان العربية للدرس والإطلاع على أحوالها وألف كتابه المشهور «أم القرى» دعا فيه العرب إلى تأليف الجمعيات السرية لتحقيق فكرتهم القومية ومن أقواله(١).

«ينازعني والله الشعور: هل موقفي هذا في جمع حي أحييه بالسلام، أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة. يا قوم! لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين. إلى متى هذا النوم؟ أيها العرب المسلمون أدعوكم إلى تناسي الأحقاد وأجلكم عن أن تهتدوا إلى وسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون».

وقال الشيخ يوسف النبهاني:

ويممت دار الملك أحسب أنها   إلى اليوم لم تبرح إلى المجد سلماً
وألفيت فيها أمة عربية   يرى القوم منها أمة الزنج أكرما

وقال الشيخ إبراهيم اليازجي:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب   فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
الله أكبر ما هذا المنام فقد   شكاكم المهد واشتاقتكم الترب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم   تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
أقداركم في عيون الترك نازلة   وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

وفي سنة ١٩٠٨ أعلن الدستور العثماني ونشطت جمعية الاتحاد والترقي إلى العمل في سبيل إحياء القومية التركية واتباع خطة تتريك رعايا الدولة العثمانية وأسست لها فروعاً في الولايات وشجعت الجمعيات التركية الأخرى التي كانت تعمل للغاية نفسها مثل جمعية «البيت التركي» وجمعية «طوران الجديدة». وخلع عبد الحميد ذلك السلطان الذي أرهب شعبه ونكل بالاحرار وشردهم وجعلهم طعمة

(١) القضية العربية للأستاذ أحمد عزة الأعظمي ١: ٣٩.

لأسماك البوسفور وبسقوطه ضعفت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وقامت عناصر الدولة تعزز كيانها وتدافع عن تقاليدها وشعر أبناء العرب في الآستانة أنهم غرباء وأن الأتراك يختلفون عنهم في الغاية واللغة والتقاليد ولو اتفقوا معهم في الدين. وصاروا يسمعون كل يوم النغمة التركية فقاموا يدافعون عن أنفسهم ويتعصبون لقوميتهم.

وصار دعاة القومية التركية يكتبون في جرائدهم: «ما هذا الجهل ؟ وما هذه الغفلة التي استولت عليكم أيها الناس؟ تعلقون أسماء خلفاء العرب على جدران جوامعكم وتتركون أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث التركية. . . تقدسون الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ البدوي، والشيخ الفلاني. وتدعون أن الله وملائكته حتى الموكلين منهم بعذاب القبر منكر ونكير يتكلمون باللغة العربية».

هذه الروح التي تجلت في شبان الترك جعلت أبناء العرب في الآستانة يفكرون بأمرهم ويلتفون حول زعمائهم ونوابهم فألفوا جمعيات قومية أشهرها:

المنتدى الأدبي: جمعية أدبية في الظاهر سياسية في الباطن كانت غايتها بث الفكرة العربية بين شبان العرب وطلابهم لا سيما أولئك الذين كانوا يدرسون في الآستانة. وكان أعضاؤها من مختلف الأقطار العربية منهم اليماني والعراقي والشامي والفلسطيني والحجازي والطرابلسي كلهم يدعون إلى الوحدة العربية وتوحيد أقطارهم كي يكون لها كيان سياسي مستقل أو كيلا يعتدي الأتراك على حقوقها. وفي نادي هذه الجمعية كانت تلقى الخطب والقصائد الحماسية وهنا كان يفكر شبان العرب بمصير بلادهم وهنا سمعوا الرصافي يقول:

يا أيها العرب هبوا من رقادكم   فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر
كيف النجاح وأنتم لا اتفاق لكم   والعود ليس له صوت بلا وتر

وهنا سمعوا الياس طعمة ينشد:

صليل الظبى وصرير القلم   لفك القيود وشق الظلم
سأبكي على مجد أجدادنا   فعند البكاء يخف الألم

وأبقى) أذكر أبناءهم   فقد هيج الشوق ذكر الأمم
سلام على العرب الخالدين   سلام العلى وسلام الكرم
وأني لأقرأ تاريخهم   وقد كتبوه بحبر ودم
بني أم هل من نهوض لنا   وهل من هيام بتلك الشيم
وهل من رجوع إلى عزنا   فبين عظام العظم عظم
لقد فقد العرب أخلاقهم   فسادت عليهم جموع العجم
فقل يا أخي العربيّ إذا   مشيت معي قدماً لقدم
أحب الجمال أحب الشباب   أحب الضياء أحب النغم
أحب الجياد أحب السيوف   أحب النفير أحب العلم
أحب بلادي وأصبو إلى   هدير المياه وثلج القمم
سأبرز مع أخوتي للجهاد   فنأخذ بالثأر ممن ظلم
إذا انكسر السيف في راحتي   لقد بقيت في الضلوع الهمم

هذه الجمعية التي أوقدت نار الوطنية في نفوس شبان العرب وهي التي دفعتهم إلى المغامرات في سبيل تحرير أمتهم. وكان رئيس هذه الجمعية الشهيد العربي عبد الكريم الخليل الذي شنق في أثناء الحرب فمات وهو يقول:

«لا بد من ضحايا للاستقلال. وإني أفتخر بإراقة دمي فى سبيل وطني المقدس الا فليسقط الغاصب وليحي الوطن». وكان أعضاء المنتدى متصلين بنواب العرب يحثونهم على المطالبة بحقوق البلاد العربية. والحقيقة أن المنتدى كان صورة ظاهرية لجمعية سرية اسمها جمعية «الشبيبة العربية» وأعضاؤها يسيطرون على أعمال المنتدى ويفادون أكثر من غيرهم في سبيل القضية.

جمعيات أخرى: منها الجمعية القحطانية وكانت سرية وقيل أن عزيز علي وعبدالحميد الزهراوي وسليم الجزائري كانوا من أعضائها.

ومنها جمعية العلم الأخضر أسسها داود الدبوني (الموصل) وفايق شاكر (بغداد) وعبد الغفور البدري (بغداد) وعاصم بسيسو (غزة) وشكري غوشه (القدس) وقد أصدرت هذه الجمعية مجلة (لسان العرب) وجعلت إدارتها وتحريرها بيد أحد

أعضائها أحمد عزة الأعظمي. ثم صارت هذه المجلة لسان حال المنتدى الأدبي[1].

وكان في مصر جماعة من رجال العرب أسسوا حزباً عربياً يدعو إلى اللامركزية في إدارة الولايات العربية ضمن الأمبراطورية العثمانية ومن رجال هذا الحزب ومؤسسيه رفيق العظم وشبلي شميل ومحمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وغيرهم.

ولما أصبحت الدولة العثمانية بأيدي رجال جمعية الاتحاد والترقي وصارت ترمي إلى تتريك العناصر غير التركية فكر زعماء العرب في وضع خطة منظمة للدفاع عن حقوقهم وقضيتهم فعقدوا مؤتمراً في باريس في ١٨ حزيران سنة ١٩١٣ دام خمسة أيام وحضره مندوبون عن البلدان والأحزاب العربية منهم عبد الحميد الزهراوي واسكندر عمون (حزب اللامركزية في مصر) وسليم علي سلام وأحمد طبارة (بيروت) وعبد الكريم الخليل (من شبان العرب في الآستانة) وتوفيق السويدي (العراق) وحضره عوني عبد الهادي (فلسطين) وشارل دباس (لبنان) وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني وشكري غانم. ومن مقررات هذا المؤتمر إنشاء إدارة لا مركزية في كل ولاية عربية واعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية وقد اندس في هذا المؤتمر رجال ثبت أنهم من دعاة الاستعمار ومن ممهدي الطريق للدول الأوروبية التي احتلت البلاد بعد الحرب.

وقبيل الحرب تأسست جمعيات مختلفة في أنحاء البلاد العربية منها جمعية العهد المشهورة التي لعبت دورها في أثناء الحرب الكبرى وبعدها في دمشق والموصل وبغداد. وكان في لبنان جمعيات غايتها محلية أرادت الإستعانة بفرنسا حباً بها كي تحتل لبنان وتبقى فيه.

وكان ينقص هذه الجمعيات مورد مالي ثابت وتنظيمات متينة وخبرة في شؤون السياسة. ولم يكن لهذه التشكيلات ميزانية ولم تقم بدعاية واسعة. ومن المنتظر أن يكون حالها كذلك لأن رجالها لم يقوموا بمثل هذه الأعمال من قبل.

---

(١) القضية العربية ٣: ٢٨.

ولو أن الحرب الكبرى تأخرت لتمكن العرب من توحيد كلمتهم ونشر دعوتهم فقد أخذوا يخابرون أمراء العرب كي يلتفوا حولهم ويعلنوا ثورتهم ضد الأتراك. فأوفد المنتدى الأدبي (أحمد المجاهد) اليماني إلى اليمن وأرسل معه رسالة إلى الأمام يحيى ثم رجع أحمد ومعه جواب من الأمام يعد بأنه عامل على أحياء مجد العرب. وكان الاتحاديون في هذه الأثناء يبذلون جهودهم لخلع إمام اليمن وتولية غيره من مواليهم. فتمكن أحمد المجاهد من التدخل في الأمر ومن التجسس على الأتراك واستطلاع خططهم لأنه كان ضابطاً في الجيش فعرف خطتهم واطلع الإمام على أمرهم بواسطة عبد الكريم الخليل فتحذر ونجا من جيوش الأتراك. كذلك كان شبان العرب يحاولون الاتصال مع ابن السعود وأشراف الحجاز.

وقطع العرب أملهم من الدولة العثمانية بعد أن حاربها الطليان واحتلوا سواحل طرابلس الغرب وتحققوا أن دول أوربا عازمة على تجزئتها وهاكم مقتطفات من مناشير الجيش الطلياني التي وزعها على أهل طرابلس الغرب:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي محمد والمرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين ـ بأمر ملك إيطاليا المعظم عمانوئيل الثالث نصره الله وزاد مجده. أنا الجنرال كارلوس كانيفا قائد العساكر الطليانية الموكل إليها محو الحكومة التركية في طرابلس وبرقة... أعلن للشعوب جميعهم أن العساكر الخاضعة لأمري لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا حماه الله لإضعاف واستعباد طرابلس وبرقة والفيزان بل لتعيد إليهم حقوقهم وتقتص من المعتدين وتجعلهم أحراراً يحكمون أنفسهم. واعلموا أن ستبقى الشرائع الدينية والمدنية محترمة. ويجب أن يكون ذلك مطابقاً للشريعة الغراء والسنة المحمدية السمحاء. واعلموا جيداً أنه لا تؤخذ منكم ضرائب تصرف خارجاً عن بلادكم. وأنه لا يدعى أحد منكم للخدمة العسكرية. فيا سكان طرابلس وبرقة اذكروا أن الله قد قال في كتابه العزيز: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير». فإرادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يريد فهو مالك الملك وهو على كل شيء قدير شوال سنة ١٣٧٦ هـ.

وحدثت حروب البلقان فكادت تقضي على الدولة العثمانية وجاءت الحرب الكبرى والعرب لم يستعدوا لاغتنام الفرصة: ابن السعود عدو ابن الرشيد واليمن منقطعة عن سائر العالم العربي والغزو مستمر بين القبائل في أطراف الشام وأهل طرابلس مشغولون بحرب الطليان وأمراء العرب في الخليج في نزاع يزيد الأجنبي في تفريقهم. وجمعيات الشبان قليلة لم تنتشر فكرتها بعد والقوم لا علم لهم بالقومية العربية ويعتقدون أن الخروج على الخليفة حرام وأن الترك إخواننا ولو أن رجالهم كانوا يقولون «بيس عرب» وعندهم المبدأ التركي فوق كل شيء. في هذه الظروف أعلنت الحرب العظمى فماذا يفعل العرب؟ هل يتابعون الترك ويبقون مخلصين للدولة العثمانية ولو أن زوالها قد ثبت أم يلتفتون إلى الحلفاء لعلهم يستفيدون منهم وقد وعدوهم المواعيد الحلوة وأعطوهم المواثيق الغليظة!!

نترك الجواب للحوادث في الفصل الآتي.

تعليم النساء

بقلم خليل طوطح

مقتبس من كتاب «التربية عند العرب»، المطبعة العصرية، القدس (ص ٦٦ - ٧٢).

جاء في كتاب البيان والتبيين الوصيَّة الآتية: «لا تعلّموا بناتكم الكتاب (أي الكتابة) ولا ترووهن الشعر، وعلّموهن القرآن ومن القرآن سورة النور». وقال ابن بسَّام «ولا يُعلّم الخط لامرأة ولا لجارية لأن ذلك مما يزيد المرأة شراً. وقد قيل ان المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سماً»[1].

ومما يروى من الحديث عن عائشة أم المؤمنين أنه يجب أن يمنع النساء عن تعلّم الكتابة ويُكتَفى بتعليمهن سورة النور وصناعة الغزل. ويظهر مما سيأتي أن هذه الوصايا وهذه الآراء لم تحفظ ولم تُطبَّق، إذ ضرب بعض النساء بسهم كبير من العلم والتربية منذ نشوء الإسلام إلى وقتنا هذا. قال البلاذري في كتاب **فتوح البلدان** «ان النبي قال للشفَّاء بنت عبدالله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ألا تعلّمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة؟» وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية. وقد ذكر البلاذري أيضاً أن «حفصة زوج النبي كانت تكتب. وكذا كانت أم كلثوم بنت عقبة تكتب. وقالت عائشة بنت سعد علمني أبي الكتاب». وروى البلاذري أيضاً «حدثني أبو الوليد عن الواقدي عن موسى بن يعقوب عن عمته عن أمها كريمة بنت المقداد أنها كانت تكتب». وكانت عائشة تقرأ المصحف ولا تكتب. وأم سلمة أيضاً كانت تقرأ ولا تكتب . فيستنتج أن النساء اللواتي كنَّ يقرأن أو يكتبن في

---

(١) البيان والتبيين ٢: ٩٢.

صدر الإسلام كنَّ: الشفاء وحفصة وأم كلثوم وعائشة بنت سعد وكريمة بنت المقداد وعائشة وأم سلمة ـ أي سبع نساء[٢]. وهكذا يقرب عدد اللواتي كنَّ يكتبن من نصف عدد الذين كانوا يكتبون عند ظهور الإسلام. إذ يذكر البلاذري أنه «دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب»[٣]. وكان منهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفّان وأبو عبيدة وطلحة ويزيد بن أبي سفيان وأبو حذيفة ومعاوية. هذا ومع أن بعض النظريات كانت لا تشجع تعليم البنات كما مرَّ، فيكفي المسلمين فعل النبي لما أظهر رغبته في تعليم النساء القراءة والكتابة. وقد قال أيضاً طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. والأمثلة كثيرة على النساء العربيات المسلمات اللواتي تعلّمن القراءة والكتابة والنحو وروين الحديث. وزد على ذلك أنهن لم يتعلمن فقط بل علّمن غيرهن. وكان ممن درس على النساء بعض الرجال أيضاً كما سنرى. وللبيان إليك أسماء النساء اللواتي ورد لهن ذكر في كتاب «تهذيب الأسماء» للنووي:

١ ـ أسماء بنت أبي بكر الصديق أخت عائشة لأبيها وأم عبدالله بن الزبير. والكل يعرف احترام عبدالله بن الزبير لأمه أسماء، وكيف أنه استشارها في العمل حينما تغلب عليه الحجّاج. وكلنا يذكر قولها لابنها: «يا بني عش كريماً ومت كريماً». وأما نصيب هذه المرأة الفاضلة من الأدب فيظهر من أنه روي لها ستة وخمسون حديثاً عن رسول الله[٤]. ويقال أن أسماء شهدت غزوة اليرموك مع زوجها الزبير، وأنها كانت شديدة البأس وذكية وبلغت المئة من العمر ولم تسقط لها سنٌّ، ولم تضعف قواها العقلية.

٢ ـ عائشة وليس بنا حاجة إلى الإفاضة في بيان ذكائها، فإنها سمّيت بأم المؤمنين، وكانت تعرف الكتابة، ونالت احترام النبي وثقته حتى أنه أمر الناس أن يأخذوا نصف دينهم عنها. ويذكر النووي أنه روي لها عن رسول الله ألف حديث[٥].

(٢) كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة [مخطوطة ـ راجع مجلة المشرق ١٠ : ٩٦١].
(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٧٧.
(٤) تهذيب الأسماء للنووي ص ٨٢٣ [طبع ليدن].
(٥) تهذيب الأسماء للنووي ص٨٤٩.

٣ـ أم الدرداء وهي جديرة بالذكر إذ كانت زاهدة فقيهة يمكن القارىء الوقوف على ذوقها الأدبي وتلذذها العقلي من قولها: «لقد طلبت العبادة في كل شيء، فما أصبت لنفسي شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم». ويصفها النووي بقوله: «اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم والجلالة». وعاشت هذه السيدة العربية في أيام معاوية، وكانت تقيم ستة أشهر ببيت المقدس وستة أشهر بدمشق.

٤ ـ علية بنت المهدي. قيل عنها انها «كانت من أحسن النسا وأظرفهم، تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة... وكانت لا تغنّي ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب. فلا تلتذ بشيء غير قول الشعر»[٦].

٥ ـ نضار بنت أبي حيّان. قال المقري ان هذه السيدة «حجّت وسمعت قراءة العلم على بعض الشيوخ... وحضرت على الدمياطي وسمعت على جماعة. وأجازها من المغرب أبو جعفر... وحفظت مقدمته في النحو. ولما توفيت وضع والدها فيها كتاباً سمّاه (النضار في المسلاة عن نضار). وكان والدها يثني عليها كثيراً. وكانت تكتب وتقرأ. ذكر الصفدي قال لي والدها انها كانت تعرب جيداً وأظنه قال لي انها تنظم الشعر. وكان يقول دائماً ليت أخاها حيّان كان مثلها»[٧].

٦ ـ فضل المدنية. كانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال، وأصلها لإحدى بنات هرون الرشيد. نشأت وتعلمت ببغداد[٨].

٧ ـ قمر، جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب أشبيلية. كانت من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان. وجمعت أدباً وظرفاً ورواية وحفظا مع فهم بارع وجمال رائع. وكانت تقول الشعر[٩].

(٦) الأغاني ٩: ٧٩.
(٧) نفح الطيب ١ :٦٠٣.
(٨) نفح الطيب ٢ :١١٨.
(٩) نفح الطيب ٢ : ١١٨.

٨ ـ ولادة المروانية. وصلت هذه السيدة براعة ولباقة إلى حد مداعبة الوزير ابن زيدون بأبيات من الشعر.

٩ ـ حسانة التميمية. تأدبت وتعلمت الشعر... ولما وقف الحاكم على شعرها استحسنه وأمر بإجراء مرتب لها.

البنات والمكتب

لقد جئنا بأسماء بعض النساء العربيات اللواتي بلغنَ درجة من العلم والأدب. وبقي أن نقول كلمة في الوسائط التي وجدت لتعليمهن. أما هذه فكانت التعليم الخصوصي على مدرّسين خصوصيين، وفي مكاتب خصوصية. ومما يذكر في كتاب الأغاني تردد البنات إلى المكتب في القرن الثاني للهجرة. وإليك ما رواه الأصفهاني: «كان بالكوفة رجل يقال له علي بن آدم وكان يهوى جارية... وحدَّثني بعض أهل الكوفة أنه علقها وهي صبية تختلف إلى الكتّاب. فكان يجيء إلى ذلك المؤدب فيجلس عنده لينظر إليها»[١٠]. وقيل أيضاً عنه انه «مرَّ بمكتب في بني عبس بالكوفة فرأى فيه جارية»[١١] وقيل ان خليلاً المعلم الملقب بخليلين «كان يؤدب الصبيان ويعلم الجواري الغناء في موضع واحد»[١٢] وذكر الجاحظ أن «الوليد بن عبد الملك مرَّ بمعلم صبيان فرأى جارية تتعلم القرآن»[١٣] فمن هذا يظهر أن الفتيات ذهبن للتعلم في المكتب، وفي بعض الأحيان تعلمنَ مع الفتيان كما هو معروف اليوم في بعض الأماكن. فإننا رأينا في القاهرة أحد المكاتب محتوياً على الصبيان والبنات معاً.

النساء والتدريس

إن هذا القرن لهو عصر النساء، إذ نراهن يزاحمن الرجال على الأشغال والمهن

(١٠) الأغاني ١٤ : ٤٩.
(١١) الأغاني ١٤ : ٤٩.
(١٢) الأغاني ٢١ : ٤٨.
(١٣) البيان والتبيين ٢ : ١٠٦.

مثل التعليم والطب والمحاماة. ومن الغريب أن بعض عرب اليوم يستنكرون مخالطة النساء للرجال ولا يحبّذون اتخاذهن أعمالهم. ويظهر مما سيأتي أن عدداً من النساء العربيات احترفن التدريس فعلمن الرجال وأجزن لهم، كما فعلن ببنات جنسهن وإليك أسماء بعضهن:

١ ـ أم المؤيد زينب. يقول ابن خلكان إنها كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وإجازة. وأجاز لها الحافظ أبو الحسن. ولنا منها إجازة[١٤].

٢ ـ فخر النساء شهدة. كانت من العلماء وكتبت الخط الجيّد وسمع عليها خلق كثير. وكان لها السماع العالي الحقت فيه الأصاغر بالأكابر... واشتهر ذكرها وبعد صيتها[١٥].

٣ ـ السيدة نفيسة ابنة أبي محمد. كانت من النساء الصالحات التقيات. وقد روي أن الإمام الشافعي لما دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث[١٦].

ويعترف أبو حيَّان بأنه كان بين شيوخه ثلاث نساء وهنَّ:

٤ ـ مؤنسة بنت الملك العادل.

٥ ـ شامية بنت الحافظ.

٦ ـ زينب بنت عبد اللطيف[١٧].

٧ ـ شهدة الكاتبة بنت الأبري. قرأ عليها عبد الرحمن بن داود صحيح البخاري[١٨].

٨ ـ العروضية. سكنت في بلنسية وأخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقته في

(١٤) ابن خلكان ١ : ٢٤٧.
(١٥) ابن خلكان ١ : ٢٨٣.
(١٦) ابن خلكان ٢ : ٢٢٤.
(١٧) نفح الطيب ١ : ٥٩٨.
(١٨) نفح الطيب : ٢ : ١١٧.

ذلك. وبرعت في العروض. وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالي وتشرحها. قال أبو داود سليمان «قرأت عليها الكتابين وأخذت عنها العروض»[19].

٩ ـ مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري. سكنت في أشبيلية وقيل أنها كانت أديبة شاعرة مشهورة... وكانت تعلم النساء الأدب[20].

هذه بعض الأمثلة التي ربما أظهرت ممارسة النساء العربيات لفنّ التعليم وكفايتهن للمهنة. هذا ولم يكن عدد المدرّسات مقصوراً على ما ذكرناه، فقد روى ياقوت أن شيوخ علي بن الحسن بن عساكر بلغ عددهم ألفاً وثلاثمئة. ومن النساء بضع وثمانون[21].

وصفوة القول **ان التربية عند العرب لم تنحصر في الرجال بل شملت النساء** أيضاً، حتى انه اشتهر عدد من العربيات بالذكاء وتوقد القريحة مثل الخنساء وعائشة وأسماء وغيرهن. ولما ظهر الإسلام وأخذت القراءة والكتابة في الانتشار تعلمها بعض النساء كما فعل الرجال. ولما فتحت المكاتب والمدارس وانتشر العلم، كان للنساء نصيب من ذلك، إذ جاء ذكر للبنات في المكاتب. وهذا وقد جئنا بالأدلّة على تعاطي النساء الأعمال الأدبية مثل الكتابة والإنشاء ورواية الحديث وقول الشعر والتعليم. ولو لم يفتخر العرب بذكاء نسائهم في العراق والشام ومصر والأندلس، لما ذكروا أنهن أجزن لهم وألقين عليهم الدروس. ولا نعني بما جئنا به عن تعليم النساء أن العلم كان منتشراً بينهن كما هو اليوم منتشر بين نساء الغرب، ولا أن عدد المتعلمات كان يضاهي عدد المتعلمين عند العرب غير أن ما وقفنا عليه يجيز لنا القول أنه كان لنساء العرب وسائط لتلقي العلم. ومما هو جدير بالذكر أن عدداً كبيراً منهن انتهزن الفرصة وانتفعن من تلك الوسائط. وقد لا نخطىء إذا أسرفنا بالزعم وقلنا انه إذا قابلنا نساء العرب بنساء الإفرنج في القرون الوسطى، وجدنا

(١٩) نفح الطيب ٢ : ٤٣٠.
(٢٠) نفح الطيب ٢ : ٤٩٣.
(٢١) معجم الأدباء ٥ : ١٤٠.

حالة العربيات الأدبية في درجة أرقى من حالة أخواتهن الإفرنجيات. ومن أظرف ما وجدناه عن النساء والأدب ما قاله صاحب الأغاني ان أبا دهبل كان يهوى امرأة من قومه يقال لها عمرة. وكانت امرأة جزلة يجتمع الرجال عندها لانشاد الشعر والمحادثة.[22] ومما يذكر عن جوارٍ اشتراهن هشام بن عبد الملك أنه لما استنطقهن «رأى فصاحة وأدباً فاستقرأهن القرآن فقرأنه، واستنشدهن الشعر فأنشدته قصائد الكميت»[23].

والأستاذ المستشرق برون (E.G. Browne) الذي كان في جامعة كامبردج يروي قصة عن إحدى جواري هرون الرشيد ربما أظهرت حالة النساء من حيث التعليم. وهي أنه قُدّم لهرون الرشيد جارية ثمنها عشرة آلاف دينار، فدفع الخليفة الثمن المطلوب بشرط أن تؤدي الجارية امتحاناً في بعض العلوم. فامتحنت في الفقه والتفسير والطب والفلك والعلوم اللغوية والشطرنج. ولم تكتفِ الجارية بالإجابة على الأسئلة بل طرحت هي الأسئلة على ممتحنيها، فعجزوا عن الإجابة[24]. ومهما كان في هذه الرواية من المبالغة، فلا شك أن الجواري حصلن على الوسائط للتعلم والوقوف على شيء من الأدب العربي.

وعلى كل حال فمما لا ريب فيه أن النهضة العربية الحاضرة لن تنضج ولن تثمر ولن تصل إلى أوج مجدها، إن لم يكن للعربيات النصيب الأوفر في مؤازرتها ونشرها. فكما أن العرب الأقدمين فتحوا المجال لنسائهم كي يساعدنهم في حركتهم الأدبية، فلا شك أن عرب اليوم مضطرون إلى أن يفتحوا لهنَّ المجال في هذا العصر الذي لا يمكن أن تقوم لهم فيه قائمة بلا مجهود المرأة وسعيها وقريحتها وعطفها.

(٢٢) الأغاني ٦ : ١٦٠.
(٢٣) الأغاني ١٥ : ١١٢.
(٢٤) Arabian Medicine: E.G. Browne P. 31.

قدوة الشرق وعوامل رقينا

بقلم نقولا زيادة

مقتبس عن مجلة «دار المعلمين»، العدد ٢، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٢.

لقد رقد الشرق زمناً طويلاً، وفيما هو نائم يتلذذ بأحلامه سمع صوتاً مزعجاً أيقظه فتململ يريد النهوض، لكنه رأى نفسه بين عاملين ـ النهوض والنوم. وأخيراً غلب الأول الثاني وما كاد يفتح عينيه حتى رأى الغرب وقد سطع نوره، أما هو (الشرق) فليس فيه إلَّا شعلة ضئيلة تتخلل أشعتها دياجي ظلماته. فقام حالاً كالأسد من مربضه وقال ـ لقد سبقني الغرب مراحل عديدة فعليّ أن أجد كي أدركه. فأين قدوتي التي أتتبع مناهجها؟ أين مرشدي ودليلي؟ فإلى الشرق والشرقي أقول: لك قدوتان عظيمتان فاختر أياً شئت منهما. أما الأولى فهي:

ألمانيا في الغرب: شعرت ألمانيا قبل الحرب بزمن قصير أنها تحتاج إلى توحيد قوميتها وجنسيتها فقام رجلان من الخاصة (غليوم الثاني وادلبرت فالك) وجعلا همهما الوحيد إصلاح بلادهما (ألمانيا) ورأيا أن بث الروح الوطنية في صغار الألمانيين يوصلهما إلى قصدهما فعقدا النية على أن يبثا الروح الوطنية في المعلمين على اختلاف طبقاتهم وهؤلاء يغرسونها في أفئدة صغارهم ـ فكان الرجل أو المرأة لا يخرج إلى مدرسة العالم الكبرى إلا وقد وضع نصب عينيه إعلاء شأن ألمانيا في العالم المتمدن. وقد ساعد ألمانيا شيء آخر في رقيها وهو ـ النظام.

القدوة الثانية ـ اليابان في الشرق. ظهر في الشرق الأقصى اليوم دولة عظيمة كانت قبل قرن أو أقل أمة متوحشة تتسكع في ظلمة الجهل وتغشاها الهمجية.

واليوم تبعث للشرق أنواراً ساطعة وحياة تدب في عروق كل شرقي. كان لها في أواخر القرن التاسع عشر سفن صغيرة للقرصان لكنها اليوم ثالثة دول العالم في الأسطول البحري.

بلغت هذه الدرجة في الرقي لأنها أرسلت تلامذتها إلى أوربا حيث تعلموا العلوم الحديثة والصناعات الراقية ورجعوا إلى بلادهم فبثوا فيها ما اقتبسوه من هناك فكان لهم الفضل الأكبر في رقيّ البلاد. وفي اليابانيين سجية ساعدتهم في رقيهم هي الصبر.

الخلاصة:

ارتقت ألمانيا بشيئين عجيبين ـ هما المعلمون والنظام وارتقت اليابان بتلامذتها المجدين وبالصبر.

عوامل رقينا

قال بنيامين كد ـ الكاتب الاجتماعي الكبير ـ من الخطإ أن نعتقد أن ارتقاء الشعوب يستغرق الأحقاب الطويلة. والحقيقة هي أن العامل قد يتحول تحولاً عظيماً في زمن قصير، فإن العوامل التي من شأنها إحداث هذه التطورات هي في العالم ويمكن مراقبتها كل يوم.

فلا يخطرنَّ على بالنا أننا لا نرتقي إلَّا في أزمان طويلة فإنه قد يكفي لرقينا زمن قصير. أما أهم عوامل الرقي في بلادنا فهي:

١ ـ الفلاحة والزراعة. تحتاج الزراعة إلى ثلاث مواد أولية مهمة (١) الأرض الخصبة (٢) الفلاح (٣) الآلات الزراعية. ونحن قد توفرت عندنا (في فلسطين) الأراضي الخصبة الواسعة، وفلاحنا يشعر برغبة زائدة وميل طبيعي للزراعة وحرث الأرض. بقي علينا أن نستبدل الآلات الموجودة عندنا بالآلات الحديثة فعندها يتم ما نحتاج، وإذا أتقنا زراعتنا فإن مواردها تكفي لجمع المال اللازم لنا.

٢ ـ التعاون والتعاضد. قيل (ان التعاضد من ارتقاء الجمهور بمثابة الاعتماد على النفس من ارتقاء الفرد) فالتعاون يرقي الأمم ونحن لن ننجح ما دام الشقاق يملك قسماً كبيراً من بلادنا.

٣ ـ تعليم المرأة. سرت عندنا عادة وهي أن تعلم البنت حرام، ولم يحرم دين من الأديان تعليمها. المرأة مهد الرقي ومعهد الفضل، وأستاذ الجميع فإن لم تكن مهذبة لا خير يرجى لبلادنا. قال شاعرنا الرصافي

ولم أرَ للخلائق من محل	يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت	بتربية البنين أو البنات
فكيف نظنّ بالأبناء خيراً	إذ نشأوا بحضن الجاهلات

٤ ـ الجد والعمل والصبر. العمل من أهم دواعي النجاح. قال ديكارت (اعمل كلما سنحت لك الفرص، وبكل طاقتك وبأوفر ما يتيسر لك من الحكمة والتدبير) ولا نجاح لعمل إن لم يكن الجد حليفه والصبر اليفه وقد قال شيشرون (إنَّ أوَّل دواعي الفلاح المثابرة وثانيها المثابرة وثالثها المثابرة) ونحن في الشرق قوَّالون لا فعالون فيجب أن نطرح هذه العادة من أفكارنا ونجعل أفعالنا أكثر من أقوالنا وعند ذلك ننجح.

٥ ـ الاقتصاد في الوقت. يتذمر الأهالي من قلة الوقت لقضاء الأشغال. فهل أشغالنا أكثر من أشغال الغربي؟ هل نهاره أطول من نهارنا؟ لا. بل ليس بين النهارين فرق! ليس شغلنا أكثر من شغل الغربي! بل ان الغربي يحافظ علَى وقته ويقسمه كي يكفي لإتمام أعماله، نحن نقضي أكثر أوقاتنا في القهاوي وهو يقضيها خلف مكتبه . . .

٦ ـ احترام النفس. قيل «ان احترام النفس أول دلائل الحياة، بل هذه هي الوطنية الحقة» إذا احترمنا أنفسنا يحترمنا غيرنا وبذلك نشعر أننا أعضاء عاملون في هذا الوجود وأن لنا مقاماً في المجتمع الإنساني.

٧ ـ فتح المدارس. في فلسطين ٩٠ في المئة أميون ففتح المدارس أهم الضروريات

لإزالة الأمية التي تساعد على الاستقلال الفكري وتساعد العامل على تحسين صناعته، وليكن غرض مدارس فلسطين تهذيب الأخلاق الحسنة وبث الروح الشرقية العالية وإلا فلا كانت تلك المدارس ولا كان التعليم والتهذيب.

التربية والأمهات

بقلم معروف الرصافي

مقتبس عن مجلة «دار المعلمين» عدد ٧، ٣٠ نيسان ١٩٢٤ السنة الرابعة.

هي الأخلاق تنبت كالنبات　　إذا سقيت بماء المكرمات
تقوم إذا تعهدها المربي　　على ساق الفضيلة مثمرات
ولم أرَ للخلائق من محل　　يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت　　بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسناً　　بأخلاق النساء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا　　كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت في جنانٍ　　كمثل النبت ينبت في الفلاة

فيا صدر الفتاة رحبت صدراً　　فأنت مقر أسنى العاطفات
إذا استند الوليد عليك لاحت　　تصاوير الحنان مصورات
لأخلاق الصبي بك انعكاس　　كما انعكس الخيال على المراة
فأول درس تهذيب السجايا　　يكون عليك يا صدر الفتاة
فكيف نظن بالأبناء خيراً　　إذا نشأوا بحضن الجاهلات
وهل يرجى لأطفال كمالٌ　　إذا ارتضعوا ثدي الناقصات
حَنَوْن على الرضيع بغير علم　　فضاع حنو تلك المرضعات
أأم المؤمنين إليك نشكو　　مصيبتنا بجهل المؤمنات
فتلك مصيبة يا أُمُّ منها　　«نكاد نغص بالماء الفرات».

تخذنا بعدك العادات ديناً　　فأشقى المسلمون المسلمات
فقد سلكوا بهن سبيل خسرٍ　　وصدوهن عن سبل الحياة
بحيث لزمن قعر البيت حتى　　نزلن به بمنزلة الأداة
وقالوا شرعة الإسلام تقضي　　بتفضيل الذين على اللواتي
وقالوا الجاهلات أعف نفساً　　عن الفحشا من المتعلمات
لقد كذبوا عَلَى الإسلام كذباً　　تزول الشم منه مزلزلات
أليس العلم في الإسلام فرضاً　　عَلَى أبنائه وعَلَى البنات
وكانت أمنا في العلم بحراً　　تحل لسائليها المشكلات
وعلمها النبي أجلَّ علم　　فكانت من أجلِّ العالمات
لذا قال ارجعوا أبداً إليها　　بثلثي دينكم ذي البينات
ألم نرَ في الحسان الغيد قبلاً　　أوانس كاتبات شاعرات
وقد كانت نساء القوم قدماً　　يرحن إلى الحروب مع الغزاة
فماذا اليوم ضر لو التفتنا　　إلى أسلافنا بعض التفات
فهم ساروا بنهج هدى وسرنا　　بمنهاج التفرق والشتات
نرى جهل الفتاة لها عفافاً　　كأنَّ الجهل حصن للفتاة
وتهذيب الرجال أجل شرط　　لجعل نسائهم متهذبات

ملحوظة:

كان الرصافي أستاذاً للغة العربية في دار المعلمين سنتي ١٩٢٠ و١٩٢١.

التقليد

من خطبة ألقاها عبدالله القلقيلي في يافا
ونشرت في مجلة «المقتطف» عدد مارس ١٩٢٥

المراد من التقليد الذي أزمعنا الكلام فيه في هذا المقام أن يتبع الإنسان غيره في أمر من الأمور ويحذو حذوه ويتشبه به وأظن أنه تبادر إلى أذهان بعض الإخوان أن التقليد الذي سأتكلم فيه هو التقليد في مصطلح علماء أصول الفقه عندنا معشر المسلمين أي التقليد في العقيدة والأعمال الشرعية. فالتقليد بهذا المعنى لا أقصد الكلام فيه إذ ليس هذا موضعهُ. وبعد فالتقليد بالمعنى المراد ههنا يجري في القول والفعل والأخلاق والعادات والآداب والأكل والشرب والملبس وسائر الأمور التي تعتور الإنسان والأحوال التي ترد عليه وتعرض له. فقد تقلد غيرك في قوله أو فعله وأخلاقه أو عاداته وآدابه أو أكلهِ أو لبسهِ أو في ذلك كلهِ.

﴿ سبب التقليد ﴾ إن الباعث على تقليد الإنسان غيرهُ هو اعتقادهُ فيمن يقلده الكمال كتقليد التلميذ أستاذه والولد أباه والجاهل العالم. ويكون الباعث أيضاً على التقليد أن يكون المقلَّد ذا مقام رفيع ورتبة عالية صاحب سلطان واستيلاء فيظن المقلد أن المقلد لم يدرك ذلك إلاَّ بما اتصف بهِ من الصفات وما استنهُ من السنن وانتهجهُ من المناهج فيسير على مثاله وينسج على منواله ويأخذ نفسهُ بتقليده في جميع أقوالهِ وأفعاله وأحواله ومن هذا الضرب تقليد المغلوب للغالب والمسود للسائد والخادم للمخدوم.

وقد فطن لذلك العلامة ابن خلدون وبيَّنه في مقدمته المشهورة حيث قال:

«فصل في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلتهِ وسائر أحوالهِ وعوائده. والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط بهِ من أن انقيادَها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت بهِ وذلك هو الاقتداءُ أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلتهُ من العوائد والمذاهب غالط أيضاً بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسهِ ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم» اهـ.

وإذا نظرنا في تقليدنا للغرب واقتدائنا به فأنا نجد الباعث عليه السبب فيه الأمرين اللذين ذكرناهما آنفاً وهما اعتقادنا في الغربيين الكمال وظننا أنهم لم يبلغوا ما بلغوه من المقام الرفيع والسلطان الواسع إلا لما انتحلوه من العادات والمذاهب وما سلكوه في أفعالهم من المناهج.

﴿ منافع التقليد ﴾ إذا عرفنا التقليد وسببهُ فيجدر بنا أن نعرف ما فيه من المنافع والمضار فإن هذا هو لباب موضوعنا وزبدتُهُ. لا ريب أن للتقليد منافع عظيمة وفي الاقتداء فوائد جسيمة يجب أن ندركها ونفطن لها اعترافاً بفضائل التقليد وتقديراً لمحاسنه ورداً على قوم نفروا منهُ نفرة السليم من الأجرب.

إنك لتبيَّن فضل التقليد وتقر بمزيته وحسنِه إذا علمت أن الأمم لا يمكن أن تحيا وتسعد وتبلغ حظها من العلم والمدنية والسؤدد إلا باقتفاء بعضها أثر بعض واقتباس بعضها من بعض وتلقي بعضها عن بعض. والتاريخ أصدق شاهد على ذلك فإن الغرب لم يبلغ ما بلغه من علم ومدنية وعمران وعز وسؤدد وسلطان إلا بعد أن اختلط بالعرب في الشام في الحرب الصليبية وجاورهم في الأندلس فتلقى عنهم العلوم والمعارف واقتبس منهم الفضائل والمحاسن كما أقر بذلك مؤرخو الغرب ونوهوا به. أفرأيت لولا التقليد الغرب للعرب أكان يستيقظ من غفلتهِ وينهض من كبوتِهِ. كلا.

وتتبين فضل التقليد وتقر بمزيته وحسنه إذا سألتك أي ثمرة تجني من درسك التاريخ وتصفح تراجم العظماء ومطالعتك سير الملوك والأمراء فقلت ان أعظم ثمرة أجنيها من ذلك أن أقف على العادات والمذاهب التي انتحلها العظماء حتى صاروا عظماء فأقلدهم في ذلك وأسلك سبيلهم وأقتدي بهم حتى أصير مثلهم وأبلغ مبلغهم وليت شعري من ينازع في صواب تقليدك لرجل عظيم فيما صار به عظيماً ومن يرتاب في منعة ذلك غير من لا يميز الصواب من الخطأ والمنفعة من المضرة.

﴿ مضار التقليد ﴾ لا ريب أن قوام الأمم أمران اللغة والعادات فإذا ذهبت من أمة لغتها وعاداتها فقد ذهبت وزالت. فلو فرضنا أن شعباً من الشعوب العربية الآن صارت لغتُه وعاداته إنكليزية فإنه بلا شك يكون قد باد وانقرض فإن انقراض الأمم هو دخولها في غيرها واندماجها في سواها وليس انقراض الأمم وهلاكها فناءها بالموت فحسب كما هو كذلك في الأفراد. وإذا كان كذلك فإن من أشد الأخطار على الأمم الشرقية أن تفرط في التقليد وتغلو حتى تفقد لغاتها وتنسلخ من آدابها وعاداتها فتنخلع من خصائصها ومقوماتها وفصولها ومميزاتها.

فعلى هذه الأمم إذا أرادت البقاء ورغبت الحياة أن تحرص على لغاتها الحاملة لآداب أسلافها وعلومهم ومعارفهم وحضارتها وأن تحتفظ بأحاسن عاداتها وأطايب آدابها وصفاتها ولو عليها أن تقتبس من الغرب الخلال الحميدة والعادات الممدوحة وتقلد الغرب في الجد والسعي والثبات وصدق العزيمة وقوة الإرادة.

وفرط الرغبة في العلم وبذل المال لنشره وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة والتحاب والتعاون وتعليم المرأة واحترامها إلى غير ذلك من الفضائل التي تحيي الأمم حياة طيبة وتعيش بها عيشة راضية.

أما تقليدنا للغربيين تقليداً أعمى والجري خلفهم على غير هدى اعتقاداً منا الكمال فيهم وظناً منا أنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بما هم عليه من العادات والمذاهب وما هم فيه من الأزياء والأحوال فذلك صائر بنا إلى الردى وسوء العقبى.

إنه لجدير بنا ونحن نرى أنفسنا ذوي عقل وبصر الا نقلد الغرب في كل ما

انتحلوه بلا تروٍ ولا تبصر ومن غير ما نظر فيما نحن مقلدوهم فيه أهو حسن أو قبيح وضار أو نافع وصواب أو خطأ وملائم لبيئتنا أو غير ملائم ومطابق لتقاليدنا وآدابنا أو غير مطابق فإن ذلك سبيل من لا عقل له ولا بصر.

إن عقلاء الغرب اليوم وحكماءه هبوا يقبحون كثيراً من عادات أقوامهم ويهجنون كثيراً من مذاهبهم ويعيبون كثيراً من أزيائهم وأحوالهم وينذرونهم بقرب زوال حضارتهم وذهاب علومهم ومعارفهم وغروب شمسهم وتبدد نظامهم. فهل لنا أن نتعظ بأقوال هؤلاء العقلاء ونستشفي بحكم أولئك الحكماء.

وكما أن تقليدنا للغرب في كل الأمور تقليداً أعمى قبيح ومعيب فإن اقتصار قوم منا على تقليدهم في خلال لا تنفع بل تضر وتوقع النفرة منهم في القلوب والوحشة في النفوس أكثر قبحاً وعيباً وذلك كالعكوف على الملاهي والإسراف في معاقرة الخمر والتشبه بهم في الملابس والمآكل والتبرج وما أشبه ذلك.

فلندع تقليدهم في مثل هذه الخلال ولننتقي من أخلاقهم وعاداتهم أحسنها وأطيبها ولنتخير من مواردهم أصفاها وأعذبها فإن ذلك أقوم سبيلاً وأحمد عاقبة ومآلاً.



هذا الكتاب الذي وضعه الدكتور علي المحافظة ، رئيس جامعة مؤتة الأردنية، ضمن السلسلة الجديدة التي تصدرها «الأهلية للنشر والتوزيع» عن عصر النهضة في الأقطار العربية، هو محاولة لإيضاح الدور الذي قامت به فلسطين والأردن في الحياة الفكرية في عصر النهضة. والكتاب في قسمين: الأول يتحدث عن الأفكار والثاني يتضمن نماذج مما وضعه المفكرون خلال تلك الفترة الممتدة من ١٧٧٥ حتى ١٩٢٥.